

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحيا بمن شاء مآثر الآثار بعد الدثور، ووفق لتفسير كتابه العزيز بما وصل إلينا بالأسانيد العالية من الخبر المأثور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تضاعف لصاحبها الأجور، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أسفر فجره الصادق فمحا ظلمات أهل الزيغ والفجور، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه ذوي العلم المرفوع والفضل المشهور، صلاة وسلاماً دائماً على ممر الليالي والدهور^(١).

وبعد:

فإن العلم أسمى ما تسابقت إليه همم الدارسين، وأعظم ما تنافست فيه وقت الطالبين، قال تعالى مبيناً فضل العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وأجل أصناف العلم وأرفعها شأناً، وأكمل معالمها وأنفعها قدراً، علوم القرآن العظيم، فالقرآن الكريم هو العصمة الواقية، والنعمة الباقية، والحجة البالغة، والدلالة الدامغة، وهو شفاء الصدور، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور، وهو الكلام الجزل، والفصل الذي ليس بالهزل، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وثناؤه، وبحر لا يدرك غوره.

(١) من مقدمة «الدر المنثور».

وعلم التفسير من بين علوم القرآن الكريم أجلها شرفاً، وأعلاها منزلةً، وأقواها برهاناً، وأوثقها بنياناً، وأوضحها تبياناً، فإنه مأخذها وأساسها، وإليه يستند اقتناصها واقتباسها، كيف لا وموضوعه كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، فإن غايته التوصل إلى فهم معاني كلام الله سبحانه، واستنباط أحكامه، ومعرفة مراده، ليصار بذلك إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

وأول من أظهر تفسير القرآن الكريم وبيّن للناس معانيه رسول الله ﷺ، وكان أعلم الناس بمعاني كتاب الله ومراده، وإدراك خواصه وأسراره، ومعرفة مآلاته ومقاصده، بل هو الذي وجه إليه الله كلامه حيث قال: ﴿لَتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فكان النبي ﷺ يبين المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه، فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه، ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وتداول ذلك التابعون من بعدهم، ونقل ذلك عنهم.

ولم يزل ذلك متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً، ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك، ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك إلى أحمد بن حنبل وسفيان الثوري والطبري والواقدي وأمثالهم من المفسرين، فكتبوا ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار.

وأجمع العلماء على أن أبرز المفسرين للقرآن من الصحابة الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، رضي الله عنهم أجمعين.

وأما التابعون فأبرز من روى التفسير منهم مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وعطاء بن أبي رباح، وهؤلاء أكثر ما روه عن ابن عباس - رضي الله عنه، وقد روى التفسير عن ابن مسعود رضي الله عنه علقمة، والأسود بن يزيد النخعي، وعبيدة بن عمرو السلماني، وعمرو بن شرحبيل.

ثم جاءت الطبقة التالية من صغار التابعين، ومن تابعي التابعين، فدونوا الروايات وميزوها عن علم الحديث، وظهرت في طبقتهم لأول مرة الكتب المتعلقة بالتفسير، يقال: إن عبد الملك بن جريج المتوفى سنة (١٤٩هـ) أول من جمع الأخبار المتعلقة بالتفسير في كتاب مستقل.

وقد تطور تصنيف علم التفسير بعد ذلك فحذفت الأسانيد من جهة وضمت الروايات المتعددة من جهة أخرى إلى بعضها البعض، وبدأ العلماء المفسرون باتخاذ منهج النقد للروايات، والتمييز بينها لقبول الصحيح ورد الضعيف، ويعتبر تفسير ابن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ) أعظم وأقدم تفسير بالمأثور وصل إلينا كاملاً.

ثم تلا بعد تفسير الطبري عدة تفاسير بالمأثور منها تفسير أبي بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة (٣١٨هـ)، وابن أبي حاتم المتوفى سنة (٣٢٧هـ)، وأبي الشيخ ابن حيان الأصفهاني المتوفى سنة (٣٦٩هـ)، والحاكم المتوفى سنة (٤٠٥هـ)، وابن مردويه المتوفى سنة (٤١٠هـ) وغيرهم.

ثم ظهر في القرن التاسع الإمام الجليل الحافظ المحدث أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشُّيوطي، علم من أعلام المسلمين الذين اتسموا بسعة المعارف والعلوم في شتى الفنون.

عاش جلال الدين السيوطي في مصر في زمن عرف بـ «عصر المماليك» في ظلّ الخلافة العباسية التي انتقلت إلى مصر بعد سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) على أيدي المغول، وكان عصره متناقضاً؛ لكون الحالة السياسية متقلّباتاً لا استقرار فيها، أمّا الحركة العلمية والمعرفية فكانت مزدهرة، وكان لسلطين المماليك أثر واضح في إثراء الحياة العلمية بمصر التي أصبحت موطناً للعلم والعلماء يقصدونه من كل حدب وصوب.

وقد نتج في هذا العصر ولادة موسوعات مهمة في تاريخ العلوم الإسلامية، كـ «المواعظ والاعتبار» المعروف بخط المَقْرِيزِي (ت ٨٤٥هـ)، و«فتح الباري بشرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (ت ٨٨٥هـ)، وغير ذلك من الموسوعات^(١).

وقد بدت هذه النزعة الموسوعية على مؤلفات جلال الدين السيوطي،

نحو:

١- «ترجمان القرآن» أو «التفسير المسند».

٢- التفسير الكبير المسمّى «مجمع البحرين ومطلع البدرين الجامع لتحرير الرواية وتقرير الدراية»، ووصفه بأنه: تفسير جامع لجميع ما يُحتاج إليه من التفاسير المنقولة والأقوال المقولة، والاستنباطات، والإشارات، والأعاريب، واللغات، ونكت البلاغة، ومحاسن البديع، وغيره، بحيث لا يُحتاج معه إلى غيره أصلاً^(٢).

(١) ينظر: «مقدمة تفسير الدر المنثور للسيوطي بين المخطوط والمطبوع»، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، ص ١٦٦-١٦٧.

(٢) ينظر: «الإتقان» ص ٤١٢.

ولما أَلَّف جلال الدين السيوطي كتابه «المسند في التفسير» وانتهى منه ، رأى قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ولمس الرغبة في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد ، فلخص من تفسيره المسند كتابه «الدر المنثور» ، مقتصرًا فيه على متن الأثر ، مصدرًا إياه بالعزو إلى الكتب المعتبرة في علم التخريج ، وفرغ من تبييضه سنة (٨٩٨هـ).

تبين مما سبق ذكره أن جلال الدين السيوطي قصد بكتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» أن يقرب كتابه إلى ناشديه ، مع جمع أكبر عددٍ من المرويات في التفسير فيما وقف عليه.

وكتاب «الدر المنثور» هو الكتاب الوحيد الفريد الذي اقتصر فيه السيوطي على التفسير المأثور من بين من تقدمه من المفسرين ، فلم يخلط بالروايات والآثار التي نقلها شيئاً من عمل الرأي كما فعل غيره.

قال الكتاني : ومن طالع «الدر المنثور» بتمعن أدهشه وأبهته وأسكته ، ومن لم يطالعه ، أو طالع منه حُرَيْفات انتقد واستمر ما يراه غيره حلواً ، ولو سكت من لم يعلم لسقط الخلاف^(١).

ولأهمية هذا المؤلف والمؤلف بادرت بإبراز منهجية جلال الدين السيوطي في كتابه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، وإبراز موارده التي استقاها.

وقد اشتملت خطة البحث على مقدّمة ، وبابين ، وخاتمة .

المقدّمة ، وفيه : مقدمة البحث ، أهمية البحث ، وخطة البحث.

الباب الأول : وفيه ثلاث فصول :

(١) ينظر : فهرس الفهارس والأثبات (٢/١٠١٨-١٠١٩).

الفصل الأول: الحالة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية:

المبحث الأول: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الإدارية.

المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية.

المبحث الرابع: الحالة الاجتماعية.

المبحث الخامس: الحالة الدينية.

المبحث السادس: الحالة العلمية والفكرية.

الفصل الثاني: ترجمة الإمام السيوطي، ويشمل على تمهيد وخمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه، كنيته ولقبه، والده، أمه.

المبحث الثاني: مولده، أسرته، نشأته وبدء طلبه للعلم، رحلاته.

المبحث الثالث: بدء تدريسه وإفتائه وإملائه ووظائفه.

المبحث الرابع: خلقه وورعه، تمسكه بالسنة وسلوكه طريق السلف الصالح.

المبحث الخامس: وفاته.

الفصل الثالث: الحياة العلمية والفكرية للإمام السيوطي:

المبحث الأول: شيوخ السيوطي.

المبحث الثاني: تلاميذ السيوطي.

المبحث الثالث: مؤلفات وآثار السيوطي.

الباب الثاني : جهود السيوطي في القرآن وعلومه ، ومنهجه في «الدر المنثور» ، وفيه فصلان :

الفصل الأول : جهود الإمام السيوطي في القرآن وعلومه عموماً ، وفيه مبحثان :

المبحث الأول : أهم مصنفات السيوطي في التفسير .

المبحث الثاني : أهم مصنفات السيوطي في علوم القرآن .

الفصل الثاني : منهج الإمام السيوطي في «الدر المنثور» ، وفيه ست مباحث :

المبحث الأول : التفسير بالمأثور تعريفه ومصادره وضوابطه وأهم التفاسير بالمأثور .

المبحث الثاني : تسمية ونسبة «الدر المنثور» .

المبحث الثالث : مصادر ومراجع السيوطي في «الدر المنثور» .:

المبحث الرابع : موازنة بين تفسير ابن جرير الطبري وتفسير الدر المنثور للسيوطي .

المبحث الخامس : منهج السيوطي في كتاب «الدر المنثور» عموماً مع نموذج تطبيقي .

المبحث السادس : طبقات كتاب «الدر المنثور» .

الخاتمة .

هذا وقد بذلت قصارى جهدي في إخراج هذا البحث على أحسن ما يكون ، فما كان من صواب فمن الله وحده ، وله الشكر على ذلك والمثمة ، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان ، وأستغفر الله من ذلك .

هذا ولا يسعني وأنا أكتب هذه الكلمات إلا أن أشكر الباحثين الذين سبقوني في دراسة حياة ومنهجات الإمام السيوطي في كتبه ورسائله فجزاهم الله عني خيراً، فقد أعانني كثيراً ما كتبوه وسطروه، بل ما أحسب ما قمت به إلا جمع لما قدموه ونشروه، راجياً من الله تعالى لي ولهم القبول والتوفيق والرشاد.

وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بها دنياً وأخرى، وأن يكلل جميع أعمالنا بالتوفيق والنجاح، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وبارك على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

وكتبه

يوسف بن نوح أحمد

مكة المكرمة ١/١/٢٠١٤م



الباب الأول:

وفيه ثلاث فصول:

الفصل الأول: الحالة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية.

الفصل الثاني: ترجمة الإمام السيوطي، ويشمل على تمهيد وخمسة مباحث.

الفصل الثالث: الحياة العلمية والفكرية للإمام السيوطي.



الفصل الأول:

الحالة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية
والدينية والعلمية:

المبحث الأول: الحالة السياسية.

المبحث الثاني: الحالة الإدارية.

المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية.

المبحث الرابع: الحالة الاجتماعية.

المبحث الخامس: الحالة الدينية.

المبحث السادس: الحالة العلمية والفكرية.



المبحث الأول: الحالة السياسية:

المطلب الأول: بداية المماليك وأصولهم.

المطلب الثاني: عوامل قيام دولة المماليك البحرية.
العوامل الداخلية:

١- ضعف الدولة الأيوبية

٢- نشأة المماليك البحرية

٣- عقلية تورانشاه

٤- عقلانية شجر الدر

العوامل الخارجية:

١- الحملة الصليبية السابعة

٢- صد المغول

٣- سوء أحوال العالم الإسلامي

عوامل ثبتت حكم الدولة المملوكية وقوتها:

١- إنهاء الوجود الصليبي

٢- إحياء الخلافة العباسية

٣- الاهتمام بالناحيتين الدينية والعلمية

المطلب الثالث: سلاطين دولة المماليك البحرية:

المطلب الرابع: الجو السياسي العام.

المطلب الخامس: السياسة الخارجية.



المبحث الأول الحالة السياسية

تمهيد:

عاش جلال الدين السيوطي في مصر ما بين منتصف القرن التاسع الهجري، وأوائل القرن العاشر الهجري، إذ ولد (٨٤٩ هـ - ١٤٤٥ م) وتوفي (٩١١ هـ - ١٥٠٥ م)، أي: في أواخر العصر الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بـ: «عصر المماليك»؛ وسيأتي الحديث عنهم بالتفصيل إن شاء الله تعالى.

المطلب الأول: بداية المماليك وأصولهم

الرق نظام اجتماعي قديم جداً، عميق الجذور، وليس من السهل تحديد بدايته، فالاسترقاق قد ظهر منذ كان الاجتماع الإنساني، ذلك لأن الإنسان كان ينظر إلى العمل على أنه من أصعب الضرورات وأشقها، فأخذ يبحث عن من يخلصه من عنائه، ووجد هدفه في أخيه الإنسان، فكان القوي يلزم الضعيف بالاشتغال، ومن هنا نشأ الرق، ثم نشبت الحروب التي كانت أهم مصدر من مصادر الرق^(١).

وكانت الأمم التي عرفت الرق منذ قديم الزمان، قد شرعت هذا النظام، وأقرته في قوانينها، فقد شاع هذا النظام عند اليونانيين القدماء، وأقره كبار فلاسفتهم كأرسطو وأفلاطون، وكذلك أيده الرومان وعدّوه نظاماً ضرورياً^(٢).

(١) ينظر: «الرق في مصر في العصور الوسطى»، عبد الدايم، القاهرة، ص ٧.

(٢) ينظر: «الرق في الإسلام» فايد، ص ٦-٩.

وكان الفرس مسرفين في مسألة الرق بسبب حالة الترف التي كانوا يعيشونها، وعدّه المصريون القدماء آلة للإنتاج، أو أداة من أدوات الزينة والخدمة، وعرف الهنود الرق وعاملوا الأرقاء بقسوة، في حين كانوا يعاملون الحيوانات برحمة^(١).

كما عرف اليهود الرق، فكانوا يسترقون الناس بطريقتين؛ إحداهما: استرقاق أفراد لارتكابهم خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً، وثانيهما: استرقاق غير اليهود الذين وقعوا في الأسر، وقد قامت اليهودية على التمييز العنصري، فهي لا تلاحظ الجانب الإنساني في غير اليهود، فالله تعالى وحده هو إله اليهود وحدهم، وهم - كما يزعمون - أبناء الله وشعب الله المختار، وقد اختارهم ليكونوا سادة وليكون الناس عبيداً لهم. وعرفت المسيحية الرق أيضاً، غير أنها خفت من ظروف الاسترقاق بما غرسته من مبادئ إنسانية^(٢).

والعرب في الجاهلية مثلهم مثل سائر الأمم الأخرى عرفوا الرق، وكانوا يحصلون على الرقيق باسترقاق أسرى الحروب، أو بالشراء، وكانت قریش تتاجر بالرقيق كما تتاجر بسائر السلع، وكان العربي إذا اشترى عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله مثل الدواب، وحُرْم الأرقاء في الجاهلية من حقوقهم المدنية كافة، كما حرّموا من التصرف في شؤونهم الخاصة، كما كانت الأمم القوية التي كانت قبل الإسلام كالفرس والروم في العراق والشام ومصر تنظر إلى السكان الأصليين كما تنظر إلى العبيد، فاتخذت الكثيرين منهم أرقاء^(٣).

(١) ينظر المرجع السابق، ص ١٠، ١١.

(٢) ينظر: «الرق في مصر في العصور الوسطى» عبد الدايم، ص ٩، ١٠، «الرق في الإسلام» فايد، ص ١٢-١٤.

(٣) ينظر: «الرق في مصر في العصور الوسطى» ص ١٠، ١١.

وعندما جاء الإسلام لم يكن هناك من يستغرب أحوال الرقيق، أو من يشعر بالحاجة إلى تعديلها، إلا أن الإسلام لم يأمر بالاسترقاق قط، ولم يرد في القرآن الكريم نص على جواز استرقاق الأسرى، ولكن الإسلام جاء فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً، فعمل على علاج تلك الظاهرة بتجفيف مصادر جلب الرقيق، بغية الوصول - مع مرور الزمن - إلى إلغائه من دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها أو قيادتها، فبدأ الإسلام بتخفيف موارد الرق، ويسّر السبيل إلى تحرير الأسرى، وأخذ يعمل على تحرير الأرقاء، بوسائل وأساليب كثيرة لا مجال لذكرها هنا^(١).

وقد تكاثر الرقيق في المجتمع الإسلامي في العصور التالية لصدور الإسلام - في الدولة العباسية وما تلاها - وذلك بسبب الانحراف عن النهج الإسلامي.

ولما لم تنقطع الحروب في العصور الوسطى أصبح امتلاك الرقيق في متناول المستطيعين بسبب الغنى والثروة، سواء منهم حاكمون ومحكومون، فانتشرت تجارة الرقيق في الدولة الإسلامية، كما انتشرت في غيرها من الدول، وتنوع الأرقاء، فمنهم السود ومنهم البيض (المماليك)، وبذلت الأثمان الغالية في شرائهم، وكان الأتراك والصقالبة أشهر الرقيق الأبيض في القرون الوسطى، وكان الرقيق الصقالبة موضع تفضيل، وهم سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أرضها من بحر قزوين إلى البحر

(١) ينظر: «نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر» علي سالم النباهين، ص ٩٣-٩٥.

الأدرياتي، كما تمتع الرقيق الأتراك بمكانة ممتازة في البيوت الإسلامية، وكانت أقاليم ما وراء النهر مصدراً مهماً لهم حيث أضحت تجارتهم أعظم مهنة هناك، أما الرقيق الصقالبة فطريقه الرئيسي هو الطريق الذي يبتدىء من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وإلى فرنسا ومنها إلى إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

وأنشئت للرقيق أسواقٌ وخانات في المدن الكبرى، أشهرها دار الرقيق في بغداد، وسوق الرقيق في دمشق، وسوق سامراء في العراق، وخان مسرور في القاهرة^(١).

وظل الاسترقاق شائعاً بين الأمم إلى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي - الثالث عشر الهجري، ثم اتفقت الدول على إبطاله، ولم يكن الدافع إلى الإلغاء إنسانياً بحتاً، بل كان استجابة لثورات الرقيق المتتالية، أو بسبب ضعف إنتاج العبيد لسوء حالتهم المعيشية، وضعف رغبتهم في العمل، أو عجزهم عنه، فأصبحت تكاليفهم تربو على أرباحهم، فألغت الثورة الفرنسية الرق في أوربة، وألغى (لنكولن) الرق في أمريكا، وقامت إنجلترا بحملتها لإبطال الاسترقاق، ثم اتفقت كلمة العالم على إبطاله، وكان ذلك إبطالاً للرق في الظاهر، أما الرق الجماعي فلا يزال موجوداً في صورة الاستعمار البغيض، وفي مآسي الملونين في إفريقيا، وفي الحرمان الذي يقاسيه الزوج في أمريكا^(٢).

وعند هذه النقطة علينا التمييز بين لفظتي (المماليك) و(العبيد)، فلفظة (مماليك) نفسها تعني ما يُملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٩٦-٩٨.

(٢) ينظر: «الرق في الإسلام»، ص ١٦، ١٧.

ذلك، على عكس لفظة (العبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يولد من الرقيق، بينما يولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يعني أسود، بينما المملوك يكون أبيض، ويتشابه الاثنان في أنهما قد جمعتهما وحدة الغربية والمخاطرة^(١).

ويرجع استخدام المماليك في الجيوش العربية الإسلامية إلى أيام الدولة العباسية على الأرجح، حيث بدأ يتوافد الأتراك على الأرض العربية الإسلامية منذ العصور العباسية المتأخرة، على أن ذلك كان أوضح ما يكون في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (ت ٢٢٧ هـ - ٨٤١ م) الذي شكّل منهم فرقاً عسكرية، وكان يُرسل من يشتريهم، واستكثر منهم حتى اختلفت الروايات في مقدار عددهم، فقيل: إن عدتهم بلغت أربعة آلاف^(٢)، وقال بعضهم: ثمانية آلاف^(٣)، وقيل: إنهم ثمانية عشر ألفاً^(٤)، وقيل: ثلاثون ألفاً، وعندما ازدادت أعدادهم في بغداد، وصاروا يؤذون العوام فيها، بنى المعتصم لهم مدينة سامراء وأسكنهم فيها^(٥).

وهكذا أصبح الأتراك عنصراً ذا أهمية في المجتمع الإسلامي، ولم يجعل المعتصم الجيش منهم تخلصاً من العرب والفرس فحسب، بل لأنه لمس أهميتهم وأدرك فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافة العباسية، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذهم بعد أن صار منهم الجيش، فلما ضعف

(١) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك» ماجد عبد المنعم: (١١/١).

(٢) ينظر: «مروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي: (٥٣/٤).

(٣) ينظر: «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ابن تغري بردي: (٢/٢٨٥).

(٤) ينظر: «الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين» لابن دقماق: (٢/٣٨٧).

(٥) ينظر: «تاريخ الأمم والملوك» للطبري: (٧/٢٣١، ٢٣٢).

سلطان الخلافة في الأقاليم، وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، ويات الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة، غير أن الحركات الاستقلالية ما لبثت أن أغرت الأتراك أنفسهم، حتى صارت معظم الدويلات الإسلامية منذ أواسط القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي من الترك، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم، بل إن بعض الدويلات غير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الأقل من المماليك الأتراك المجلوين عن طريق الشراء.

وبذلك ظلت الدول القائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر، فالدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٨ هـ - ٨٦٨-٩١١ م) استعانت بهم، واستخدمهم السامانيون (٢٦١-٣٨٩ هـ - ٨٧٤-٩٩٨ م) في جيوشهم منذ سنة (٣٠٠ هـ - ٩١٢ م)، أما في مصر فقد استخدم هؤلاء المماليك كل من الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢ هـ - ٨٦٨-٩٠٥ م)، والدولة الإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨ هـ - ٩٣٥-٩٦٩ م)، ولما دخل الفاطميون مصر سنة (٣٥٨ هـ - ٩٦٩ م) اعتمد خلفاؤهم الأوائل منذ أيام المعز (٣٤١-٣٦٥ هـ - ٩٥٢-٩٧٥ م) على عناصر تركية^(١).

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ - ١١٧١ م ساروا على نهج الدول التي سبقتهم في الإكثار من شراء المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش، فكان جيش صلاح الدين مكوناً من عدة فرق منهم، وقام هو بنفسه

(١) ينظر: «الخطط المقرية» للمقريري: (٩٤/١)، «تاريخ المماليك في مصر والشام» طقوش،

بشراء مجموعة وكوّن منها فرقة يقال لهم المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه (الملك الناصر)، وبعد وفاته حدث كثير من المنازعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، فكان من الطبيعي أن تزداد أعداد المماليك الأتراك في أثناء تلك النزاعات، وأن يستمر بنو أيوب في جلب الرقيق لتغذية جيوشهم، وكان أكثر الأيوبيين جلباً للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب كما سنرى^(١).

ولم يكن ثمة استمرار تاريخي يربط بين ممالك الأيوبيين ومماليك كل من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين، لأن هؤلاء كانوا أخلاطاً من البيض والسود، في حين كان ممالك الأيوبيين من الأتراك القفجاق.

إذاً، تعود أصول هؤلاء المماليك الذين جاؤوا إلى مصر عن طريق التجار إلى بلاد القفجاق الواقعة شمالي البحر الأسود، فالصالح نجم الدين أيوب لما تولى الحكم اشترى منهم نحو ألف تقريباً وأمر منهم جماعة في أثناء حياته^(٢).

كما تعود أصول غيرهم إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان، وبلاد ما وراء النهر، ومنغوليا، إضافة إلى المماليك الذين جلبوا من البلاد الأوربية^(٣).

وكان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً من طريق البحر، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية، بينما كان التجار

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٩٤/١).

(٢) ينظر: «الجوهر الثمين» لابن دقماق، ص ٢٥٩.

(٣) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١٢/١).

المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر، ثم يؤتى بالممالك للبيع في أسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن^(١).

وقد غلبت تسمية الترك على هؤلاء المماليك، ولهذا فقد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كلهم من الجنس التركي، والواقع أن فيهم عدة أجناس أخرى، من كان من أصل تركي كالظاهر بيبرس، أو جركسي كبرقوق، أو تيري كالعادل زين الدين كتبغا، وهناك ممالك من أجناس أخرى كالتركمان والأرمن والروم وغيرهم، واسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتمييزهم كما يقول ابن خلدون^(٢).

المطلب الثاني: عوامل قيام دولة المماليك البحرية

تهيأت عوامل داخلية وأخرى خارجية أسهمت إسهاماً كبيراً في تأسيس دولة المماليك البحرية، فالدولة المملوكية خرجت من رحم الدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها بعد أن دب الضعف في أوصالها، وتهيأ أشخاص كانوا سبباً مباشراً في ذلك كالصالح نجم الدين أيوب الذي أسس فرقة المماليك البحرية، وابنه تورانشاه، وزوجته شجر الدر، ثم ازداد خطر الصليبيين على البلاد، واقترب المغول منها، فواجه المماليك هذين الخطرين بشجاعة نادرة، فما كان من الجميع إلا أن وقفوا إلى جانبهم، وبعد أن نشأت هذه الدولة نشأتها الأولى قصد المماليك أفعالاً ساهمت في توطيد أركان دولتهم الفتية، فقاموا بإحياء الخلافة العباسية، واستمروا يقاتلون الصليبيين حتى أجلوهم عن البلاد، ثم توجهوا إلى داخل البلاد محاولين التقرب من العلماء

(١) ينظر المرجع السابق، ص، ١٢، ١٣.

(٢) ينظر: «تاريخ ابن خلدون» لابن خلدون: (٤٣٠/٥).

ومن الشعب بتشديد المؤسسات الدينية والتعليمية، فكان من كل ما تقدم عوامل أسهمت في قيام دولة المماليك البحرية بقوة ومن دون منازع أو منافس لها.

١- العوامل الداخلية:

أ- ضعف الدولة الأيوبية:

ترك صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وسبعة عشر ولداً وبناتاً واحدة، وكان قد وزع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم، إذ إن كلاً منهم كان يطمح في أن يضاهي نصيبه نصيب جاره أو يفوقه، ويرمي إلى تزعم العائلة الأيوبية، والحقيقة أنه - ومنذ وفاة صلاح الدين - لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بالمؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية^(١).

وقد استطاع الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين له، ثم بدأ بتنظيم الدولة، ووزع أولاده على الولايات فارتكب بهذا التوزيع الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزع إرثه على أولاده وإخوته، مما أدى إلى إضعاف الأيوبيين، فهذا التوزيع سبب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين من جديد^(٢).

(١) ينظر: «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفداء: (١١٤/٥) وما بعد.

(٢) ينظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير: (٣٩٠/١٠) وما بعده.

في كل هذه المنافسات والمنازعات، كان الأيوبيون يستكثرون من شراء المماليك، وكانت كل مجموعة من هؤلاء تُنسب إلى صاحبها الذي اشتراها وتولاها بالتربية والتدريب، فالأسدية مثلاً سُميت بذلك نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى الملك العادل أخي صلاح الدين، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل^(١).

وتدل الأحداث على أنه كان لهؤلاء دور كبير في تطور الأحوال السياسية، وأثر فعّال في الحروب، وكانوا يتدخلون تدخلاً مؤثراً في شؤون الدولة الأيوبية، بل أسهموا في كثير من الأحيان في عزل السلاطين وتوليّتهم، وهذا كان له أثر واضح في انتقال السلطة إلى المماليك^(٢).

ب - نشأة المماليك البحرية:

وصل الصالح نجم الدين الأيوبي إلى حكم الديار المصرية سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م، وكان مغرمًا بشراء المماليك الأتراك، ويبدو أن سبب ذلك يكمن في اعتماده عليهم في حمايته من مؤامرات البيت الأيوبي، فاستكثر منهم حتى دفع ذلك عدداً من المؤرخين إلى القول إنه هو الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمرهم بديار مصر، فما كان من هؤلاء إلا أن عاثوا فساداً في البلاد حتى ضاقت بهم القاهرة، وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون البضائع من الدكاكين، فضج الناس منهم، فلما زاد أمرهم في أذى الناس شرع الملك الصالح في بناء قلعة بالروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم

(١) ينظر: «مصر في عصر دولة المماليك البحرية» عاشور، ص ١٣.

(٢) ينظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة: (٢/٩٠، ١٣٠)، (٣/٢٩٥، ٣٢٠، ٣٣٣،

٣٤١، ٣٥٧، ٤١٤، ٤١٥).

بها، وسماهم المماليك البحرية، وكانت عدتهم ألف مملوك... وجعل حول هذه القلعة مراكز بحرية مشحونة بالسلاح» ومعدّة لقتال الفرنج إذا طرقت البلاد، فيكون هؤلاء المماليك على أهبة الاستعداد، ففرقة المماليك البحرية هذه كانت نواة دولة المماليك البحرية، وتصدت لأعظم خطرين واجهتهما مصر آنذاك: الصليبيين والمغول، وكان للكثير من أفرادها دور كبير في توطيد أركان الدولة وإرساء أسسها كسيف الدين قطز، والظاهر بيبرس.

ج - عقلية تورانشاه:

وصلت في سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩م إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة، حيث كان الصالح أيوب وقتها مريضاً، ثم ما لبث أن توفي في العام نفسه بعد أن أوصى بأن يكون السلطان من بعده لولده المعظم تورانشاه، الذي كان غائباً في حصن كيفا وقتذاك، فأرسلت شجر الدر زوجة الصالح أيوب في طلبه، وانجلت المعركة عن هزيمة الصليبيين، وانتصار جيش المماليك البحرية^(١).

ويبدو أن تورانشاه لم يستفد من النصر إذ لم يكن الشخص المناسب للحكم، كما أنه لم يكن القائد القادر على مواجهة ظروف تلك المرحلة، فارتكب أفعالاً أودت بحياته في نهاية الأمر، وتسببت في انقراض الدولة الأيوبية، وبروز المماليك البحرية في الوقت نفسه، فبعد الانتصار على الصليبيين قام تورانشاه بإبعاد أمراء دولة أبيه واعتقالهم - وهم أصحاب النصر الحقيقي - وقرب غلمانهم الذين جاؤوا معه من حصن كيفا، وولاهم المناصب

(١) ينظر: «الجوهر الثمين» لابن دقماق، ص ٢٤٦-٢٤٨، «الخطط» للمقريزي: (١)، ق ٢/٣٤٣-

والوظائف السلطانية، ولم يقف عند هذا الحد، بل أرسل في طلب شجر الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وثروته، فاستفزت هذه الأفعال المماليك البحرية، وحقّرتهم لتزعم مؤامرة ضده، فاتفقوا على قتله، وفعّلوا، ومات تورانشاه جريحاً حريقاً غريقاً، فكان آخر حلقة في الدولة الأيوبية، وأول من ساهم بأفعاله بانتقال الحكم إلى المماليك البحرية.

د - عقلانية شجر الدر:

قامت شجر الدر بأعمال حكيمة تدل على ذكائها، كانت ذات آثار عميقة في قيام دولة المماليك البحرية، ففي أثناء وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر وبعد استيلائها على دمياط، وفي أثناء كل ذلك توفي الصالح نجم الدين أيوب زوج شجر الدر، فقامت بإخفاء نبأ وفاته، ثم أرسلت في طلب تورانشاه، هذا التصرف كان سبباً في الإبقاء على معنويات الجيش، وفي استمراره في مقاومة الحملة الصليبية، والانتصار عليها في نهاية المطاف.

وبعد مقتل تورانشاه أضحى العرش شاغراً، فوقع الاختيار على شجر الدر لتولي السلطنة، فباشرت التوقيع، ونُقش اسمها على السكة، ثم دخلت في مفاوضات مع الصليبيين انتهت إلى إعادة دمياط للمسلمين، وفك الأسرى، وإطلاق سراح لويس التاسع مقابل مال مقدر. ولذلك عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية، وتورانشاه آخر ملوك الأيوبيين.

وبعد تولي شجر الدر للسلطة تمردت الإمارات المختلفة واستقلت معلنة رفض التبعية للسلطنة الجديدة، فانقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، الأولى بأيدي المماليك في مصر، والثانية بأيدي الأيوبيين في الشام، ووقف الخليفة العباسي المستعصم بالله رافضاً مبدأ قيام امرأة في حكم المسلمين،

وشعر المسلمون كذلك بحرج شديد في أن يلي أمرهم امرأة، وقد أخرجت شجر الدر الجميع من هذا المأزق عندما تزوجت المعز عز الدين أيك، ثم تنازلت له عن الحكم بعد بلوغ أهل مصر قدوم التتار، فتكون شجر الدر بذلك قد نجحت في صد الحملة الصليبية من جهة، وهيأت البلاد لمواجهة التتار بتنازلها عن العرش من جهة ثانية، كما حسمت النزاع القائم بتولي العرش امرأة من جهة ثالثة.

وكما عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين المماليك، رأت فئة أخرى أنها آخر السلاطين الأيوبيين، وأن المعز عز الدين أيك أول سلاطين المماليك^(١).

٢- العوامل الخارجية:

تجلّت العوامل الخارجية بالحملة الصليبية السابعة وغزو المغول، وبتخليص المماليك الأمة من هذين الخطرين علا شأنهم، وازدادت قوتهم، كما كان سوء أوضاع العالم الإسلامي آنذاك محفزاً للكثيرين للتوجه نحو هذه الدولة المستقرة.

أ- الحملة الصليبية السابعة:

كانت محاولات الصليبيين تتجه للسيطرة على مصر واسترجاع ممتلكاتهم التي فقدوها في سورية على يد صلاح الدين الأيوبي، وفي سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م، وصلت إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، واستطاعت الاستيلاء عليها، مما أحن الصالح أيوب كثيراً

(١) ينظر: «التحفة الملوكية في الدولة التركية» للمنصوري، ص ٢٧، و«مآثر الإنافة في معالم الخلافة» للقلقشندي: (٩٤/٢).

حتى إنه أقدم على شنق ما يزيد على خمسين أميراً ممن تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا في أثناء الحملة، فأخاف هذا التصرف مماليكه ففكروا بقتله لولا أن نهاهم عن ذلك أحد الأمراء لأن الصالح أيوب كان مريضاً، فانتظروا وفاته التي حلت سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م، فكانت وفاته في هذه الظروف الحرجة خسارة كبيرة، وفي ظل هذه الأوضاع ظهرت زوجته شجر الدر، واستطاعت أن تضبط الأمور وأن تخفي نبأ وفاته، وأرسلت في طلب ابنه تورانشاه، وفي مدة غيابه قامت بإدارة أمور البلاد^(١).

أما الصليبيون فإنهم توجهوا من دمياط ووصلوا إلى المنصورة وهناك اصطدموا بجيش المماليك البحرية سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م، ووقع قتال شديد انتهى بهزيمة الصليبيين، وأسر قائدهم لويس التاسع. وتسبب هذا الانتصار في رفع مكانة المماليك في نفوس الناس فالتفوا حولهم وتناصروا بهم.

ب - صد المغول:

بعد استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م، قصد هولاءكو الشام، فوصل إلى حلب ودخلها ودمرها، ثم توجه إلى حماة ومن هناك قصد دمشق واستولى عليها وعلى سائر الشام، وبعد ذلك وجّه هولاءكو سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م إنذاراً إلى المظفر قطز طالباً منه الاستسلام، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته انتهى به إلى قرار يرفض إنذار هولاءكو، ولم يكتف بذلك بل أقدم على قتل رسله الذين حملوا الإنذار، وفي تلك الأثناء غادر هولاءكو بلاد الشام متوجهاً إلى عاصمته بعد أن سمع بقيام صراع

(١) ينظر: «الجوهر الثمين» لابن دقماق، ص ٢٤٤-٢٤٨، «السلوك» المقرئزي: (١)، ق ٢/ (٣٣٣-٣٤٥)، «النجوم الزاهرة»: (٦/٣٢٢).

على السلطة هناك من جهة، ولخوفه على أملاكه في إيران من جهة أخرى، موكلاً قيادة الجيش للقائد كتبغا^(١).

وفي ظل هذه الأوضاع استقر رأي المماليك في مصر على مقاومة العدو، فوضع المظفر قطز خطة عسكرية محكمة تقضي بأن يزحف الظاهر بيبرس على رأس قوة استطلاعية لدراسة الموقف على الأرض، ثم توجه قطز نحو فلسطين، ثم نحو عين جالوت، فوصلها في يوم الجمعة ٢٥ رمضان من سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، واشتبك الجيشان المملوكي والمغولي، وبعد قتال شديد مرير انجلت المعركة عن نصرٍ رائعٍ للمماليك، وقُهر المغول، وقُتل قائد جيشهم كتبغا^(٢).

وبعد انتصار المماليك في عين جالوت توجه قطز مباشرة نحو دمشق ودخلها، ثم سيطر على سائر بلاد الشام من الفرات إلى حدود مصر، ثم استناب نوابه على كل من دمشق وحلب وحماة والمعرة والسلمية والساحل وغزة، موسعاً بذلك الأراضي والبلاد التي يسيطر عليها المماليك ومحققاً وحدة بلاد الشام ومصر من جديد.

لقد كانت معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ العربي والإسلامي لما ترتب عليها من نتائج مهمة أبرزها ما حدث قبل هذه المعركة، حيث أبرم الأيوبيون اتفاقية تعد وثيقة اعترف فيها بنو أيوب بشرعية سلطنة المماليك في مصر، وذلك بعد أن أحست الخلافة العباسية في بغداد

(١) ينظر: «تاريخ المماليك في مصر والشام» طقوش، ص ٧٤.

(٢) ينظر بالتفصيل: «المختصر في أخبار البشر»: (١١٢/٦) وما بعده، «البداية والنهاية» لابن كثير: (١٨٢/١٣) وما بعده، «النجوم الزاهرة»: (٦٧/٧) وما بعده، «الخطط» للمقريزي: (١)، ق٢/٤٢٢ وما بعده.

بخطر التتار الذين اقتربوا من العراق، فرأى الخليفة العباسي المستعصم أن يعمل بسرعة لتوحيد صفوف المسلمين أمام هذا الخطر، فأرسل رسولاً إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق يأمره بمصالحة الملك المعز أيبك، وأن يتفقا على حرب التتار، فحدث اتفاق بين الأيوبيين والمماليك سنة ٦٥١هـ -١٢٥٣م، حصل المماليك من خلاله على مصر وفلسطين حتى نهر الأردن، وما تبقى من بلاد الشام للأيوبيين^(١).

ومن النتائج المهمة ظهور دولة المماليك قوية أمام باقي قوى العالم آنذاك، فأصبحت دولة يحسب لها حساب، ويهابها القريب والبعيد، وقد بادر قطز قبيل معركة عين جالوت إلى تحييد القوى المعادية التي قد تتدخل فتؤثر في نتائج المعركة؛ ومن أهم تلك القوى الصليبيون الذين كان يخشى انضمامهم إلى المغول، فأخذ عليهم عهداً واتفق معهم على أن يكونوا على الحياد، وما إن انتهت المعركة حتى بادر قطز أيضاً إلى إعلام الدول وأخذ تأييدها على هذا النصر، وبذلك تمكن من كسب الحرب سياسياً وعسكرياً، ثم أكمل بيبرس ما بدأه قطز فدعم سياسته الخارجية بإقامة علاقة ود وصداقة مع مغول القفجاق (أو القبيلة الذهبية) لكي يحدث شرخاً كبيراً بين هذه الفئة وبين الفئة الثانية التي تناصبه العداء وهي فئة مغول فارس، إضافة إلى ذلك فقد عقد بيبرس التحالفات مع الدول المجاورة، التي كان هدفها منع هذه الدول من مساعدة المغول في حال قيام حرب بين المماليك والمغول، إذ كانت هناك فكرة للتحالف بين الصليبيين والمغول ضد الجيش المملوكي، وبهذه التحالفات التي عقدها بيبرس استطاع أن يوقف هذا التحالف المعادي بين هاتين القوتين^(٢).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١، ق ٢/٣٨٥).

(٢) ينظر: «معركة عين جالوت» لمحمد ضاهر، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

لقد لقي المغول - لأول مرة في تاريخهم في الشرق - هزيمة حاسمة، وبذلك قضى المماليك على الخرافة التي تقول إن المغول لا يغلبون، وأنقذت هذه المعركة العرب والإسلام والمسلمين وأوربة من أعظم خطر، لأن المغول كانوا ماضين في زحفهم، كما أدى انتصار المماليك إلى احتفاظ مصر بحضارتها ومدنيتها على عكس ما حدث لبغداد من الدمار والخراب، وأصبحت القاهرة ملجأ العلماء والأدباء، وأظهرت هذه المعركة المماليك القوة الأساسية في الشرق.

و لم يكن الجيش المملوكي قبل معركة عين جالوت شيئاً يذكر، فهو لم يخض معركة مهمة كهذه المعركة من قبل، ولم يكن قد زج في قتال لاختبار جاهزيته وقدرته الحربية، ففي معركة المنصورة اشترك بصورة غير موحدة مع الأيوبيين، في حين برزت عبقرية قاداته وكفاءتهم الحربية في هذه المعركة أمام جيش روع العالم ووصف بأنه لا يقهر، فكانت هذه المعركة سبباً في تشجيع الجيش المملوكي ودفعه على فتح بقية الجهات الأخرى والتصدي للصليبيين وغيرهم من القوى الخارجية والسيطرة الكاملة على الساحل وعلى الأراضي الشامية والمصرية^(١).

وأدت تلك الطموحات إلى ازدياد حجم الجيش المملوكي بعد هذه المعركة، وتعددت تشكيلاته القتالية، فأصبح في عهد الظاهر بيبرس ثلاثة جيوش: أحدها في مصر، والثاني في دمشق، والثالث في حلب، وبلغ عدده (٤٠٠٠٠) مقاتل، وبلغ في عهد الملك الناصر محمد (١٥٠٠٠٠) مقاتل، ثم تطور هذا الجيش فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات احتياطية،

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٣٩٦.

ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل العدد إلى (٣٥٧٠٠٠) مقاتل. هذا من حيث العدد، أما من حيث العدة، فقد طرأ تطور كبير على نوعية الأسلحة واختصاصات الجنود، فبنيت الجسور والترع، وتطور سلاح النفط والنيران وتنوعت المواد الحارقة، وتنوعت الأسلحة الكيميائية من قنابل دفاعية وهجومية، وتطور سلاح المدفعية تطوراً ملحوظاً، وكذلك السلاح البحري، وغير ذلك من الأسلحة والأنظمة التي طرأت على الجيش المملوكي^(١).

وتعد معركة عين جالوت معركة فاصلة؛ لأنها فتحت تاريخاً جديداً لدولة المماليك، ومهدت لسلسلة من الغزوات ضد الصليبيين وغيرهم.

ج - سوء أحوال العالم الإسلامي :

سأت أوضاع العالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، مشرقه ومغرب، أما مشرقه فقد اجتاحه المد التتري، كما شهد مغربه انحسار حكم الموحديين وحدوث الانقلابات والمنازعات السياسية، كما تصدع الحكم الإسلامي في الأندلس، فجعلت هذه الأحوال من مصر الملجأ الوحيد الآمن والمستقر، والقوة التي يمكن الاحتماء بها، فلاذ بها العلماء وغيرهم، وأدى ذلك إلى انتعاش دولة المماليك البحرية من جهة، وإلى شعورها بأنها أمام مسؤوليات كبيرة، فأدى ذلك كله إلى قوة مركز الدولة وإلى النظر إليها على أنها الأقوى والأفضل.

٣- عوامل ثبوت حكم الدولة المملوكية :

بعد أن استقر الحكم للمماليك واطمأنوا لذلك بدؤوا يبحثون عن أعمال

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٤٠٣، ٤١٠، وفيه تفاصيل ذلك.

تضمن لهم استمرارية دولتهم وتدعم قوتهم، وتعكس عنهم صورة إيجابية في نفوس الناس، فوجدوا ذلك في الاستمرار في محاربة الصليبيين وتطهير البلاد منهم، وفي إعادة إحياء الخلافة العباسية، وفي الاعتناء بالعلماء وبناء المؤسسات الدينية والتعليمية لهم وللشعب الوثائق بهم، فكانت هذه الأعمال سبباً في بقاء هذه الدولة قائمة.

أ- إنهاء الوجود الصليبي:

تقدم الحديث عن تعرض مصر لغزو الحملة الصليبية السابعة التي انتهت بالفشل، فاستمر من جاء بعد ذلك من سلاطين المماليك في غزو الصليبيين وتحرير البلاد منهم الواحدة تلو الأخرى حتى لم يبق في أيديهم شيء.

- في عهد الظاهر بيبرس:

أعقب إخفاق الحملة الصليبية السابعة وطرده لويس التاسع من مصر مرحلة هدوء وسكون فرضتها الظروف المحيطة بالمماليك والصليبيين، فقد كانت دولة المماليك البحرية في طور التأسيس وتثبيت أركانها، فلم تلتفت إلى الأخطار الخارجية، أما الصليبيون فإن إماراتهم شهدت منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ضعفاً داخلياً نتيجة الخلافات الحادة التي نشأت داخل مجتمعهم بين مختلف فئاته، فشغلتهم هذه الخلافات عن الالتفات نحو المسلمين، ولما توطدت دعائم دولة المماليك نتيجة للإجراءات التي اتخذها بيبرس رأى ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين^(١).

(١) ينظر: «تاريخ المماليك في مصر والشام» لطقوش، ص ١١٨، ١١٩.

كانت أعمال الظاهر بيبرس وغزواته كثيرة وظاهرة، وسأذكر هنا أهم أعماله ضد الصليبيين، وأهم المدن والقلاع التي حررها:

في سنة (٦٦٣هـ - ١٢٦٥م) فتح قيسارية، ثم دمرها مع قلعتها، وبعد أيام وصل إلى حيفا، وقد فرّ منها معظم الصليبيين فدخلها ودمرها، ثم هاجم قلعة عثليث، وبعدها زحف باتجاه أرسوف التي استسلمت له.

وفي سنة (٦٦٤هـ - ١٢٦٦م) انطلق بيبرس نحو صفد وحاصرها حصاراً شديداً إلى أن استسلمت له.

وفي سنة (٦٦٦هـ - ١٢٦٨م) توجه نحو يافا، التي لم يجد صعوبة في دخولها، ثم توجه نحو قلعة الشقيف التي تمّ له فتحها، ثم قصد بيبرس أنطاكية وفاوض المحاصرين فيها، فلم تؤت هذه المفاوضات ثمارها، وعند ذلك اقتحمها الجيش المملوكي وتمكن من السيطرة عليها غانماً منها غنائم وافرة.

ويُعدّ سقوط أنطاكية كارثة حقيقية للصليبيين في بلاد الشام لأنها بحكم موقعها الجغرافي كانت تشكل لهم سنداً قوياً منذ بداية الحروب الصليبية، يضاف إلى هذا أنها أول إمارة صليبية أُسست في الشرق مع الرها، وقد عاشت مئة وواحدًا وسبعين عاماً، لذلك عُدّ تدميرها نكسة كبيرة للصليبيين، فضلاً عن أن انهيارها عَجّل في انهيار الصليبيين في شمال سورية^(١).

وفي سنة (٦٦٩هـ - ١٢٧١م) ظهر الظاهر بيبرس أمام صافيتا، فاستسلمت له، ثم توجه مباشرة نحو قلعة الحصن، وحاصرها ثلاثة أسابيع، ثم دخلها وخضعت له، وبعد حصار دام أسبوعين سقط حصن عكار بيد المماليك،

(١) ينظر: «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: (٣/٥٥٩).

وبذلك أضحى بيبرس على مشارف إمارة طرابلس التي كان ينوي استعادتها، ولم يكن يمنعه عنها سوى وصول حملة صليبية إنكليزية بقيادة ولي عهد إنكلترا إدوارد، وفي الوقت نفسه التمس بوهيموند السادس القائم على إمارة طرابلس عقد هدنة مع المماليك فوافق بيبرس على ذلك، كما أن ولي عهد إنكلترا إدوارد طلب أيضاً توقيع هدنة مع الظاهر بيبرس، فوافقه عليها، وبعد هذه الهدنة توقف القتال بين الطرفين حتى وفاة الظاهر بيبرس^(١).

فهذه الفتوحات التي تمت على يد الظاهر بيبرس جعلته يستحق لقب صلاح الدين الثاني بحق، كما أنها مهدت لمن جاء بعده لاستعادة كل ما تبقى في أيدي الصليبيين.

- في عهد سيف الدين قلاوون:

تابع قلاوون ما بدأه الظاهر بيبرس، وشهد عصره فتوحات مهمة أيضاً، كما شهد تحرير العديد من المدن والقلاع التي كانت لا تزال بيد الاحتلال الصليبي، ففي سنة (٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) حاصر قلاوون حصن المرقب حصاراً شديداً انتهى باستسلام هذا الحصن، وفي أوائل سنة (٦٨٦هـ - ١٢٨٧م) أرسل حملة عسكرية إلى اللاذقية استطاعت فتحها من دون صعوبات^(٢).

أما طرابلس فقد تطلع المماليك إلى فتحها منذ سنة (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) نظراً لموقعها الاستراتيجي، وجاء الوقت المناسب لذلك بعد أن اضطرت أوضاع المدينة ودب الخلاف بين سكانها، فتوجه إليها قلاوون على رأس جيش كبير سنة (٦٨٨هـ - ١٢٨٩م) وحاصرها حتى فتحها عنوة بالسيف، وفي

(١) ينظر: «تاريخ المماليك في مصر والشام» لطقوش، ص ١٢٩.

(٢) ينظر: «المختصر» لأبي الفداء: (٢) / (٢٨/٧).

سنة (٦٨٩هـ - ١٢٩٠م) ورد إلى قلاوون أن أهل عكا آذوا تجار المسلمين وسرقوهم وقتلوهم، فتجهز للانتقام، ولكن المنية وافته قبل أن يحقق هدفه^(١).

- في عهد الأشرف صلاح الدين خليل :

تولى الأشرف خليل الحكم، وكان عند حسن ظن أبيه فيه، فقام بأبرز عمل في مدة حكمه، حيث انطلق بجيش كبير قاصداً عكا سنة (٦٩٠هـ - ١٢٩١م) فحاصرها، حتى استطاع دخولها والاستقرار فيها. وتعدُّ معركة عكا هذه آخر المعارك الفاصلة في الحروب الصليبية التي شهدتها الشرق الإسلامي، فيها زالت مملكة القدس الثانية من الوجود، وبعد تحريرها بدأ الصليبيون يستسلمون ويسلمون المدينة تلو الأخرى بدءاً من صيدا وبيروت وصور وعثليث وحيفا، وبعد طرد الصليبيين ظلت الجيوش المملوكية تجوب الساحل عدة أشهر في خطوة وقائية تدمر ما تراه صالحاً لنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى^(٢).

- في عهد الناصر محمد بن قلاوون :

استكمل الناصر محمد بن قلاوون سلسلة الانتصارات والفتوحات التي بدأها أسلافه من الظاهر بيبرس إلى قلاوون إلى الأشرف خليل، وختم أعمالهم بتحريره لأرواد آخر معاقل الصليبيين على الأرض العربية الإسلامية، فجهز سنة (٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) حملة عسكرية وتوجه بها إلى جزيرة أرواد وفتحها^(٣).

(١) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (١)، ق ٧٥٣/٣، ٧٥٤.

(٢) ينظر: «تاريخ المماليك في مصر والشام» ص ٢٠٨.

(٣) ينظر: «المختصر» لأبي الفداء: (٧/٥٧).

- في عهد شعبان بن حسين حفيد الناصر محمد (الحملة الصليبية على الإسكندرية):

بقيت فكرة مهاجمة المماليك في مصر قائمة، وظلت تراود أفكار الغربيين، ففي سنة (٧٦٧هـ-١٣٦٥م) وصلت حملة صليبية جديدة إلى الإسكندرية، فعمل الناس على مواجهتها، ولكنهم فشلوا، فارتكب الصليبيون فيها أعمال القتل والإحراق والتخريب^(١).

وإثر ذلك استنفر السلطان شعبان من القاهرة وأرسل جيشاً كبيراً بقيادة ثلاثة من أكبر قادة أمرائه لاستدراك ما حدث، فعلم بذلك قادة الجيش الصليبي، ففضلوا الانسحاب من الإسكندرية على المواجهة، عندها أمر السلطان بإصلاح ما تهدم من المدينة^(٢).

وهكذا استطاع سلاطين دولة المماليك البحرية إنهاء الوجود الصليبي، وتحرير الأرض العربية الإسلامية من أشرس المحتلين عبر التاريخ، وانتزعوا الإمارات الصليبية الواحدة تلو الأخرى، فطهروا الأرض من دنس المعتدين، وأعادوا إلى الأذهان انتصارات صلاح الدين الأيوبي وعماد الدين زنكي ونورالدين محمود، فكانوا على قدر الخطوب التي واجهتهم، وتركوا بصمات على جدار التاريخ تشهد بإنجازاتهم هذه أبد الدهر.

ب - إحياء الخلافة العباسية:

قدّم الظاهر بيبرس للدولة المملوكية خدمة لا نظير لها عندما قام بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة، فأصبحت مصر بذلك مقر الخلافة ومركز

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣، ق/١٠٤، ١٠٥).

(٢) ينظر: «النجوم الزاهرة»: (٢٥/١١).

المسلمين، تجلت فائدة ذلك في عدة أمور، منها ظهور سلاطين المماليك أمام العالم الإسلامي حماة للخلافة والخلفاء، واكتساب السلطنة المملوكية شرعية لحكمها لم تكن لتكسبها من مصدر آخر، كما رفع وجود الخليفة العباسي في القاهرة من مكانة سلاطين المماليك، وجعلهم على درجة أعلى من سلاطين باقي البلاد الإسلامية وحكامها^(١).

ويرى أحد الباحثين أن بيبرس هدف من وراء إحياء الخلافة العباسية وتجديدها إلى الرد على إعلان الخلافة الحفصية في تونس سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م، التي لم تعترف بها سلطنة المماليك في مصر^(٢).

وقد استقبل الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦٠م أبا القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله في القاهرة - وكان قبل ذلك محبوساً في بغداد، فلما احتلها التتار هرب إلى غرب العراق - وعقد مجلساً حضره كبار رجال الدولة لإثبات نسب الخليفة الجديد، وبعد ذلك ببيع ولُقب بالمستنصر بالله، ثم أرسله الظاهر بيبرس إلى بغداد لقتال التتار وانتزاعها منهم، فانتهدت حياته بالقتل على أيديهم، فبويع بالخلافة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد سنة ٦٦١هـ - ١٢٦٢م، وظل خليفة إلى أن توفي سنة ٧٠١هـ - ١٣٠١م، فبويع ابنه أبو الربيع سليمان المستكفي بالله^(٣).

وفي سنة ٧٤٠هـ - ١٣٣٩م توفي المستكفي بالله بعد أن عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه أحمد، ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يلتفت إلى ذلك وباع بدلاً عنه الوثائق بالله إبراهيم بن محمد، وبعد وفاة الناصر محمد

(١) ينظر: «تاريخ المماليك البحرية»، ص ١٨٩.

(٢) ينظر: «السلطنة الحفصية» للمطوي، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٣) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (١٦/١٤).

وتولي ابنه أبي بكر عرش السلطنة عزل الواصل بالله وأحل محله أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفي بالله، وذلك في سنة ٧٤٢هـ-١٣٤١م، وفي سنة ٧٥٣هـ-١٣٥٢م، بويع أبو بكر شقيق الخليفة أحمد بالخلافة بعد وفاته، ولقب بالمعتضد بالله، وظل خليفة في مصر إلى حين وفاته في سنة ٧٦٣هـ-١٣٦١م، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه أبي عبد الله محمد، والذي تلقب بالمتوكل على الله^(١).

وبعد هذا الاستعراض السريع للخلفاء العباسيين في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية، يجد الباحث أن سلطة هؤلاء لم تكن إلا سلطة صورية، إذ كانت جميع الأمور بيد السلطان، والخليفة ليس له من الأمر شيء، ولم يتمتع إلا بسيادة شكلية، ويلخص ذلك قول أحد الباحثين: وكان أهم مظاهر السيادة التي تمتع بها الخلفاء العباسيون في مصر ثلاثة، وهي: السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعياً، وذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة، ونقش اسمه على السكة، إلا أن سلطة الخليفة كانت في الواقع صورية، كما كانت وظائفه وهمية».

وكان من مظاهر الخلافة في ذلك العصر الدعاء للخليفة في المساجد، ومن بعده للسلطان، إلا في مسجد القلعة فإن الدعاء يكون للسلطان أولاً ثم للخليفة، وبقي اسم الخليفة يسك على العملة حتى عهد الظاهر بيبرس، ومنع من جاء بعده من السلاطين سك العملة باسم الخلفاء، مع أن السكة كانت من شعائر الخلافة الإسلامية دائماً، وأما ما بقي للخلفاء من ذلك فهو لبس البردة ومسك القضيب^(٢).

(١) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (٢٣٣/١٤)، و«تاريخ ابن خلدون»: (٦٦٥/٣)، «الخطط» للمقرئبي: (٣، ق/٧٦).

(٢) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (٣٤/١).

ومن وظائف الخليفة آنذاك مبايعة السلطان، وتفويض الأمراء التابعين للسلطان بكتابة تقليد لهم بذلك حتى تكون سلطتهم شرعية، وفي الواقع لم يكن للخليفة العباسي سلطة تعيين نفسه، فلم يكن يعين إلا بعد أن يبايعه السلطان وقضاة المذاهب الفقهية الأربعة، ولم يكن حكمه وراثياً؛ بمعنى أن السلطان قد يتدخل ليعين ابن عم الخليفة أو أخاه بدلاً من الابن، أو من يرغب من أفراد الأسرة العباسية، بل كان السلطان أحياناً - إن أراد - يأمر القضاة الأربعة بعزل الخليفة، وفي هذه الحالة قد يسجن السلطان الخليفة في قلعة الجبل، أو ينفيه إلى قوص في أقصى الصعيد، ومع كل ذلك لم تبلغ إهانة سلاطين مصر للخلفاء العباسيين ما بلغته في عصر البويهيين والسلاجقة في العراق الذين كانوا يسملون أعين الخلفاء ويقتلونهم، فإذا تولى خليفة في عصر المماليك كانت تقام له حفلة مبايعة لا تقل في عظمتها عن حفلة مبايعة السلطان، يحضرها رجال الدولة وعلى رأسهم السلطان، فيقوم القضاة بتقليده، ويقدم له السلطان التشريف، أو ما يسمى بخلعة الخلفاء^(١).

ج - الاهتمام بالناحيتين الدينية والعلمية:

عُني سلاطين المماليك وأمراؤهم عناية فائقة بالناحيتين الدينية والتعليمية، فأظهروا كل إجلال وتعظيم للعلماء، ونشطوا في تشييد المساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا إرضاءً لهم، وتقرباً للشعب من خلالهم، فكسبوا بذلك فئة العامة الأمر الذي كان له تأثير رئيسي في استمرارهم في الحكم وكسبهم لشرعيته، وستأتي تفاصيل هذا الموضوع في الفصل الثاني المخصص لهاتين الناحيتين، وسيتبين ذلك من خلاله.

(١) ينظر المرجع السابق: (١/٣٩، ٤٠).

المطلب الثالث: سلاطين دولة المماليك البحرية

بدأ عصر دولة المماليك سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م، وانتهى بمجيء العثمانيين سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م، أي أنهم حكموا أكثر من (٢٧٥) عاماً، انقسموا خلالها إلى دولتين هما: الدولة البحرية، والدولة الجركسية أو الشركسية^(١).

أما دولة المماليك البحرية فقد بدأت سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م، وانتهت سنة ٧٨٤هـ -

١٣٨٢م^(٢) تاريخ نشوء دولة المماليك الجراكسة، ويُعد المعز عز الدين أيبك مؤسس هذه الدولة، وقد بدأ حكمه في ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م، وانتهى بمقتله على يد زوجته شجر الدر وجواربها سنة ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م، فتولى الحكم ابنه نور الدين علي المنصور بعد موته بيوم واحد، وانتهى حكمه بخلع سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٨م، فحكم بعده المظفر سيف الدين قطز، وظل حتى قتل أواخر سنة ٦٥٨هـ - ١٢٥٩م، فجاء من بعده الظاهر بيبرس الذي بقي في السلطنة حتى وفاته سنة ٦٧٦هـ - ١٢٧٧م، فتسلم الحكم عنه ولده الملك السعيد أبو المعالي محمد، وانتهى حكمه بخلع سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م.

ثم حكم العادل سيف الدين سلامش بن الظاهر بيبرس الذي لم تطل مدته حيث خلع ونفي في العام نفسه ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م، فتولى بعده سيف

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٢٤١)، وسُميت بذلك لأن غالبية سلاطينها كانوا من بلاد الجركس.

(٢) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (٣، ق ٤٧٥، ٤٧٦).

الدين قلاوون المنصور، واستمر حكمه حتى توفي سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م، فخلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وانتهى ملكه بمقتله سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م، وخلفه الناصر محمد بن قلاوون، وكان عمره تسعة أعوام، ثم خلع، ونصب الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري في سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م، وجاء بعده حسام الدين لاجين المنصوري في سنة ٦٩٦هـ - ١٢٩٧م، بعد أن فر كتبغا من مصر إلى دمشق هرباً من حسام الدين لاجين، الذي قتل فيما بعد.

وفي سنة ٧٠٨هـ - ١٣٠٩م عاد إلى الحكم ثانية الناصر محمد بن قلاوون بعد أن كان توجه إلى قلعة الكرك معرضاً عن الحكم، بعد أن استولى عليه الأميران بيبرس بن عبد الله المظفر وسلار بن عبد الله المنصوري واستبدا بالأمور. وفي العام نفسه تولى الحكم المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بعد إغراض الناصر كما مر، وبقي في الحكم إلى أن ألقى الناصر القبض عليه سنة ٧٠٩هـ - ١٣١٠م وحكم مكانه للمرة الثالثة وظل في الحكم حتى توفي سنة ٧٤١هـ - ١٣٤١م.

وبموت الناصر محمد دخلت دولة المماليك مرحلة جديدة مختلفة عن سابقتها، إذ تميزت المدة التي حكم فيها أولاده وأحفاده من بعده بالاضطراب والصراع على السلطة، فخلفه في الحكم سلسلة من أولاده، فحل محله أولاً ولده المنصور أبو بكر، ثم ولده الثاني الأشرف علاء الدين كجك، الذي عزل أخاه المنصور بعد أن حكم شهرين فقط، وفي سنة ٧٤٢هـ - ١٣٤٢م، وصل إلى الحكم الولد الثالث من أبناء الناصر محمد وهو الملك الناصر أحمد.

وفي سنة ٧٤٣هـ - ١٣٤٢م، تولى الحكم الملك الصالح إسماعيل الرابع

من أولاد الناصر بعد سفر أخيه الناصر أحمد إلى الكرك، فحاصره هناك وقتله، ثم مرض الصالح هذا وتوفي سنة ٧٤٦هـ-١٣٤٥م، فحكم بعده الكامل شعبان الخامس من أولاد الناصر، وفي سنة ٧٤٧هـ-١٣٤٦م، تولى الحكم الملك المظفر حاجي السادس من أولاد الناصر، واستمر حتى سنة ٧٤٨هـ-١٣٤٧م، وفي هذا العام تسلطن الناصر حسن الولد السابع من أولاد الناصر بعد مقتل أخيه المظفر حاجي، وظل يحكم حتى سنة ٧٥٢هـ-١٣٥١م، حيث وصل إلى الحكم الملك الصالح صالح الولد الثامن والأخير من أولاد الناصر محمد.

وفي سنة ٧٥٥هـ-١٣٥٤م، عاد الناصر حسن للحكم ثانية بعد خلع أخيه الملك الصالح، وظل في الحكم حتى قُتل سنة ٧٦٢هـ-١٣٦٠م، فجاء بعده المنصور محمد بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون، وانتهى حكمه بخلعه وسجنه سنة ٧٦٤هـ-١٣٦٢م، فحكم بعده الأشرف شعبان بن حسين وكان صغيراً، وظل كذلك حتى قُتل سنة ٧٧٨هـ-١٣٧٦م.

وتولى من بعده الحكم المنصور علي بن شعبان، وانتهى حكمه بوفاته سنة ٧٨٣هـ-١٣٨١م، فحكم بعده الصالح أمير حاج بن شعبان، وانتهى حكمه بخلعه وتولية الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجركسية، وذلك في سنة ٧٨٤هـ-١٣٨٢م^(١)، وبذلك انتهى حكم دولة المماليك البحرية الذي استمر قرابة القرن ونصف من الزمان.

بعد هذا الاستعراض لسلاطين المماليك البحرية لا بد من الوقوف على

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١، ق ٢/٣٦٩-٦٥٣)، (١، ق ٣/٦٦٣-٧٩٠)، (٢، ق ٣/٥٩٣-٨٤٣)، (٣، ق ١/٦٢-٤١٢)، (٣، ق ٢/٤٣٩-٤٧٦)، «تذكرة النبيه» لابن حبيب: (١/١٧٨-٢٨٧).

عدة صفات تميز بها ذلك العصر؛ والصفة الأبرز منها كانت حالة الانقلابات السياسية والعسكرية واغتصاب منصب السلطنة حتى أصبح هذا الأمر مألوفاً، فما إن يشعر أحد الأمراء بضعف السلطان أو صغره حتى ينقض عليه ويسلبه منصب السلطنة، ولذلك انتهى حكم الكثير من سلاطين المماليك إما بالقتل، كما حدث مع الأشرف شعبان على سبيل المثال، أو بالقبض عليه وسجنه كما حدث مع المظفر بيبرس الجاشنكير، أو بالفرار من وجه المستولي الجديد على السلطة وأنصاره كما حدث مع زين الدين كتبغا المنصوري، إلى غير ذلك من الأساليب التي لم تجعل تولي الحكم وفقاً لحق شرعي موروث، وإنما يكون بتولي أمير يتميز بالذكاء والقوة والشجاعة مع كثرة مماليكه، فإذا توفي سلطان فإن الأمير الأقوى هو صاحب الفرصة الأكبر في الوصول إلى العرش.

ومن ناحية ثانية فإن على السلطان إذا ما أراد أن يحتفظ بالسلطنة أن يقتل ويخنق ويسجن، أو أن يتقرب من كبار الأمراء ويوزع عليهم الإقطاعيات والوظائف، أو أن يلجأ إلى إسكان كبار الأمراء في القلعة ليكونوا تحت نظره^(١).

وبرز في ذلك العصر أيضاً موضوع وراثة العرش، فقد رأينا كيف أخذ الناصر محمد بن قلاوون البيعة لولده أبي بكر المنصور قبل أن يموت، ووصل ثمانية من أولاده الذكور إلى السلطة، وهذا لا يعني أن هناك نظاماً وراثياً متبعاً، وإنما يعد ما حصل وضعاً شاذاً في تاريخ دولة المماليك؛ لأنهم لم يؤمنوا مطلقاً بمبدأ الوراثة في الحكم، وذلك لأسباب تعود إلى

(١) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١/٢٧، ٢٨).

طبيعة نشأتهم منذ صغرهم، أي منذ أن كانوا رقيقاً بين أيدي أسيادهم، فقد نشأت بينهم على اختلاف أصولهم رابطة الأستاذية ورابطة الخشداشية، وتعني رابطة الأستاذية الرابطة التي تربط المملوك بسيدته الذي اشتراه رقيقاً منذ صغره، ثم تعهده بالتربية حتى كبر وأعتقه، وتعني الخشداشية الزمالة، وما هنالك من عاطفة بين مجموعة من المماليك نشؤوا في كنف أستاذ واحد ونسبوا إليه، كالمماليك الظاهرية نسبة إلى الظاهر، والأشرفية نسبة للأشرف، والصالحية نسبة للصلاح، فصاروا كالأخوة يربط بينهم أب واحد، فطبيعة المماليك هذه من حيث الأصل والتربية والنشأة جعلتهم يشعرون بالمساواة فيما بينهم، بحيث لا تكون ميزة أو فضل لأحدهم على الآخر، فجميعهم كانوا رقيقاً جيء بهم من بلاد بعيدة، وتمت تربيتهم وتدريبوا حتى ظهروا على سطح الأحداث، وهذا الإحساس بالمساواة انعكس على نظام الحكم طوال عصر المماليك، فأمن كل واحد منهم بأن له حقاً في تولي منصب السلطنة، وهذا ما دفعهم لإنكار مبدأ الوراثة^(١).

ومن الممكن أن نستنتج سبباً آخر لذلك غير التساوي في الأصل والتربية والنشأة، وهو تقارب قوة المماليك ووزنهم في الهرمية العسكرية، فهذا السبب لم يمكنهم من أن تخرج من أوساطهم ملكية وراثية^(٢).

ثم إن الأمير إذا وصل إلى السلطنة بفضل ذكائه وقوته والظروف المناسبة، رضي به المماليك مختارين أو مجبرين، فلا مسوغ للخضوع لابنه من بعده، ولا سيما أن الابن لم ينشأ نشأتهم، ولم يكن مملوكاً مثلهم، ولم

(١) ينظر: «نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك» لعاشور، ص ١٦، ١٧.

(٢) ينظر: «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» للعمري، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام

والحجاز» ص ٣٦.

يمر في حياته بالأطوار التي مروا بها هم في حياتهم ونشأتهم، وإذا رأينا في تاريخ المماليك أمثلة لتنصيب ابن السلطان المتوفى مكان أبيه فإن هذه الموافقة لم تكن إلا مؤقتة إلى أن يحسم موقف المناقشة فيما بينهم عن ظهور الأمير الأقوى الذي يستأثر بالسلطة لنفسه^(١).

ولكن هذه الأسباب لا تعني أن من وصل إلى السلطة لم يحاول أن يورث أبناءه من بعده، بل حاول بعض السلاطين ذلك ولو جزئياً، مثل السلطان الظاهر بيبرس الذي عهد لابنه بالسلطنة من بعده، وكذلك فعل الناصر محمد بن قلاوون، الذي وصل ثمانية من أولاده الذكور إلى السلطنة.

وترتب على إخفاق مبدأ الوراثة آثار إيجابية وأخرى سلبية، فقد أدى إخفاقه إلى عدم وصول أطفال أو فتيان إلى السلطة على الأغلب، كما أنه لم تكن هناك حقوق ملكية وراثية تفرض تولية أبناء السلطان على بعض الأقاليم أو النواحي، الأمر الذي من الممكن أن يؤدي إلى انقسام الدولة إلى دويلات، ومن ثم الضعف والتشردم ثم سقوط السلطنة، أما الأثر السلبي لفقدان نظام ثابت لتولي منصب السلطنة في عصر المماليك، وتطلع كل أمير من أمرائهم إلى ذلك المنصب بوصفه حقاً مشروعاً له، فقد تجلى في كثرة الاضطرابات في الدولة طوال تاريخها.

وبرز أمر آخر أيضاً في ذلك العصر، وهو وصول عدد من الأطفال إلى سدة الحكم، وأدى ذلك إلى تعرض الشعب إلى ألوان من البلاء والفتن والمظالم كما سنرى في بحث الحياة الاجتماعية، وكل ذلك تسبب بالاضطرابات والانقلابات العسكرية، حتى إن حكم عدد من السلاطين لم

(١) ينظر: «نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك» ص ١٨.

يتجاوز الأيام المعدودات أو الشهور، حتى يفاجأ بانقلاب عسكري يطيح به، ومن الممكن أن يعود سبب هذه الصراعات والمؤامرات إلى أصول المماليك؛ فهم قد جاؤوا من أماكن مختلفة، فخلق ذلك بينهم تنافساً طويلاً مريراً على السلطة.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذه السمة - سمة الصراعات والمؤامرات والانقلابات - لم تنفرد بها دولة المماليك وحدها، فالسياسة الدكتاتورية سادت أوربة في القرن الثالث عشر الميلادي - السابع الهجري، فحدثت فيها مؤامرات وانقلابات على الحكم شابته تلك التي حدثت في دولة المماليك، كما حصل في فرنسا وألمانيا وغيرهما من دول أوربة.

وعلى الرغم من هذه النزاعات بين المماليك، فقد ظلت دولتهم قوية وثابتة الأركان، وذلك لأنهم إذا تعرضوا لخطر أو هجوم كانوا يضعون النزاعات والخلافات في كثير من الأحوال جانباً ويتحدون في مواجهة العدو^(١).

المطلب الرابع: الجو السياسي العام

كانت القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية، وامتدت حدود دولتهم شمالاً حتى طرسوس ومالطية وحلب، وشرقاً حتى الفرات، وجنوباً حتى شمالي الحديدة (أي المنطقة الواقعة بين جدة والحديدة) وحتى جنوب مصر، وامتدت حدودها الغربية على ساحل البحر المتوسط من دمياط والرشيد حتى برقة.

وللسيطرة على هذه المناطق عدّ المماليك أنفسهم منظمة عسكرية أفرادها

(١) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (١، ق ٣/٨٨٣، ٨٨٥).

غرباء، ورجال السلطة والفئة الحاكمة كانوا من الضباط، وكانت السلطة الفعلية بيد السلطان الذي يستند شرعياً إلى الخليفة، وعسكرياً إلى الجيش الذي تربطه معه روابط قوية، فهو أساس الحكم الحقيقي^(١).

وجعل سلاطين المماليك - مثل الأيوبيين - مركز بلاطهم القلعة في القاهرة، أو ما يُعرف بقلعة الجبل، لوقوعها على جبل المقطم، وقد بدئ بنائها في عهد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ - ١١٧٦م، وانتهى البناء في عهد خلفه وحفيده الكامل سنة ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م، ومنذ تلك اللحظة أصبحت المقر الرسمي للسلاطين الأيوبيين، وسار سلاطين المماليك على سنتهم وجعلوها مقراً لهم على الرغم من أنهم كانوا يسكنون أصلاً في قلعة أخرى في جزيرة الروضة على النيل^(٢).

استأثر المماليك بالحكم وشؤون الحرب، وكانوا ينظرون إلى الأهالي على أنهم أقلّ منهم شأنًا، فلا ينبغي لهم أن يشاركوا في أمور الحرب والسياسة^(٣)، ومن ناحية أخرى كان السلطان في عصر المماليك أميراً من الأمراء، مكنته قوته وكثرة مماليكه من التفوق على أقرانه، والوصول إلى منصب السلطنة، فإذا وصل أمير إلى السلطنة أصبح صاحب الحق في الهيمنة على بقية الأمراء ومماليكهم^(٤)، ولم يكن السلطان يقتصر على باب تجارة المماليك وجلبهم لتشكيل طبقة مماليكه، وإنما كان يحصل على مماليك سلفه السلطان الذي توفي أو عُزل أو قُتل، بالقسر أو بالشراء، ويُسمون

(١) ينظر: «المجتمعات العسكرية عبر التاريخ» ريحانا، ص ٢١٢، ٢١٣.

(٢) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (٩/٢، ١٠).

(٣) ينظر: «العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة» ص ٣١٨.

(٤) ينظر: «مصر في عصر دولة المماليك البحرية» لعاشور، ص ١٣٨.

حينئذٍ: قرانصة أو قرانيص أو قرانص، أو حتى ممالك سلطانية، وكان السلطان كذلك يستولي على ممالك الأمراء الذين يتوفون أو يغضب عليهم أو يقتلهم، ويُسمون: سيفية، كما كان يأخذ بعض أولاد الناس من المصريين ويضمهم إلى مملكته، وربما كان أهلهم يبيعونهم من الجوع، وبالمقابل فإن الأمراء كانوا يتهجون هذه الأساليب تقريباً، فيُسمى الممالك الذين يشتريهم الأمراء بممالك الأمراء أو أجناد الأمراء^(١).

وعبر أحد الباحثين المعاصرين عن كل هذه الأحوال بقوله: لقد ظل الممالك يعيشون في غربة عن بعضهم بعضاً، وظلوا غرباء عن الشعب الذي حكموه، وعاشوا كقشرة عسكرية مستبدة، لذلك حين اقتلعوا لم يجد مقتلعهم في الأرض أدنى جذور^(٢).

ولكن ذلك لم يكن يعني أن السلطان لم يستشر رجال دولته وأمراءها، فكان لدى الممالك مجلس مشورة مؤلف من السلطان رئيس المجلس، والأعضاء من أتاك العسكر والخليفة العباسي والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأربعة وعشرين أميراً، ولكن هذا المجلس لم يكن له ذلك التأثير الكبير، لأن السلطان كان صاحب الرأي الأخير في جميع الأمور بوصفه حاكماً مطلقاً^(٣).

وقد ساد العصر المملوكي الكثير من الثورات والفتن السياسية الداخلية، وكان من أبرز هذه الثورات ثورات العربان المنتشرين في أنحاء مختلفة من البلاد، حيث كانت تراودهم فكرة إنشاء سلطنة عربية بعد أن ملّوا من

(١) ينظر: «نظم دولة سلاطين الممالك»: (١/١٤).

(٢) ينظر: «الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي» زعرور، ص ٩٦.

(٣) ينظر المرجع السابق، ص ١٣٨، ١٣٩.

الخضوع لسلطة المماليك، فكانت معظم حركاتهم تظهر في فترات الاضطراب في الدولة عند قيام سلطان جديد، أو في أثناء حكم سلطان صغير السن^(١).

المطلب الخامس: السياسة الخارجية:

شكلت دولة المماليك من البلاد التي حولها دولة واحدة عاصمتها القاهرة، وعلى رأسها السلطان، وأصبحت هذه الدولة محط أنظار كل من حولها من البلدان في المشرق والمغرب، ولاسيما أن عاصمتها أصبحت مقر الخلافة العباسية، والبلد الوحيد المستقر سياسياً، بالإضافة إلى تحكمها بطرق التجارة بين الشرق والغرب، ثم كان أن عظم أمرها بعد انتصار المماليك في معركة عين جالوت كما تقدم، فأثر هذا الانتصار في كل الدول المحيطة بدولة المماليك، فكل ذلك وغيره جعل الملوك تتجه برسلها إليها، تطلب المساعدة، أو تنشُد إقامة علاقات معها، سياسية كانت أم اقتصادية، وتدل المراسلات والمكاتبات التي أوردها القلقشندي في صبح الأعشى التي تمت بين دولة المماليك ومختلف الدول الإفريقية والآسيوية والأوربية، تدل في مجملها على قوة المماليك وهيبة دولتهم، واتساع نفوذها وذيوعان صيتها^(٢).

(١) ينظر: «العصر المماليكي في مصر والشام» ص ٣٢٤، ٣٢٥.

(٢) ينظر تلك المراسلات والمكاتبات: «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي: (٦/٤١٠)، و(٧/٢٥٧، ٢٦٥، ٢٧٥ و ٢٨٣، ٣١٨، ٣٢١، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٨٢، ٣٨٥، ٣٨٩، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٢٢، ٤٤٢)، و(٨/٤٢، ٤٤، ٦٦، ٧٠، ٨٨، ١٠٠، ١٠٨، ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦).

وكان ديوان الإنشاء هو المسؤول عن هذه المراسلات والمكاتبات الخارجية، فاختص بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة^(١).

وقد أدركت الدول الأوربية أن الحملات الصليبية لن تحقق الأحلام التي سيطرت على عقول الزعامات الأوربية الوسيطة، وأنه آن الأوان لها أن تنتهج سياسة التقارب الدولي مع القوى صاحبة السلطة في العالم الإسلامي، فبدأ يظهر للعيان تيار روابط الصداقة، وصلات المودة بين هذه الدول والدولة المملوكية، بغض النظر عن الاختلاف العقائدي أو الأطماع العسكرية^(٢).

ومن الأمثلة على ذلك تلك المراسلات التي حرصت فيها الممالك الكاثوليكية الإسبانية ومملكة صقلية على تأكيد علاقتها مع سلطنة المماليك من خلال إرسال السفراء محملين بالهدايا الثمينة، ومفوضين لعقد الاتفاقيات التجارية، والمعاهدات السياسية، ومع تلاشي الوجود الصليبي وسقوط معاقله وحصونه، شملت نصوص الاتفاقيات الدولية هذه استعداد تلك الممالك المسيحية الوقوف إلى جانب سلطنة المماليك في حالة تعرضها لأي خطر يأتي من أوربة الكاثوليكية^(٣).

ومن تلك المعاهدات ما اتخذت صيغة أقرب ما تكون إلى صيغة عقد الاتفاق الشامل، ومنها ما أبرمه المنصور قلاوون سنة ٦٨٠هـ - ١٢٨١م مع الإمبراطورية البيزنطية ونص في مجمله على تأكيد أواصر المودة والتعاون بين سلطنة المماليك والإمبراطورية البيزنطية، وتثبيت العهود بدوام علاقات

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (١/١٢٤).

(٢) حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، مجلس النشر العلمي، الحولية الثالثة والعشرون، حياة الحجى: بعض الأبعاد الاقتصادية لسلطنة المماليك، ص ٤٣.

(٣) ينظر المرجع السابق، ص ٤٤.

السلم والأمان، وتأمين سلامة التجار مع إمكانية إلغاء الضرائب بين الطرفين، وإلى غير ذلك من التسهيلات^(١).

خلاصة ما سبق:

عاصر جلال الدين السيوطي من حكم دولة المماليك في مصر دولة «الجراكسة» أو «الشراكسة» (٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م / ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م)، وهي كلمة تبدو من أصل روسي، تعني موطنهم الذي كانوا يجلبون منه في القوقاز بجوار بحر قزوين، وإن عرفوا أيضاً بالمماليك البرجية، لأنهم كانوا يسكنون أبراج القلعة، حينما قاموا بانقلاب عسكري على دولة المماليك السابقة لدولتهم التي كان غالبية ممالكها من عنصر التركمان المجاورين لموطنهم، وكانوا يسكنون في جزيرة الروضة، فعرفوا بالمماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤ هـ) (١٢٥٠-١٣٨٢ م).

ومع ذلك فإن المماليك الجراكسة هم امتداد للمماليك البحرية، وقد استمرت دولتهم إلى وقت مجيء العثمانيين سنة (٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م).

وقد عاصر السيوطي من السلاطين الجراكسة ثلاث عشر سلطاناً هم:

١ - الظاهر سيف الدين جقمق العلاني (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م).

٢ - المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م).

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٤٥-٤٧، ولمزيد من التفاصيل عن العلاقات الخارجية لسلطنة المماليك ينظر المرجع السابق، و«تاريخ المماليك البحرية»، ص ١٠٩-١٥٠، «تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام» ص ٥٩، ٦١-٨٣، ١٠٦-١١٦، ١٧٥-٢٠٠، ٢٠٣-٢٠٩، ٢٢٢-٢٢٦، ٢٣٣-٢٥٢، ٢٦٢-٢٩٣.

- ٣ - الأشرف سيف الدين إينال (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١ م).
- ٤ - المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال (٨٦٥ هـ / ١٤٦١ م).
- ٥ - الظاهر سيف الدين خشقدم الناصري (٨٦٥ - ٨٧٢ هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧ م).
- ٦ - الظاهر سيف الدين بلباي (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م).
- ٧ - الظاهر أبو سعيد تمرغا الناصري (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٦٨ م).
- ٨ - الأشرف سيف الدين قايتباي (٨٧٣ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م).
- ٩ - الناصر، ناصر الدين محمد بن قايتباي (٩٠١ - ٩٠٤ هـ / ١٤٩٦ - ١٤٩٨ م).
- ١٠ - الظاهر قانصوه بن قانصوه (٩٠٤ - ٩٠٥ هـ / ١٤٩٨ - ١٥٠٠ م).
- ١١ - الأشرف جانبلاط (٩٠٥ - ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م).
- ١٢ - العادل سيف الدين طومان باي (٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م).
- ١٣ - الأشرف قانصوه الغوري (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م).





المبحث الثاني: الحالة الإدارية:

المطلب الأول: التقسيمات الإدارية

المطلب الثاني: النظام الإداري:

أ- النيابة

ب- الولايات

ج- أهم الدواوين

د- أهم الوظائف



المبحث الثاني الحالة الإدارية

اتبعت دولة المماليك نظاماً إدارياً فيه الكثير من الدقة والتنظيم والإتقان، استطاعت بوساطته إحكام السيطرة على أطراف البلاد، وتنظيم أحوالها الداخلية، فنشرت ولايتها وموظفيها في كل البلاد، وربطت شؤونها بإقامة الدواوين ذات الاختصاصات المختلفة.

المطلب الأول: التقسيمات الإدارية:

كانت مصر مقسمة في عصر المماليك إلى عدد من المناطق الإدارية، فتألفت من ثلاث قواعد، وقد تقاربت هذه القواعد واختلطت حتى صارت كالقاعدة الواحدة والمدينة الواحدة، وهي مصر الفسطاط التي تقع على ضفة النيل الشرقية، والعاصمة القاهرة، وقلعة الجبل مقر السلطان ودار مملكته^(١).

أما أعمال الديار المصرية ونواحيها، فعرفت بتقسيمها إلى وجهين: قبلي وبحري، اشتمل الوجه القبلي على تسعة أعمال، وعُبر عن هذا الوجه بالصعيد، ويمتد من جنوبي الفسطاط إلى نهايته في الجنوب، وسُمي صعيداً لأن أرضه كلما ولجت في الجنوب أخذت في الصعود والارتفاع، وأما أعمال هذا الوجه التسعة فهي كما يلي:

الأعمال الجيزية: وهي الأقرب إلى الفسطاط والقاهرة وعاصمتها مدينة الجيزة. والأعمال الإطفيحية: وتقع شرقي النيل جنوب الفسطاط، وعاصمتها مدينة إطفيح. والأعمال البهنساوية: وتقع مما يلي الجيزة من الجهة الجنوبية،

(١) ينظر: «المسالك في ممالك الأمصار» للعمري، قطعة منه بعنوان: «مملكة مصر والشام والحجاز» ص ١٤٠-١٤٥، «صبح الأعشى»: (٣/٣٦٦، ٣٩٢، ٤٢١).

وعاصمتها مدينة بهنس. والأعمال الفيومية: وتلاصق عمل البهنس من غريبه، وبينهما منقطع رمل، وعاصمتها مدينة الفيوم. وأعمال الأشمونين والطحاوية: وهي مضافة إلى عمل بهنس من جنوبه، وعاصمتها مدينة الأشمونين. والأعمال المنفلوطية: وتلاصق عمل الأشمونين من جنوبه، وعاصمتها مدينة منفلوط. والأعمال الأسيوطية: على البر الغربي من النيل وعاصمتها أسيوط. والأعمال الإخميمية: وتلاصق عمل أسيوط من جنوبه، وعاصمتها إخميم. والأعمال القوصية: وتلاصق عمل أسيوط من جنوبه وعاصمتها مدينة قوص.

أما الوجه الثاني من الديار المصرية فهو الوجه البحري، ويشمل كل ما هو أسفل القاهرة إلى البحر المتوسط حيث مصب النيل، وسمي بحرياً لأن منتهاه البحر المتوسط، وهذا الوجه أرطب الوجهين، وأقلهما حرّاً وأكثرهما فاكهة وأحسنهما مدناً، واشتمل على ثلاث شعب، وهي كما يلي: الشعبة الأولى: وتشتمل على أربعة أعمال هي: عمل الضواحي؛ وهو ما يجاور القاهرة من جهة الشمال، وولاتها مضافة إلى ولاية القاهرة وداخله في حكمها، وعمل القليوبية: ويلاصق الضواحي من شمالها مما يلي جهة النيل، وعاصمته مدينة قليوب، وعمل الشرقية: ويلاصق الضواحي من شمالها مما يلي جهة جبل المقطم والقليوبية: من جهة الشمال أيضاً، وعاصمته مدينة بليس، وعمل الدقهلية والمرتاحية: ويلاصق عمل الشرقية من جهة الشمال وعاصمته مدينة أشموم، وفيه مدينتا الإسكندرية ودمياط.

وتشتمل الشعبة الثانية على عمليين هما: عمل البحيرة: ويلى عمل الجيزة من الجهة البحرية وعاصمته مدينة دمنهور، وعمل المزاحمتين: ويجاور خليج الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر المتوسط، وبعضه يقع على البر

الشرقي من النيل وعاصمته مدينة فوه، ويلي عملي هذه الشعبة غرباً وشمالاً مدينة الإسكندرية.

وتشتمل الشعبة الثالثة على جزيرتين، تشتمل الأولى منهما على عمليين هما: عمل المنوفية؛ ويبدأ من قرية شطنوف إلى النيل وعاصمته مدينة منوف، وعمل الغربية ويلاصق المنوفية من جهة الشمال وعاصمته مدينة المحلة، وتشتمل الجزيرة الثانية على عمل واحد عاصمته مدينة أبيار المضافة إلى مدينة ولاية منوف^(١).

المطلب الثاني: النظام الإداري:

أ- النيابة:

استحدثت في مصر في عصر دولتي المماليك ثلاث نيابات، أولها نيابة الإسكندرية؛ وهي نيابة جليلة استحدثت في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧هـ-١٣٦٥م، حين هاجم الفرنجة الإسكندرية وفتكوا بأهلها وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ونهبوا الأموال، وكانت قبل ذلك ولاية تعد في جملة الولايات^(٢).

والنيابة الثانية هي نيابة الوجه القبلي، واستحدثت في عهد الظاهر برقوق أول سلاطين الدولة الجركسية، ونائبها ذو رتبة عظيمة، ويحكم جميع بلاد الوجه القبلي بأسره، ومقر نيابته مدينة أسيوط.

(١) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١٤٠-١٦٣، «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٣/٤٣٠-٤٦٧)، «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية» لابن الجيعان، ص ٥-١٩٥، «الخطط» للمقريزي: (١/١٦٣-٢٥٠، ٣٦٠).

(٢) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤/٤، ٢٥، ٦٤، ٦٥).

والنيابة الثالثة هي نيابة الوجه البحري، وهي مما استحدثت في عهد الظاهر برقوق أيضاً، ومقر نائبها مدينة دمنهور^(١).

إذاً، لم يكن في مصر في عصر دولة المماليك البحرية إلا نيابة واحدة هي نيابة الإسكندرية، فلم يكن للوجهين القبلي والبحري نواب، وإنما كان عليهما قبل استحداث النيابة موظف يسمى (الكاشف)، وسمي بوالي الولاية^(٢).

وكان للشام أجمعه رئيس يسمى: نائب الشام، يقيم في دمشق أو حلب، ويشرف على جميع أمورها وموظفيها وأموالها، وله مساعدون من وزراء وحجاب وكتّاب إنشاء وكتّاب سر، ودواوين ومفتون وقضاة ومحتسبون وولاية، وأما بقية أقاليم الإمبراطورية في الجزيرة العربية والحجاز وفي اليمن أو في برقة وطرابلس، فإنها كانت مستقلة عن الإدارات المصرية، وإن سُمع عن نيابة واحدة أو نيابات في مكة والمدينة، فإن ذلك يدل على إشراف مباشر عليها بسبب التجارة، أو بسبب أهميتها الدينية^(٣).

ب - الولايات :

قُسمت الولايات إلى ولايات، فكان على كل مدينة والٍ يدير شؤونها، وكان والي القاهرة الأعلى رتبة بين الولاية، وكان يحكم القاهرة وضواحيها. وهناك أيضاً والي الفسطاط، ووالي القرافة؛ وهي مقبرة القاهرة والفسطاط، ووالي القلعة. وهناك ولاية الوجه القبلي وهم: والي البهنسي،

(١) ينظر المصدر السابق: (٤/٢٥، ٦٦-٦٨).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٤/٦٦).

(٣) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١/٩٠).

ووالي الأشمونين، ووالي قوص وإخميم، ووالي أسوان، ووالي الجيزة، ووالي إطفيح، ووالي المحلة، ووالي البحيرة؛ وهو والي دمنهور، ووالي قليوب، ووالي أشموم، ووالي منفلوط، ولم يكن في أسيوط ولاية لكونها كانت مستقر والي الولاية في الوجه القبلي، ثم صارت مستقر النائب^(١).

وكان الولاية يتجولون بحركة دائمة في ولاياتهم، كما هو حال والي القاهرة في عهد الناصر محمد بن قلاوون، الذي كان يطوف بالأسواق والطرق لمنع الغش، ويقتحم البيوت ويتعقب السكارى والعابثين ويقضي عليهم، وكان في بعض الأحيان يتنكر ويمشي في أزقة المدينة^(٢).

ج - أهم الدواوين:

أقام المماليك دواوين كثيرة واهتموا بتنظيمها والإشراف عليها لترتيب أمور الدولة، واشتهر من هذه الدواوين أربعة: ديوان الإنشاء، وديوان النظر، وديوان الأحباس، وديوان الجيش.

- ديوان الإنشاء: وهو المسؤول عن المراسلات والمكاتبات الخارجية، ويختص بتنظيم العلاقات الخارجية للدولة كما مر سابقاً، وهو بذلك يشبه وزارة الخارجية، والديوان اسم للموضع الذي يجلس فيه الكتّاب، أما الإنشاء فهو مصدر: أنشأ الشيء؛ إذا ابتدأه واخترعه على غير مثال يحتذيه، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويبتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات للولايات وغيرها، لذلك كانت إضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين: أحدهما أن الأمور السلطانية من المكاتبات

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤/٢٣-٢٨)، «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١/٩٠).

(٢) ينظر: «نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر» لليوسفي، ص ١٩٦، ١٩٧.

للولايات تنشأ عنه وتبدأ منه، والثاني أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالاً^(١). وترتبط بديوان الإنشاء وظيفة كاتب السر؛ وكتابة السر تعني: قراءة الكتب الواردة على السلطان، وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتفسيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها^(٢). فكانت كتابة الإنشاء تارة تطلق على صاحب ديوان الإنشاء وتارة أخرى تطلق على كاتب السر^(٣)، الذي كان يجلس في ديوان الإنشاء أيضاً^(٤).

- ديوان النظر: يذكر أحمد بن علي المقرئ أن هذا الديوان هو أرفع دواوين المال وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وتتبع إليه كل دواوين المال التي تشكل فروعاً منه، فترفع له حساباتها، ويرجع إلى هذا الديوان أمر توزيع الرواتب والأرزاق على موظفي الدولة^(٥)، فهو يشبه بذلك وزارة المالية.

- ديوان الأحباس: الأحباس: جمع حبس؛ وهو الوقف^(٦). ويمكن أن نطلق على هذا الديوان اسم: ديوان الأوقاف، وهو بذلك يشبه وزارة الأوقاف، ويذكر القلقشندي أن صاحب هذا الديوان مسؤول عن رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (١/١٢٤، ١٢٥).

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١٢٠.

(٣) ينظر: «حسن المحاضرة» للسيوطي: (٢/٢٠٦).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٢/٢٢٥).

(٥) ينظر المصدر السابق: (٢/٢٢٤).

(٦) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (١١/٢٤٨).

من نواحي الديار المصرية خاصة، وما هو من ذلك على سبيل البر والصدقة لأناس معينين»^(١).

- ديوان الجيش: وفيه تحفظ أسماء الجنود والأمراء وأخبارهم بالتفصيل^(٢)، وهو يشبه ما يسمى وزارة الدفاع في أيامنا، ويسمى الموظف المسؤول عنه بناظر الجيش، ووظيفته التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان وأخذ خطه... ولناظر الجيش أتباع في ديوانه يولون عن السلطان كصاحب ديوان الجيش وكُتّابه وشهوده»^(٣).

د - أهم الوظائف:

كان إلى جانب السلطان عدد كبير من الموظفين، مهمتهم الأساسية مساعدته في شؤون الحكم، وكان هؤلاء الموظفون على نوعين؛ الأول: أرباب السيوف، وهم رجال الجيش، ولم يكونوا مصريين، وكانوا ينفذون أوامر السلطان وينصرونه ويعتمدون عليه في أمورهم المعاشية، وفي بعض الأحيان كانوا يسيئون استعمال النفوذ الذي يتمتعون به. والنوع الثاني: أرباب القلم ومعظمهم من المصريين، ولم يؤثر عنهم أنهم استطاعوا خلع السلطان، أو تغيير أسرة حاكمة، مع أن كل الأسر الحاكمة كانت تعتمد عليهم في إدارة شؤون البلاد، وكان سلاطين المماليك في البداية يعينون المماليك في كل الوظائف أو معظمها، وقد احتفظوا بهذه القاعدة إلى نهاية حكمهم فيما

(١) ينظر المصدر السابق: (٣٩/٤).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٦٣/٤).

(٣) ينظر المصدر السابق: (٣١/٤)، و«المسالك» للعمري، ص ١١٩، ١٢٠، و«الخطط» للمقريزي: (٢/٢١٥)، «حسن المحاضرة»: (٢/١٣١).

يختص بالوظائف الكبيرة، ولكنهم اضطروا إلى أن يتخذوا في وظائف مثل كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وغيرهما موظفين من غير المماليك، بل كانوا يستخدمون اليهود والمسيحيين من أهل الذمة، لأن المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الأعمال، وكان معظم الموظفين الماليين من القبط لما اشتهروا به من نشاط وكفاية في تولي مثل هذه أعمال^(١).

أما أهم الوظائف فهي :

- نائب السلطنة: ويسمى أيضاً بالنائب الكافل، وكافل المماليك الإسلامية، وهو السلطان الثاني في الدولة، وصلاحياته واسعة، ومن ذلك أنه كان بإمكانه أن يستخدم الجنود دون مشاورة السلطان، وإليه ترفع الشكاوي، وتقرأ عليه قصص الناس، وكان يصدر المراسيم من دون الرجوع إلى السلطان، باستثناء الأمور الصعبة التي كان لا بد من إحاطته بها^(٢). وهو من يعين أرباب الوظائف الجليلة؛ كالوزارة وكتابة السر، وهو يرأس الجيش في المواقب وينزل الجميع في خدمته^(٣).

- الوزارة: وهي من أجلّ الوظائف وأرفعها رتبة آنذاك، وكان صاحبها ثاني رجل في الدولة إلى أن أحدث منصب النيابة، فتأخرت الوزارة^(٤)، حتى ألغاه الناصر محمد بن قلاوون، فوزعت مهمات الوزير إلى ناظر المال؛ ومهمته تحصيل المال وصرف النفقات والكلف، وعلى ناظر الخاص؛ ومهمته تدبير جملة من الأمور وتعيين المباشرين؛ وكاتب السر؛ ويقوم

(١) «تاريخ المماليك البحرية» ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) ينظر: «المسالك» ص ١١٦، ١١٧.

(٣) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (١٧/٤).

(٤) ينظر المصدر السابق: (٢٨/٤).

بالتوقيع في دار العدل، وهؤلاء الثلاثة لا يستطيعون الاستقلال بأي أمر إلا بعد مراجعة السلطان^(١).

- الدوادارية: ومعنى الدوادار: ماسك الدواة، وأول من أحدث هذه الوظيفة ملوك السلاجقة^(٢)، ومهمة الدوادار تبليغ الرسائل عن السلطان، والإبلاغ عن عامة الأمور، وتقديم البريد، وأخذ خط السلطان على عموم المناشير والكتب.

- الأستاذدار: وهو سيد بيوت السلطان، وإليه يكون أمرها، فيشرف على المطبخ والحاشية والغلمان، وله تصرف تام في استدعاء كل ما يحتاجه في بيت السلطان من النفقات والكساوي^(٣).

- الحجوبية: يقوم صاحبها مقام النواب في كثير من الأمور، ويقف ما بين الأمراء والجنود^(٤).

- إمرة السلاح: ومهمة صاحبها حمل سلاح السلطان في المجمع الجامعة^(٥).

- نقابة الجيوش: يكون نقيب الجيوش كأحد الحجاب الصغار، فإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً أو خدماً، كانت مهمته أن يرسل إليهم ويحضرهم^(٦).

(١) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١١٨، «الخطط» للمقريزي: (٢/٢٢٢).

(٢) ينظر: «حسن المحاضرة»: (٢/١٣٢).

(٣) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١١٨، «الخطط» للمقريزي: (٢/٢٢٢).

(٤) ينظر: «المسالك» ص ١١٧، «الخطط»: (٢/٢٢٢).

(٥) ينظر: «المسالك» ص ١١٨، «الخطط»: (٢/٢٢٢).

(٦) ينظر: «المسالك» ص ١١٩، «الخطط»: (٢/٢٢٣).

- نظر الخزانة: هي وظيفة كبيرة الشأن، لأن الخزائن مستودع أموال المملكة التي تسمى بالخزانة الكبرى، وناظرها غالباً ما يكون من القضاة ومن يلتحق بهم.

- نظر البيوت: من الوظائف الجليلة، وهي منوطة بالأستاذارية، فكل ما يتحدث به الأستاذار يشارك فيه ناظر البيوت^(١).

- نظر بيت المال: وتعني حمل حمول المملكة إلى بيت المال، ولا يتولى هذه الوظيفة إلا صاحب العدالة البارزة.

- نظر الإسطبلات: يشرف ناظر الاسطبلات على أرزاق المستخدمين فيها، وما يباع ويشترى^(٢).

هذه هي أهم الوظائف التي كانت تشكل هرم دولة المماليك، وقد أشرت إلى وظائف أخرى عند حديثي عن الدواوين، كناظر الجيش وكاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء وصاحب ديوان الأحباس، وهناك وظائف أخرى كبيرة وعظيمة؛ هي: القضاء والخطابة ووكالة بيت المال والحسبة^(٣)، وهذه الوظائف معروفة لا تكاد تخلو مملكة من ممالك الإسلام منها.

ومما يلفت النظر في نظام المماليك عامة عدم الاستقرار في الوظائف، وكثرة العزل، والحبس والإعدام، ففي دراسة أجريت على (٢٢٠) موظفاً كبيراً في عصر المماليك، وُجد أن (٨٤) منهم أُعدموا، و(٥) ماتوا في السجن، و(٨) قُتلوا، و(٢) ماتا في الخارج بعد الخروج على السلطان

(١) ينظر: «المسالك»، ص ١٢١.

(٢) ينظر المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٣) ينظر المرجع السابق، ص ١٢١.

الحاكم، و(١٦) ماتوا في قتال العدو، و(٨٨) ماتوا موتاً طبيعياً في أثناء توليهم الوظيفة، و(٦) أُحيلوا إلى التقاعد، ولم يُستطع جمع بيانات كافية عن الباقي منهم^(١).

وكثرة التغيير والتولية والعزل هذه أصابت أكثر ما يكون نواب السلطنة، جرّاء خوف السلطان منهم في منافسته أو التآمر والانقلاب عليه، وقد عبّر ابن الوردي عن هذه الحالة بيتين من الشعر، فقال:

من بعضها القلب ذائب هذي أمور عظام
في كل شهرين نائب ما حال قطريليه
وقال:

يا زينة الأسواق حتى متى كم ملك جاء وكم نائب
ما بقيت تلحق أن تنبتا قد ذكروا الزينة حتى اللحى^(٢)



(١) ينظر: «تاريخ المماليك البحرية» ص ٢٦٢.

(٢) ينظر: «تتمة المختصر في أخبار البشر» لابن الوردي: (٢/٤٩٣، ٤٩٤).



المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية:

المطلب الأول: الزراعة

المطلب الثاني: الصناعة

المطلب الثالث: التجارة

المطلب الرابع: موارد ونفقات الدولة



المبحث الثالث

الحالة الاقتصادية

نعمت مصر في عصر دولة المماليك بحياة اقتصادية مزدهرة، شملت جميع المعادلات الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية، ولكن هذه القوة الاقتصادية لم تنعكس إيجاباً على أحوال فئات الشعب المختلفة (باستثناء الإنفاق على المؤسسات الدينية والعلمية)، فقد كانت وسائل الحياة وأمور المعيشة في ذلك العصر صعبة في معظم الأحيان، وتدخلت في ذلك أسباب كثيرة؛ منها: السياسية؛ فالحروب مع الصليبيين والتتار وغيرهم لم تتوقف، وبسبب البطش السياسي والحكم العسكري الإقطاعي استأثرت الأرستقراطية المملوكية بالسلطة وبالمال وبالثروة لنفسها.

ومنها: الاقتصادية والاجتماعية جراء ظلم أهل الدولة للرعية، وكثرة الضرائب والاحتكارات، وظلم الفلاح، وانتشار الرشوة والمحسوبيات. ومنها: أسباب طبيعية؛ كالحقن، وانخفاض منسوب النيل، وانتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات، حتى وصلت الأمور بالناس إلى أكل الحيوانات في أيام طغيان المجاعات، وأمام تردي الأوضاع، والعجز عن تغييرها ومقاومتها، كان رد الفعل قاسياً وسلبياً، فانتشر إدمان الخمر والحشيش، وانتشرت تيارات صوفية شاذة، وتعامل الناس بالرشوة، وغير ذلك من الأمراض التي نخرت جسم المجتمع، وأساءت إلى سمعة دولة المماليك.

المطلب الأول: الزراعة

اهتم سلاطين المماليك بالزراعة كثيراً لأنهم أدركوا أهميتها، فنالت عناية كبيرة حيث اهتموا بنهر النيل، وأقاموا إصلاحات عديدة كشق الترعة

وبناء الجسور؛ لما لها من فائدة في تطوير الزراعة، ومن هذه الجسور تلك الجسور الكثيرة التي أمر ببنائها الناصر محمد بن قلاوون^(١). وانقسمت هذه الجسور إلى قسمين: جسور سلطانية، وجسور بلدية. فالسلطانية: هي الجسور الجامعة للبلاد، وهي والتي تعمّر في كل عام، والبلدية: هي الجسور الخاصة ببلد دون بلد، والفرق بينهما أن الجسور السلطانية جارية مجرى سور المدينة التي يجب على السلطان الاهتمام بعمارته والعناية به، والبلدية جارية مجرى الدور والمسكن داخل السور، فكل صاحب دار فيها ينظر مصلحته فيها ويلتزم تديير أمرها، كما عبّر عن ذلك القلقشندي^(٢).

وقد أقام المماليك نظاماً إقطاعياً متميزاً، والإقطاع في العُرف المملوكي أمر شخصي بحت لا دخل لحقوق الملكية أو الأحكام الوراثية فيه، فكان المقطع يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته، ويؤول الإقطاع إلى السلطان بانتهاء المدة المتفق عليها، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الإقطاع مدى الحياة، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم، وسواء في ذلك ما يسمى إقطاع التملك وهو الإقطاع العادي، أو إقطاع الاستغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة، وجرت العادة أن يتولى السلطان بنفسه إلحاق المماليك بالخدمة وترتيب درجاتهم، فإذا حضر أمامه من يطلب الإقطاع، ووقع اختياره على أحد، أمر ناظر الجيش بالكتابة فيكتب ورقة على شكل وثيقة تسمى المثال، إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات الخالية^(٣).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/١٦٥-١٧١)، «السلوك»: (٢/١٣٧، ١٣٨)، «بدائع الزهور»: (١/١٦٤-١٧٥).

(٢) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٣/٥١٥، ٥١٦).

(٣) ينظر: «تاريخ المماليك البحرية» ص ٣٣١.

فكانت بذلك أرض مصر أراضي إقطاعية، وقد تألفت من أربعة وعشرين قيراطاً، اختص السلطان منها بأربعة قراريط، واختص الأجناد بعشرة قراريط، والأمراء بعشرة قراريط أيضاً، وكان هؤلاء الأمراء يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء^(١).

وبذلك تركزت معظم أراضي مصر في يد المقطعين، والباقي في يد الأوقاف، وانخفضت ملكية الفلاحين الصغار، وأدى ذلك إلى تعدد أساليب استغلالها وتعيين المقطعين ومتولي الأوقاف وكلاء على ذلك لتنظيم العلاقة ما بين صاحب الأرض والفلاح، أو استغلالها مباشرة، وكانت الإجارة أكثر وسائل التعامل الزراعي شيوفاً في العصر المملوكي، كما شاع التعامل على أساس دفع الأرض للفلاح مقابل حصول كل طرف على جزء معين من الإنتاج وفقاً للاتفاق بين الفلاح وصاحب الأرض، وأطلق على هذا النظام مصطلحات عدة: كالمزارعة، والمحاقلة، والمشاطرة، والمقاسمة^(٢).

وقد كثرت شكايات الفلاحين لاضطراب أحوالهم، كما سنرى، وهذا ما دعا السلطان حسام الدين لاجين إلى إعادة حصر الأراضي الزراعية وقياسها وإثباتها في سجلات الديوان، وتقدير خصوبتها لحساب الخراج عليها، وسُميت هذه العملية بعملية الروك، وقد بدأه لاجين في ٨ رجب من سنة ٦٩٦هـ-١٢٩٧م، وانتهى به نهاية سنة ٦٩٧هـ-١٢٩٧م، فقسم أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً، جعل منها أحد عشر قيراطاً للأمراء

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١/٨٨).

(٢) ينظر: «الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي» ص ١٦١-١٦٤.

والأجناد، وأربعة قراريط للسلطان، وخصت التسعة الباقية لتكوين عسكر جديد في جيشه^(١).

وتعرضت أراضي مصر للتغيير والتبديل ثانية، مما حدا بالناصر محمد بن قلاوون إلى إعادة حصر الأراضي الزراعية وقياسها وإثباتها وتقسيمها من جديد، وفي سنة ٧١٥هـ-١٣١٥م أرسل أمراءه إلى سائر الأقاليم لقياس الأراضي، وندب معهم كتاباً ومستوفين وقياسين، فساروا إلى حيث أمرهم، فكان كل واحد منهم إذا نزل إلى الأرض المخصصة لعمله استدعى مشايخ البلاد ودلالها وعودولها وقضاتها ومعهم سجلاتها، وعرف مزروعها وبورها وغلتها وأصنافها وما فيها من تراتيب أخرى، ثم قاس كل أمير ناحيته وحرر ذلك.

فاستغرقت عملية الروك الناصري خمسة وسبعين يوماً، وكُتب خلالها أحوال جميع الضياع ومساحتها وما يتحصل من كل قرية من عين وغلة وصنف، وسُلمت إلى ناظر الجيش، ثم عملت الأوراق الخاصة بالسلطان، وأوراق إقطاعات الأمراء، ثم ألغى الناصر عدة ضرائب^(٢).

وقد أشرف الناصر محمد شخصياً على خطوات هذا المسح الإداري الشامل كلها، ولكن وراء عمل الروك الناصري مقاصد عديدة؛ بعضها شخصية وبعضها عامة، فقد أراد الناصر محمد أن يقوي سلطته، بزيادة مساحة الإقطاعات السلطانية هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يرغب

(١) ينظر: «السلوك»: (١، ٣/٨٤١-٨٤٤)، «الخطط» للمقريزي: (١/٨٧، ٨٨)، «البدائع» لابن إياس: (١/٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) ينظر: «السلوك»: (١/٨٨، ٨٩).

في تقليص مساحة الإقطاعيات الأميرية، فيحرم أولئك الأمراء من القوة المادية الضخمة التي طالما اعتمدوا عليها في تهديد مركز السلطان، فجعل إقطاع كل أمير في جهات متباعدة، بحيث يتكبد الأمير في سبيل متابعتها الكثير من الجهد والوقت والتكاليف المالية الباهظة، بينما تضاعفت مخصصات السلطان من الإقطاعيات، ومن أجل أن يضمن الناصر عدم معارضة الأمراء قام شخصياً بتوزيع الإقطاعيات عليهم^(١).

وعلى الرغم من هذين العاملين: الروك الحسامي، والروك الناصري، حدث من جديد تبدل وتغيير في توزيع الأراضي الزراعية، وأشار المقرئزي إلى ذلك بقوله: فلما مات الملك محمد بن قلاوون حدث بين أجناد الحلقة^(٢) نزول الواحد منهم عن إقطاعه لآخر بمال، أو مقايضة الإقطاعيات بغيرها، فكثرت الدخيل في الأجناد بذلك، واشترى السوق والأرذال الإقطاعيات^(٣).

أما الفلاح فقد عاش في أحوال وظروف لا يحسد عليها، فكان مربوطاً إلى الأرض يفني حياته في خدمتها، دون أن يتمتع بنصيب يذكر من خيراتها، فتعرض الفلاحون للكثير من العسف من جانب أمراء المماليك من جهة، ومن جانب الأعراب الذين طغوا من جهة أخرى فخرّبوا معظم القرى، كما أن الفلاح لم يعرف من وسائل الزراعة وأدواتها غير الوسائل والأدوات القديمة^(٤).

(١) ينظر: «حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية» ص ٢١.

(٢) ينظر: «معجم المصطلحات التاريخية في العصر المملوكي» لأحمد دهمان، ص ١٢، وأجناد الحلقة: هم الجنود المرتزقة من غير ممالك السلطان.

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢/٢١٩).

(٤) ينظر: «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» عاشور، ص ٣١٢.

ويقدم لنا أحد الباحثين صورة من صور المظالم التي تعرض لها الفلاح في عصر المماليك، فيقول: خضع الفلاحون لقوانين في التعامل الزراعي، فهم لم يكونوا ملاكين للأرض... ومع هذا كانوا يديرون الأرض لحساب رجال الإقطاع والأوقاف والملاك، وقامت القوانين على عدة قواعد هي: قاعدة المقاسمة أو المثالثة أو المربعة أو المخامسة أو السادسة... ومعنى هذا كله أنه في قاعدة المقاسمة يأخذ الفلاح نصف الإنتاج، ويأخذ المقطع النصف الآخر، أما المثالثة فيأخذ الإقطاعي الثلث، وفي المربعة الربع، وفي المخامسة الخمس... ويوحى هذا للوهلة الأولى أن الفلاح في وضع جيد، وإنما هناك فارق بين القاعدة والتطبيق، وفي التطبيق للفلاح من مجمل الإنتاج لا يتجاوز العشرة بالمئة، لا بل في كثير من الأحيان لا يحصل على شيء البتة، فبعدما يحصل الإقطاعي على حصته، يقوم وكلاء الديون بأخذ كمية مقابل الضرائب المفروضة، وبعد هذا يقتطع من حصة الفلاح ما عليه من ديون وأثمان البذار، وثمان الحيوانات، وما ترتب من فوائد ربوية شديدة، وفي آخر المطاف عليه أن يدفع عشر ما بقي له وهو ما فرضته الشريعة، لذلك كان الفلاح معرضاً لظلم ما بعده ظلم وعتو ما بعده عتو، لهذه الأسباب كان الفلاح ينتهز الفرصة للهروب من القرية والنزوح إلى المدينة أو إلى منطقة ما، وكانت حالة النزوح تشتد عند احتباس الأمطار وتدهور المواسم، وكان الفلاح يجد الفرصة المواتية أثناء اضطراب الأمن، وخلال اجتياح البلاد من قبل الجيوش الغازية.

إذاً، انطلقت سياسة الدولة الزراعية من مبدأ زراعة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الزراعية، ولم يكن الهدف من ذلك تحقيق مصلحة الفلاح وتحسين أوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، بل تحقيق أكبر قدر ممكن من

الضرائب، وعلينا ألا ننسى في الوقت نفسه أن قسماً من تلك الضرائب صُرف في مشاريع الري، والمسح السنوي للأراضي المزروعة، وتقديم القروض للفلاحين، وشق الترع والقنوات، وتوظيف المهندسين لمراقبة شبكات الري وإصلاحها^(١).

وقد ازدهرت الزراعة، وازداد محصولها في ذلك العصر، على الرغم من كل الأنظمة والظروف التي كانت سائدة، ويعود ذلك إلى الأسباب البشرية التي مرت قبل قليل؛ من اهتمام السلاطين باستصلاح الأراضي الزراعية، وشق الترع، وإقامة الجسور، مروراً بالروكين الحسامي والناصري، فضلاً عن الأسباب الطبيعية التي متع الله مصر بها؛ ومنها: وفرة المياه، وذلك بفضل نهر النيل، وبما يجلبه في طريقه من أحمال التراب الصالح للزراعة، وأكمل هذه المحاسن الهواء الذي يهب عليها من البحرين المتوسط والأحمر^(٢).

كما أدى تباين أنماط المناخ السائد في مصر إلى تنوع المحاصيل الزراعية بين المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية، وأهم هذه المحاصيل وأكثرها شيوعاً الغلال (القمح والبقول والشعير)؛ لكونها المادة الغذائية الأولى لسكان المدن، وانتشرت زراعتها في كل أنحاء مصر^(٣).

وشكلت الأشجار المثمرة والفواكه جانباً مهماً في الاقتصاد الزراعي لكونها تزرع في جميع أنحاء مصر، مع غلبة أصناف معينة في كل وجه تبعاً

(١) ينظر: «الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي» ناصر، ص ٢٠٠-٢٠٢.

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، «الخطط» للمقريزي: (١/١٠٣).

(٣) ينظر: «الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي» ناصر، ص ٢٢٨.

للتباين الكبير في درجات الحرارة والرطوبة من الجنوب إلى الشمال، فنرى الأشجار والفواكه التالية: النخيل والكرمة والتفاح والموز والرمان والتين والخوخ والمشمش والكمثرى والتوت والحمضيات والبطيخ والشمام والزيتون.

وُزعت في ذلك العصر أيضاً الخضروات والنباتات الصيفية والبهارات، فنجد: الكرنب والقرنبيط والباذنجان والبامية والملوخية والجرجير والخيار البلدي والفقوس والفجل واللفت والخس والثوم والبصل، والبهارات كالزعفران والكمون والكزبرة وحبّة البركة^(١).

ومن تلك المزروعات المحاصيل الصناعية، ويحتل قصب السكر الأهمية الكبرى بينها لجدواه الاقتصادية العالمية، وقد أسهم توافر المناخ الملائم والمياه وخصب الأراضي في انتشار زراعته في معظم أنحاء مصر، واشتهرت مصر منذ القدم بصناعة الملابس الكتانية، ولذلك أكثر الفلاحون من زراعة الكتان، وكثر عدد المشتغلين بالحياكة من الرجال والنساء في المدن والأرياف بالقرب من المناطق الزراعية^(٢). ويضاف إلى ذلك النباتات الطبية التي استخدمت في تركيب الأدوية.

وفيما يتعلق بالثروة الحيوانية فقد أنشأت الدولة مجموعة من الإسطبلات تركز القسم الأعظم منها إلى الشمال من مدينة القاهرة، ويرجع ارتفاع عدد الخيول لدى السلاطين والأمراء إلى اهتمام الفئة العسكرية الحاكمة الشديد

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٢٦٢-٢٦٦.

(٢) ينظر المرجع السابق، ص ٢٥٧، ٢٥٨، ولمزيد من المعلومات حول محاصيل مصر الزراعية ينظر المصادر المملوكية التالية: «المسالك» للعمرى، ص ٨٣، «الخطط» للمقريزي: (١/ ١٠١-١٠٣)، «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة» لابن ظهيرة، ص ١٣٢-١٣٦.

بتربية الخيول، كما تحتل تربية الأغنام أهمية كبيرة لدى الفلاحين، وتميزت بلاد الصعيد بضخامة إنتاجها، وأصبحت جزءاً مهماً من ثروات السلاطين والأمراء منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون الذي أنشأ لها مجموعة من الحظائر، وتستخدم الأبقار في الأعمال الزراعية المختلفة وفي الألبان وفي جر آلات الحصار عند مسير الجيوش.

ومعظم مزروعات مصر كانت تعتمد على مياه نهر النيل، والقليل منها كان يعتمد على المطر، ومنها ما كان يزرع على مياه بقية الأنهار كالفيوم، وتتفاوت أسعار المحاصيل الزراعية، إلا أن معدل سعرها الوسطي في غالب الأوقات كان كما يلي: إردب^(١) القمح بخمسة عشر درهماً، والشعير بعشرة، وأسعار بقية الحبوب كانت تتراوح ما بين العشرة والخمسة عشر درهماً، وأما سعر الأرز فكان أكثر من ذلك، وكان رطل اللحم بنصف درهم أو أزيد، ويختلف سعر الدجاج باختلاف أحواله فالجيد بدرهمين، ومنها ما هو بثلاثة دراهم وقد يزيد، ومنها ما هو بدرهم واحد^(٢).

المطلب الثاني: الصناعة

تقدمت الصناعة في عصر المماليك وازدهرت كثيراً، ويعود ذلك إلى توفر المواد الأولية التي تكلمت عنها في بحث الزراعة، وإلى غنى الدولة وعظم ثروتها التي انعكست إيجاباً على الصناعة، ويضاف إلى ذلك الحالة المعنوية التي يشعر بها الصانع إذا علم أنه سيجني ثمن أتعبه في النهاية، وإلى المستهلك الذي ازدادت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية، فبدأ يفكر

(١) الإردب: مكيال ضخمة لأهل مصر، وقيل يضم أربعة عشر صاعاً، ينظر: «لسان العرب» لابن منظور: (٤١٦/١)، مادة (ردب).

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ٨٢-٨٤.

في اقتناء الكماليات، وقد أثر هذا في ارتقاء الصناعة والصنّاع، فارتقت الصناعة رقيّاً كبيراً حتى غدت مصنوعات ذلك العصر تكوّن في مجموعها إنتاجاً فنياً رائعاً تزدان به متاحف العالم اليوم^(١).

ووجد في المدن المصرية في ذلك العصر طوائف كبيرة من العمال والصنّاع وأصحاب المهن، وخضع الجميع لنظام النقابات السائد بين أفراد كل حرفة^(٢).

وأهم الصناعات التي كانت قائمة آنذاك صناعة النسيج بنوعيه نسيج الكتان ونسيج الحرير، على أن صناعة نسيج الكتان قد اضمحلت في عصري الأيوبيين والمماليك، وزادت العناية بنسيج الحرير وتطريزه وبتزيين المنسوجات بالزخارف المطبوعة، وكان ما يُعمل منه ينقل إلى سائر بلاد العالم^(٣).

وازدهرت صناعة الزجاج، وبلغت صناعات التحف الزجاجية الإسلامية أوج عزها في مصر والشام فيما بين القرنين السادس والتاسع للهجرة - الثاني عشر والخامس عشر للميلاد، وتقدمت صناعة الزجاج الملّون المستخدم في الشبائيك، وكانت مصر من المراكز الأساسية في صناعة الخزف في العالم الإسلامي، واشتهر منها رسم الطيور والحيوانات القريبة من الطبيعة فضلاً عن الرسوم النباتية.

وكان الإقبال على صناعة التحف المعدنية عظيماً جداً، فوصلنا منه

(١) ينظر: «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» عاشور، ص ٣١٢.

(٢) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» عاشور، ص ٤١، ٤٣.

(٣) ينظر: «المسالك» للعمري: (١/٨٤).

أبواب وكراسي وصناديق وأواني وغير ذلك مما استعملت فيه مختلف الأساليب الفنية في صناعة المعادن من حفر وتصفيح وتخريم وتطعيم، وانفردت مصر عن أقطار ذلك العصر باستخراج معدن الزمرد، وكان يستخرج من جبل يقع شرقي النيل، وجد فيه في صدر مغارة طويلة في حجر أبيض، وكان هذا الحجر على ثلاثة أنواع؛ الأول: يقال له طلق فاخوري، والثاني: يقال له طلق فضي، والثالث: يقال له حجر حروري، فيضرب في هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد^(١).

وتقدمت أيضاً صناعة التكفيت؛ وهي تطعيم الأواني النحاسية بالذهب والفضة وما شابههما من معادن ثمينة، ووجد لهذه الصنعة سوق في القاهرة سُمي بسوق الكفتيين، قال عنه المقرئزي: يشتمل على عدة حوانيت لعمل الكفت، وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة، وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة، أدركنا من ذلك شيئاً لا يبلغ وصفه لكثرتة، فلا تكاد تخلو دار في القاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت^(٢).

وكذلك ازدهرت الصناعة الخشبية، فأبدع النجارون وبرعوا في الحفر على الخشب وإنتاج التحف الدقيقة ولا سيما المنابر والأبواب والكراسي والخزانات والدكك^(٣)، ومهروا في زخرفة الخشب وتطعيم الحشوات

(١) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ٧٨، ٧٩، «معادن مصر» لابن ظهيرة، ص ١٣٢-١٣٦.

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (١٠٥/٢).

(٣) الدكة أثاث يشبه السرير، يصنع من خشب مطعم بالعاج والأبنوس، وكانت العروس من بنات الوزراء والأمراء وأعيان الكتاب وأماثل التجار تُجهز في (هازها أكثر من عشر دكك، ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (١٠٥/٢).

بخيوط أو أشرطة رفيعة، كما استخدموا العاج في التطعيم والترصيع ولا سيما في حشوات المنابر وقطع الأثاث^(١).

ووجدت الصناعات الحيوانية والنباتية، فأخبرنا ابن فضل الله العمري عن معامل لحضانة الدجاج وتسريع إنتاج البيض، وإنتاج الفراريج، وسمّاهَا معامل التنانير (أي التفريخ الصناعي في عصرنا). فضلاً عن صناعة الألبان والأجبان والعسل، وكثرت صناعة السكر، وكان يكرر بشكل فائق ويصدر إلى كثير من البلدان وعلى اختلاف أنواعه^(٢).

واحتلت الصناعات الحربية مكاناً في النشاط الصناعي، فعرفت القاهرة سوقاً عُرف بسوق السلاح^(٣)، كما عُرف من الصناعات الحربية صناعة السفن، وحازت على عناية الظاهر بيبرس الذي أقام دوراً لصناعتها في الإسكندرية ودمياط والروضة، وأشرف على العمل فيها بنفسه^(٤).

وجدير بالذكر أن مصر والشام اشتركتا بصناعات معينة؛ وهي صناعات مشهورة تكاد تختص بها فقط، وهذه الصناعات هي: صناعة القماش والزرکش المصبوغ، وصناعة تكفيت المعدن، وصناعة الأسلحة والرماح.

المطلب الثالث: التجارة

اكتسبت التجارة أهمية كبرى في الحياة الاقتصادية؛ وكان لها المكان الأول، لأسباب كثيرة؛ منها: الموقع الجغرافي الممتاز لدولة المماليك بين

(١) ينظر المرجع السابق، ص ٥٠٤.

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ٨٤، ٨٥.

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٩٧/٢)، «السلوك» للمقريزي: (١، ق ٥١٢/٢).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١٩٤/٢).

دول العالم ، الذي أكسبها الغنى والمكانة السياسية والتجارية المهمة بين القرنين السابع والعاشر الهجري - الثالث عشر والخامس عشر الميلادي ، فقد سيطر المماليك على مصبات البضائع المتنقلة بين الشرق والغرب ، وعلى سواحل مصر وبلاد الشام ، وكانوا همزة الوصل بين طرفي العالم^(١) .

وكانت دولة المماليك تستغل الظروف في ذلك الوقت أفضل استغلال ، فاستفادت من قطع طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب منذ القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي بسبب حركة التتار التوسعية ، حيث نتج عنها انعدام الأمن والسلام في تلك الطرق ، ولم يبق من طرق التجارة العالمية طريقاً آمناً بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الأحمر ومصر ، مما جعل مصر تقوم بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، فأدرك المماليك بما يمكن أن تعود عليهم التجارة الخارجية من ثروة ، فاهتموا بتنشيطها وإنشاء المؤسسات اللازمة للتجارة والتجار ، كالفنادق والخانات والوكالات والأسواق وغيرها^(٢) ، وكذلك حرصوا على إقامة علاقات ودية مع قوى البحر الأحمر والتجار الأوربيين وغيرهم من المترددين إلى البلاد من جهة أخرى^(٣) ، فأصبح تجار مصر والشام وسطاء في تجارة المماليك الرائجة ، واستخدموا في ذلك رؤوس الأموال الكبيرة ، واتخذوا لهم وكلاء في عدن والخليج العربي والهند والشرق الأقصى ، ورحل بعضهم ليعيش في هذه المراكز ليباشر النشاط التجاري الهائل الذي كانت دولة مصر تحميه وتربح منه ثروة كبيرة^(٤) .

(١) ينظر: «تاريخ المماليك البحرية» ص ٣١١.

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١٠٦-٩١/٢).

(٣) ينظر: «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» ص ٣١٣ ، ٣١٤.

(٤) ينظر: «موسوعة التاريخ الإسلامي» شلبي: (٢٦٧/٥).

وكان لمرور التجارة الهندية آنذاك من مصر أثر كبير في رواج تجارة مصر في عصر المماليك وزيادة ثروتها، كما كانت مصدر رزق وفير لمصر والمصريين، وهذه الثروة الضخمة التي تدفقت على خزائن المماليك تفسر لنا حياة البذخ والترف والنعيم عند المماليك كما سنرى، وكان الناصر محمد يشجع التجارة ويروج لها داخل البلاد وخارجها، فعقد المحالفات الودية والتجارية مع إمبراطور القسطنطينية وملوك إسبانيا وأمراء جنوه وسلاجقة آسيا الصغرى، وكان من نتائج ذلك انتشار التجارة بين مصر وتلك الأقاليم.

ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار النشاط التجاري في سلطنة المماليك، ذلك الدور الكبير الذي لعبته مدن مصر والشام في ممارسة مختلف أنماط النشاط الاقتصادي، إلى جانب قوة النظام النقدي واستقراره طيلة فترة حكم سلاطين المماليك البحرية، فقد ظهرت دولة المماليك في ظل أحوال اقتصادية ساعدتها على الوصول إلى المستوى التجاري الدولي، فنشط السلاطين في إغراء تجار الشرق على جلب بضائعهم إلى موانئ مصر والشام وثورهما، وتشجيع تجار أوربة على التردد إلى الأسواق المملوكية لشراء محاصيل الشرق، حتى زادت أعداد رواد الأسواق المملوكية، ونتيجة لذلك حرصت الممالك الأوربية والمدن الإيطالية على أن تتضمن اتفاقياتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك هدف تحقيق الامتيازات الخاصة للتجار من رعاياها في الأقاليم المملوكية في مصر والشام، وبناء على ذلك اعتاد التجار الأوربيون التردد على الأسواق المملوكية لشراء حاصلات الشرق، وحصلوا على تسهيلات في كثير من الأمور حتى تضاعفت أعداد القادمين منهم إلى المدن والثغور والمملوكية^(١).

(١) ينظر: «حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية» ص ٢٥، ٢٦.

وقد نقل التجار الأوربيون وغيرهم من مصر والشام المنسوجات والأقمشة والبلسم والزمرد والزجاج وقصب السكر المُصنَّع، والتوابل والفلفل والعمود والبخور والحريير وغير ذلك من البضائع الخفيفة الحمل الغالية الثمن، و جلبوا معهم إلى مصر والشام المواد التالية: الخشب والمعادن، والحديد، والبارود، والرقيق، وبعض المنسوجات الكتانية الأوربية مثل الجوخ البندقي.

وقد انتعشت التجارة الداخلية أيضاً، وتدل المصادر على كثرة الأسواق المنتشرة في البلاد المصرية في ذلك العصر، التي ضجت بالناس وازدحمت فيها البضائع، وهذا يعطينا صورة واضحة عن النشاط اليومي لدى المصريين، وبعض النشاطات التي كانوا يمارسونها أو الأعمال التي يمتنونها، وقد انتشرت هذه الأسواق في جميع المدن المصرية، واستفاض المقريري في استعراضها وتبيين وظائفها ومحتوياتها^(١)، فكان لكل مدينة أسواقها الخاصة بها، فيقول العمري في أثناء حديثه عن قلعة الجبل: «الأسواق في جهاتها»^(٢)، ويشير إبراهيم بن محمد بن دقماق إلى الأسواق العامرة والمزدهرة في إخميم الواقعة في مدن الوجه القبلي، ومثلها مدينة أسنا، وبطبيعة الحال القاهرة التي انتشرت فيها معظم الأسواق.

ويشهد على كل ذلك الرحالة محمد بن عبد الله بن بطوطة الذي زار الديار المصرية ووصف لنا ما شاهد فيها، فقال: «والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد»، وهذه الشهادة من شاهد عيان معاصر تؤكد أكثر فأكثر الانتشار الواسع للأسواق في جميع أرجاء الديار المصرية.

(١) ينظر: «الخطط» للمقريري: (١٠٦-٩٤/٢).

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ٤٣.

وإذا ما تعمقنا أكثر في المصادر فإننا نجد أن الأسواق المصرية آنذاك شهدت نوعاً من التخصص في النوعية، فنجد مثلاً سوق الحلويين، وتخصص في بيع أنواع الحلويات، وسوق الدجاجيين، وتخصص في بيع أنواع الطيور من دجاج وإوز وأنواع العصافير والبيغاوات والشحارير، وسوق باب الفتوح الذي كان يقصده الناس من جميع الأقطار لشراء أنواع اللحوم من الضأن والبقر والماعز ولشراء أصناف الخضروات، وسوق الشماعين، وتخصص في بيع الشموع، وسوق الجوخيين، وخصص لبيع الجوخ والمقاعد والستائر، وسوق الخلعيين، وبيعت فيه الألبسة، وسوق الصنادقيين، وبيعت فيه الصناديق والخُزن والأسرة، وسوق الكُتبيين المخصص لبيع الكتب^(١)، وغير ذلك من الأسواق المنتشرة في كل بقاع مصر والدالة على انتعاش التجارة الداخلية.

وقد ضبطت هذه الأعمال في الأسواق المحتسبون الذين تولوا الإشراف عليها، وراقبوا الباعة والتجار لمنع الغش في كل أصناف السوق^(٢).

المطلب الرابع: موارد ونفقات الدولة

أنشأ في مصر في عصر المماليك ديوان النظر - سبق الحديث عنه - فكان من مهماته تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها، وذلك بصيانة المال وحفظه والتصرف فيه حسبما تقتضيه مصلحة البلاد العامة^(٣).

وقد تعددت طرائق جمع المماليك للمال من موارد شرعية وغير شرعية على حد تعبير القلقشندي^(٤)، وجهات الموارد الشرعية هي: الخراج أو

(١) ينظر المصدر السابق: (١٠٢/٢).

(٢) ينظر: «معالم القرية في أحكام الحسبة» ص ١١٣-١٤٠.

(٣) ينظر: «تاريخ المماليك البحرية» ص ٣١١.

(٤) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١٠٣/٢).

ضريبة الأرض، والمعادن الثمينة، والجوالي أي الجزية المقررة على أهل الذمة، والتركات التي لا وارث لها وتسمى بالمواريث الحشرية، والزكاة^(١)، التي يبدو أنها كانت تشكل دخلاً كبيراً للدولة، ولا سيما عندما اتسعت رقعتها وكثر رعاياها وأتباعها، ومن تلك الصور التي تدل على ذلك ما رواه المقرئ في أحداث سنة ٦٦٤ هـ -

١٢٦٥ م: في جمادى الآخرة سنة ٦٦٤ هـ سار الأمير آقوش السفيري ومعه أربعون ديواناً لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب، فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التي فرضها الله^(٢).

والموارد غير الشرعية هي: المكوس وهي الرسوم الجمركية التي كانت تحصل عن البضائع الواردة إلى الإسكندرية وغيرها من الموانئ المصرية، والمكوس الأخرى التي فرضت على الملاهي والأسواق وغير ذلك^(٣).

وتتسم هذه الموارد غير الشرعية بالاضطراب؛ لأنها لا تخضع لقاعدة محددة، بل كانت تخضع للأوضاع الاقتصادية والسياسية للسلطنة وجشع بعض السلاطين ورغبتهم في تقدير كميتها وكيفية جمعها، ويمكن تقسيمها إلى مكوس دائمة تجمعها السلطنة في كل عام، ومكوس مؤقتة تجمعها السلطنة في ظروف معينة^(٤).

ويضاف إلى موارد الدولة تلك الأرباح والعائدات التجارية الهائلة التي كانت تحصلها الدولة من التجارة الداخلية والخارجية، وتلك المصادرات

(١) ينظر: «صبح الأعشى»: (٣/٥١٩-٥٣٣).

(٢) ينظر: «السلوك» للمقرئ: (١، ق ٢/٥٤٤).

(٣) ينظر: «صبح الأعشى» للقلشندي: (٣/٥٣٦-٥٣٩).

(٤) ينظر: «الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي» ص ٣٠٩، ٣١٠.

التي وقعت على عاتق أثرياء التجار كما سيأتي في بحث الحياة الاجتماعية، وكل ذلك جعل الدولة على جانب كبير من الثراء.

وكانت الأموال التي تجمع من تلك الموارد تصرف في وجوه عدة؛ منها: أرزاق الموظفين والولاة والوزراء والقضاة ونظار الدواوين والكتّاب والجنود ونواب الأقاليم، ومنها العطايا والمنح التي توزع على الأدباء والعلماء، وينفق منها على ما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح، من إصلاح للأنهار وحفر للترع لتحسين الزراعة، وبناء المساجد والمدارس والقصور والقلاع، والنفقة على المسجونين والأسرى.

وكان من أثر هذه الثروة أن وجه المماليك عنايتهم إلى الجيش، فعملوا على تدريبه وتزويده بالمعدات الحربية على اختلافها، وعنوا عناية خاصة بصناعة السفن الحربية، بالإضافة إلى الأموال التي كانت تصرف في بلاط السلاطين والاحتفالات وفي شراء الخيول وغير ذلك.

وهكذا كان هذا الازدهار الاقتصادي سبباً في امتلاك المماليك ثروات ضخمة، وهذا ما تفسره التراكات الهائلة التي خلفوها، و الروايات حول ذلك كثيرة، فقد استفاض المؤرخون في وصفها، فأخبروا عن امتلاك الأمير سيف الدين سلار (ت ٧١٠هـ - ١٣١٠م) للقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، واللائي والجواهر، ومن ذلك (١٩) رطل زمرد، ورطلان ياقوت، وستة صناديق فيها الجواهر والألماس، و(١١٥٠) حبة ذهب، و(١٥٠٠٠) دينار ذهب، وغير ذلك كثير^(١).

والأمير سيف الدين بكتمر الساقى (ت ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م): خلف من

(١) ينظر: «فوات الوفيات» للكتبي: (٢/٨٧، ٨٨)، «بدائع الزهور» ابن إياس: (١/٤٣٧).

الأموال والجواهر والأصناف والأمتعة والقماش ما يزيد على الحد»^(١) ويستحي العاقل من ذكره»^(٢).

ووجد عند الأمير سيف تنكز (ت ٧٤٠هـ - ١٣٣٩م) من الذهب والقماش ما لا يسمع مثله»، ومن ذلك (٣٦٠٠٠٠) دينار ذهب، ومن الفضة ألف ألف، وخمسمئة ألف درهم، وثلاثة صناديق من الياقوت واللؤلؤ والمعادن، وغير ذلك من الأموال والألبسة والمعادن^(٣).

أما الشعب فإنه عانى في كثير من الأوقات من الجوع والفقر وضمك العيش، وواجه الأزمات والأوبئة وحيداً، وتعرض للظلم والتسلط في كثير من الأحيان، وعلى الرغم من غنى فئة التجار، إلا أنها هي الأخرى تعرضت للنهب والمصادرة، كما سنرى في بحث الحياة الاجتماعية.



(١) ينظر: «الوافي بالوفيات»: (١٠/١٩٤).

(٢) ينظر: «أعيان العصر»: (١/٧١٠).

(٣) ينظر: «البدائع» لابن إياس، (١/٤٧٨)، وانظر حديثاً مفصلاً عن ثروة تنكز الهائلة في «النجوم الزاهرة»: (٩/١١٧-١٢٢).



المبحث الرابع: الحالة الاجتماعية:

المطلب الأول: الفئات الاجتماعية

المطلب الثاني: الأمراض الاجتماعية

المطلب الثالث: صور من المظالم

المطلب الرابع: المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية

المطلب الخامس: المرأة

المطلب السادس: أحوال أهل الذمة



المبحث الرابع

الحالة الاجتماعية

المطلب الأول: الفئات الاجتماعية

تألف المجتمع في عصر دولة المماليك من عدة فئات تميّز بعضها من بعض، حيث كان الفارق كبيراً بين الحكام والمحكومين، ولاسيما إذا كان الحكام غرباء عن هذه البلاد، ولم تربطهم بهم رابطة الدم أو الأصل أو الجنس، وهذا ما جعل المماليك لا يشعرون بروح التجاوب مع الأهالي والعمل من أجل مصالحهم، بل ظلوا طبقة منفصلة عن السكان، فلم يتزوجوا منهم، بل اختاروا زوجاتهم وجواريتهم من بنات جنسهم المجلوبين من قبل التجار^(١).

وتباينت الآراء بين المؤرخين والباحثين في تصنيف الفئات الاجتماعية، فكان لكل تفسيره الخاص وأسبابه التي تقف وراء ذلك، فابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٩م) قسّم المجتمع إلى خمس فئات على أساس الوظائف الإدارية التي كان يتولاها أصحاب تلك الفئات، وتتألف الفئة الأولى من كبار موظفي الدولة وسماهم (ذوي السيوف)؛ أي المماليك أنفسهم وهم الفئة الأساسية في المجتمع، وكان هؤلاء يتولون الوظائف الكبرى والمهمة في الدولة، كالولاية ونقابة الجيوش وإمرة سلاح والداوادية والحجوية.

وتألفت الفئة الثانية من (ذوي الأقلام)؛ وهم أصحاب الوظائف الكبيرة في الدولة أيضاً، كالوزارة، وكتابة السر، ونظر الجيش، ونظر الأموال،

(١) ينظر: «تاريخ المماليك» زيتون، ص ١٣٩، ١٤٠، «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» ص ٣٥٣.

ونظر الخزانة. وتألّفت الفئة الثالثة من (ذوي العلم)؛ أي العلماء الذين اختصوا بوظائف القضاء، والخطابة، والحسبة، ووكالة بيت المال. وأما الفئة الرابعة فإنه مؤلفه من التجار، والخامسة من عامة الناس^(١).

وسيتبين لنا لاحقاً أن العلماء كان يتميزون بمميزات خاصة، وأن أحوال فئة التجار كانت تتراوح بين الحين والآخر، وبينما عانت فئة العامة من عمال وصناع وباعة وغيرهم من الظلم والضيق والعسر.

وجعل المقرئزي المجتمع في ذلك العصر سبع فئات، ويظهر في ذلك تأثيره الشديد بما أصاب البلاد وقتذاك من انهيار إداري واقتصادي، وبيّن أسباب ذلك فيما يلي:

١- انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف.

٢- ارتفاع أسعار وإيجار الأراضي الزراعية.

٣- اضطراب النقد ورواج الفلوس^(٢).

وهذه الفئات السبع هي:

١- أهل الدولة.

٢- مياسير التجار، وأولو النعم والترف.

٣- أصحاب الحالة المتوسطة من التجار وغيرهم.

٤- أصحاب الفلاحة والحرث.

٥- الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحلقة.

(١) ينظر: «المسالك» ص ١١٤.

(٢) ينظر: «إغاثة الأمة بكشف الغمة» للمقرئزي، ص ٣٨-٤١.

٦- أصحاب الصنائع وأرباب المهن ومعهم الأجراء وغيرهم.

٧- أهل الخصاصة والمسكنة الذين لا يملكون شيئاً.

ونجد أحياناً أن بعض الباحثين قد دمج بين هذه الفئات واختصرها، كما فعل (إيرامرافين لا بيدوس) عندما جعل المجتمع فئتين وجعل بينهما فئة أخرى، فالفئة الأولى عنده هي فئة الخاصة، وتشمل نخبة المماليك من السلطان وحاشيته والأمرء وذوي المراتب العالية والموظفين، والفئة الثانية هي فئة العامة، وتتألف من الموظفين والجنود الذين لم يكن لهم إلا أهمية ثانوية في جهاز الدولة، بالإضافة إلى الجماهير المحكومة من العمال والمزارعين، والفئة التي بين هاتين الفئتين هي فئة الأعيان، وتشمل الزعماء الأكثر بروزاً من الذين يتزعمون جماعات وفئات من الشعب، فيصبح لدينا وفقاً لذلك التصنيفات التالية: أعيان المماليك، وأعيان العلماء، وأعيان التجار، وأعيان الناس أي العلماء القيايين والزعماء الدينيين والأساتذة والمعلمين والقضاة والشيوخ والوعاظ^(١).

ويشير الدكتور إبراهيم زعرور إلى أن المجتمع في العصر المملوكي لم يعرف إلا فئة اجتماعية واحدة، وهي ما أطلق عليه اسم العامة^(٢)، ويبرهن على ذلك بأن الخاصة لم تكن قط طائفة اجتماعية، لأن النظام المملوكي كان مؤسسة عسكرية حاكمة، وعلى جنودها حماية البلاد.

وبذلك يكون الدكتور زعرور قد جعل من انفصال الحكام عن المحكومين، ومن عيش المماليك غرباء عن الشعب الذي حكموه دليلاً على

(١) ينظر: «مدن الشام في العصر المملوكي» لا بيدوس، ص ١٣٤، ١٣٥.

(٢) ينظر: «الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي» ص ٩٧.

أن هؤلاء لا ينتمون إلى هذا المجتمع ولا بأي شكل من الأشكال كونهم لم يهتموا لحاجاته، ولم ينتبهوا لهمومه.

أما الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فإنه خلص إلى تقسيم المجتمع إلى فئات ثمان، وهي: المماليك، والمعممون، والتجار، وطوائف السكان، وأرباب المهن في المدن، وأهل الذمة، والفلاحون، والأعراب، والأقليات الأجنبية^(١).

وشاع في ذلك العصر أيضاً ما عُرف بالفتيان أو الفتوة، وهم الحرفيون والصنّاع والباعة والسوقة والمعدّمون وأشباه المعدّمين والعاطلون، وهي الفئات التي شكلت عصب الحركات الشعبية في مصر المملوكية والعثمانية، ولم يؤثر أن يسمى أصحاب الحركات الشعبية في مصر بالأحداث أو الفتيان أو الصبيان، وإنما تزعمها من أطلق عليهم المؤرخون اسم (الحرافيش والزعار) والعياق الذين ازدهر نشاطهم منذ أواخر العصر الأيوبي، وإبان العصر المملوكي والعثماني، وقد وُصف هؤلاء بأنهم من الرعاع أو الأوباش أو الغوغاء أو الحثالة أو السفلة أو الدهماء، وأنهم ليسوا إلا متلصصة أو نهابة أو حرامية أو أهل الفساد إلى غير ذلك من أسماء ونعوت وصفات^(٢).

ووجد في ذلك العصر فئة كبيرة من الأقليات الأجنبية من المسيحيين الغربيين، والمسيحيين الوافدين من جورجيا والحبشة وأرمينيا، واختار هؤلاء الأقليات الإقامة في المدن التجارية والثغور كالإسكندرية ودمياط، وكان لكل جالية منهم قنصل يشرف على شؤونهم ومصالحهم^(٣).

(١) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» ص ١٦.

(٢) ينظر: «حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي» ص ١٧٩.

(٣) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» ص ٦٣-٦٦.

المطلب الثاني: الأمراض الاجتماعية

ابتلي المجتمع المصري في عصر المماليك بأمراض اجتماعية انتشرت بين مختلف فئاته، منها الرشوة التي عمت بين الحكام والمحكومين، يقول المقريري: فلما كانت سلطنة العادل كتبغا... وجارت حاشية السلطان ومماليكه على الناس وطمعوا في أخذ الأموال والبراطيل والحمايات^(١).

ويروي أيضاً أنه في سنة ٧٤٩هـ-١٣٤٨م قصد عدة من أطراف الناس باب الوزير للسعي في الوظائف بمال، فلم يرد أحداً وكثر طعن الأمراء فيه بسبب ذلك^(٢).

ويروي أن الأمير أرغون العلائي بعث رجلاً إلى أحد الموظفين ومعه حيّاصة^(٣) من ذهب وأمره أن يقول عنه: أنت ما بقيت تعطي شيئاً إلا ببرطيل، وهذه الحيّاصة برطيلك، خذها واقض شغل هذا الرجل^(٤).

وهكذا فإن الوظائف لم تكن تُطال في كثير من الأحوال إلا ببرطيل (الرشوة)، وانتشر ذلك بين أصحاب المناصب أنفسهم كما مر في قصة أرغون، ويؤكد ذلك ما رواه الصفدي أنه كان في أيام قراسنقر بحلب مستوفٍ على الأوقاف يهودي، فضايق الفقهاء وأهل الأوقاف وشدد عليهم، فشكوه إلى قراسنقر فعزله، ثم إن اليهودي سعى وبرطل، ثم تولى وعاملهم أشد من المرة الأولى^(٥).

(١) ينظر: «إغاثة الأمة» ص ٦١.

(٢) ينظر: «السلوك» للمقريري: (٢، ق ٣/٧٦٩).

(٣) الحيّاصة هي السير أو الحزام، ينظر: «لسان العرب» لابن منظور: (٧/٢٠)، مادة (حيص).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقريري: (٢، ق ٣/٦٦٣).

(٥) ينظر: «الوافي بالوفيات»: (٧/١٢٥).

وقد استغل بعض أبناء العلماء المشهورين شيوع هذا المرض الاجتماعي، واستغلوا في الوقت نفسه مناصب آبائهم ومكانتهم الرفيعة في المجتمع ليتعاملوا كغيرهم بالرشوة، فهذا علي بن محمد بن وهب بن مطيع القشيري، ابن العلامة تقي الدين بن دقيق العيد كان يُعاب عليه أخذ المال ممن يسعى في الوظائف عند أبيه^(١). وتسبب ابن العلامة محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني (ت ٧٣٩هـ - ١٣٣٨م) بعزله عن قضاء القاهرة لإسرافه بأخذ الرشوة من القضاة ونحوهم وشرهه بالمال^(٢).

وأمام شيوع هذا المرض كان لا بد أن تتخذ الدولة إجراءات تحد من انتشاره، كما حدث في سنة ٧١٢هـ - ١٣١٢م عندما أصدر السلطان كتاباً أن لا يُولى أحد بمال ولا رشوة، فإن ذلك يفضي إلى ولاية من لا يستحق الولاية، وإلى ولاية غير الأهل^(٣).

وانتشر في مجتمع مصر في ذلك العصر تعاطي الخمرة والحشيشة (المخدرات)، وتدل كثرة المراسيم السلطانية الصادرة والقاضية بإبطالها على حجم انتشارها، ويبدو أن الاختلاط بالأعاجم الفرنج وغيرهم كان سبباً في ذلك.

ومن تلك المراسيم ما أصدره الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ - ١٢٦٨م، ورسم فيه بإقامة الخمر وإزالتها في كل البلاد^(٤)، ثم أصدر بيبرس مرسوماً آخر سنة ٦٦٩هـ - ١٢٧٠م، أمر فيه بإقامة الخمر من سائر بلاده، وتهدد من

(١) ينظر: «الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: (٣/١٨٧، ١٨٨).

(٢) ينظر: «السلوك» للمقرئبي: (٢، ق ٤٣٩).

(٣) ينظر: «البدية والنهاية» لابن كثير الدمشقي: (١٤/٥٣).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقرئبي: (١، ق ٥٧٨)، «البدية والنهاية»: (١٣/٢٦٣).

يعصرها أو يعتصرها بالقتل»، وفي سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م، أمر بإبطال الخمر في سواحل البلاد وإراقتها^(١).

ولم تقف ملاحقة متعاطي الخمر عند إصدار المراسيم، بل لاحقتهم أيضاً حملات التفتيش، ففي أحداث سنة ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م أمر نائب السلطنة بكبس بساتين أهل الذمة، فوجد فيها من الخمر المعتصر ومن الخوابي والحباب فأريقت عن آخرها»، وفي سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م قبض على أمراء كانوا سكارى في أحد البيوت، فقيّدوا وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية^(٢).

وكذلك صدرت المراسيم بحق متعاطي الحشيشة، ففي سنة ٦٦٥هـ - ١٢٦٦م، أمر السلطان الظاهر بيبرس بإبطال ضمان الحشيش وإحراقها»، وفي سنة ٧٢٤هـ - ١٣٢٣م، أريقت الخمر وأُحرقت الحشيشة.

وذكر إسماعيل بن كثير عن إحدى الجماعات التي كانت تتعاطى الحشيشة: وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها كما أفتى بذلك الفقهاء».

وهناك بعض الأشعار الشعبية التي تشير إلى استحكام الحشيشة في نفوس بعض الجماعات، وتعرض على تحريمها، يقول أحدهم:

يا أهيل العقول والأفهام في خمار الحشيش معنى مرامي
وحرام تحريم غير الحرام حرّموها من غير عقل ونقل

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢، ق ١/٥٢).

(٢) ينظر: «بدائع الزهور»: (١، ق ٢/٢٠٢).

ويقول آخر في الرد على ذلك، وفي ذم الحشيشة:

لكنه غير مصروف إلى رشده ما للحشيشة فضل عند أكلها
 حمراء في عينه سوداء في كبده صفراء في وجهه خضراء في فمه
 ولم تكن الرشوة والخمرة والحشيشة الأمراض الاجتماعية الوحيدة
 المنتشرة، بل انتشر بين فئات مجتمع ذلك العصر أمراض أخرى كثيرة،
 كالزنا، والشذوذ الجنسي، والسحر والتنجيم، والمعتقدات الباطلة مثل
 الاعتقاد بقدرة المشايخ والأولياء، والتطيّر والتشاؤم، والحسد والتعاويد،
 وأيام السعد والنحس^(١).

المطلب الثالث: صور من المظالم

تعرض العوام في عصر المماليك لصور شتى من أعمال الظلم والتعسف
 والجور، فسُخروا في الأعمال تسخييراً، وتعرضت أموالهم وأملاكهم في كثير
 من الأوقات للمصادرة، وكانوا - وهم وحدهم - يدفعون ثمن ارتفاع
 الأسعار، ومواجهة المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية.

وعندما كنت أقرأ عن تلك المظالم عامة، وعن أعمال تسخير المصريين
 خاصة، استذكرت إنجازات مصر القديمة والعظيمة، التي أنجزت بيد أبناء
 مصر ونُسب العمل إلى غيرهم، فالفراعنة سخروا المصريين في بناء
 الأهرامات، وكذلك فعل الإنكليز والفرنسيون عند شق قناة السويس، ومات
 المئات من العمال المصريين في هذين المشروعين تحت وطأة ظروف العمل
 القاسية، ولو انتقلنا إلى عصر المماليك فسنجد أعمالاً عديدة مشابهة لتلك،
 فمن يذهب الآن إلى مصر يشاهد تلك المدارس والمساجد الضخمة
 والفخمة، ومعظمها بُني بتسخير العوام كما سنرى.

(١) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» ص ٢٤٧-٢٦٩.

يقول المقريري في أحداث سنة ٧٣٨هـ - ١٣٣٧م: وفيها كثر تسخير الناس للعمل في عمائر السلطان بالقلعة، وقُبض عليهم وهم نيام، ومن أبواب الجوامع عند خروجهم من صلاة الصبح، فابتُلِي الناس من ذلك ببلاء عظيم، وكثرة الغائة (الاستغاثة)»^(١).

وفرضت أعمال التسخير هذه لصالح مختلف المشاريع، كبناء المدارس، والجسور، وإقامة المشاريع الخاصة بالسلطان، ونحو ذلك، فعند عمارة المدرسة الأقبغوية مثلاً بُلي الناس في عمارتها ببلايا كثيرة؛ منها أن الصنّاع كان قد قرر عليهم أقبغا أن يعملوا بهذه المدرسة يوماً في الأسبوع بغير أجر، فكانوا يتناوبون في العمل سخرة، ومنها أنه حمل لها الأصناف من الناس ومن العمائر السلطانية، فكانت ما بين غصب وسرقة، ومع ذلك فإنه ما نزلها قط إلا وضرب فيها من الصنّاع عدة ضرباً مؤلماً، فيصير ذلك الضرب زيادة على شدة عسف مملوكه الذي أقامه شاد لها»^(٢).

ومن المؤكد أن هذا الأمر لا ينطبق على جميع الأمراء والسلاطين؛ فالظاهر بيبرس مثلاً عندما أمر ببناء مدرسته الظاهرية، طلب أن لا يُستعمل فيها أحد بغير أجر، ولا يُنقص من أجرته شيئاً، ولم يكتف بذلك بل زاد على ذلك أنه عند الانتهاء من بنائها جمع الجميع ومدت لهم الأطعمة ثم وُزعت الخلع»^(٣).

واستُخدم الناس سُخرة أيضاً في بناء الجسور، ففي سنة ٧١٦هـ - ١٣١٦م، انقطع جسر من الجسور فنقص ماء النيل في تلك المنطقة، فجمع

(١) ينظر: «الخطط» للمقريري: (٢، ٢/٤٤٧).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريري: (٢/٣٨٤)، «النجوم الزاهرة»: (٩/١١١).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريري: (٢/٣٧٩).

لإصلاح هذا الجسر خلق كثير غرق منهم نحو ثلاثين رجلاً في ساعة واحدة، انطبق عليهم الجسر، ثم جُمع من مصر رجال كثير، وكُتفوا وأنزلوا في مركب وعدتهم سبعون رجلاً، فانقلبت بهم المركب فغرقوا بأجمعهم»^(١).

ومن الأمثلة على التسخير في أعمال السلطان ومشاريعه الخاصة، ما حدث سنة ٧٣٨هـ - ١٣٣٧م، عندما جلب السلطان الناصر محمد بن قلاوون من الصعيد ألفي رأس من الضأن، وجلب من الوجه البحري مثلها، وشرع في بناء حوش لها وللأبقار التي عنده، فوقع اختياره على موقع في قلعة الجبل، وجعل لكل أمير مئة رجل ومئة دابة لنقل التراب، ورسم لوالي القاهرة بتسخير العامة... وكان الوقت صيفاً حاراً، فهلك الكثير منهم في العمل لعجزهم عما كلفوه، ومع ذلك كله والولاية تُسخر من تظفر به من العامة وتسوقه إلى العمل، فينزل به من البلاء ما لا قبل له به، ولا عهد له بمثله، وكان أحدهم إذا عجز وألقى بنفسه إلى الأرض رمى أصحابه عليه التراب فمات لوقته، هذا والسلطان يحضر كل يوم حتى يرى العمل... وكان الأمير الطنبغا المارديني... فاستغاث به الناس وسألوه أن يخلصهم من هذا العمل، فتوسط لهم عند السلطان حتى أعفى السلطان الناس من السخر، وأفرج عمن قبض عليهم منهم، فأقام العمل ستة وثلاثين يوماً إلى أن فرغ منه، وأجريت إليه المياه، وأقيمت به الأغنام المذكورة والأبقار»^(٢).

فهذه صور من أعمال التسخير التي عانى الناس جراءها شتى ألوان العذاب والبلاء، ولم يكن التسخير وحده ما عانى منه الشعب آنذاك، فمن صور المظالم أيضاً تلك المصادرات التي تمثلت بالحصول على أموال

(١) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (٢، ق/١٦٥).

(٢) ينظر: «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي: (٩٤/٩، ٩٥).

التجار أو الأثرياء أو الاستفادة منها قدر الإمكان، وتكليف هؤلاء بالإنفاق على المشاريع أو شراء صفقات تجارية معينة لصالح الدولة، واستغلال المماليك بذلك صلاحياتهم بوصفهم حكاماً ومسؤولين، وكان ذلك عاملاً من عوامل ثراء الخزانة السلطانية.

ومن أوضح الصور عن تلك المصادرات وأبعثها حادثة سنة ٧٣٧هـ - ١٣٣٦م، عندما اشتكى المماليك للسلطان أمر كسوتهم، فطلب السلطان من موظفيه مصادرة بضائع التجار ولاسيما الألبسة، فنزل موظفوه باكر النهار والناس في بيوتهم، ففتحوا سائر الدكاكين وأخذوا كسوة المماليك، وعرجوا على بقية الدكاكين وصادروها فانقلبت المدينة بأجمعها وقامت على ساق، وتجار كثر تركوا دكاكينهم مغلقة، فما أصبح أحد ووجد دكانه إلا وأقفالها على الأرض، ونهبت الرسل وحفدة الظلمة شيء كثير ولم يبق إلا باك أو شاك، أو صائح أو نائح، كل واحد على قدر مصيبتة»^(١).

وفي سنة ٦٨٦هـ - ١٢٨٧م، بُدئ باستدعاء تجار دمشق الأثرياء واحداً بعد واحد لمصادرة أملاكهم^(٢)، ومن المصائب والبلايا التي صُبت على التجار والأثرياء تكليفهم بشراء صفقات تجارية لصالح الدولة، ففي سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢م، كُتبت أسماء أرباب الأموال من التجار ثم طرح عليهم قماش جُلب من الإسكندرية بثلاثة أمثال قيمته، وعوقب من عارض شراءه، ثم حمل إلى السلطان من ذلك أموال عظيمة^(٣)، وفي العام نفسه طُلب تجار القاهرة ومصر الفسطاط وطرحت عليهم أصناف من الخشب والجوخ والقماش بثلاثة أمثال قيمتها.

(١) ينظر: «نزهة الناظر» لليوسفي، ص ٣٥٦-٣٥٨.

(٢) ينظر: «السلوك» للمقرئزي: (٢، ق ٣٥٨، ٣٧٠، ٤١٢).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢، ق ٣٦١).

وكان التجار أيضاً يكلفون بمظاهر التزيين في الاحتفالات والمناسبات، فزاد ذلك عليهم عبئاً إلى أعبائهم السابقة، ففي سنة ٧٣١هـ - ١٣٣٠م، وبمناسبة تأمير أحمد بن السلطان الناصر محمد، ألزم والي القاهرة جميع أرباب الحوانيت بالقاهرة أن يوقدوا الشموع والقناديل، ويزينوا القاهرة، فزينوا الأسواق وأشعلوا الشموع والقناديل، وجلس أرباب الملهى في عدة أماكن يضربون بالآتهم فرحاً بتأمير أحمد بن السلطان».

ووجد من أمراء المماليك من كان يتقرب إلى سلطانه بتحصيل أموال التجار ومصادرتها، جاعلاً من ذلك وسيلة لتحقيق مآربه في الدولة، وقال أحد المؤرخين عن أحد الموظفين الذين أكثروا من المصادرات: وما قصد به التقرب لخطر السلطان وميله مع غرضه، وأن يبلغ مقاصده إذا بلغ السلطان مقصده من أخذ أموال الناس وظلم التجار ونهب الأموال من حيث وجدت^(١)، وكان الأمير الشجاعى يتقرب إلى السلطان بتحصيل الأموال^(٢)، وبلغ من انتقام الناس منه بسبب مصادراته الكثيرة لهم، أنه لما قُتل سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م، رفعوا رأسه على رمح و طيف به القاهرة ومصر، ولم يدعوا زقاقاً حتى طافوا بالرأس فيه ... ومن الناس من كان يضرب الرأس بالمداسات، ومنهم من يصفعه ويسبهه، وصاروا يقولون: هذا رأس الملعون الشجاعى، وسرّ كثير من الناس لموته، فإنه أكثر من المصادرات ونوع الظلم والعسف أنواعاً^(٣).

وفي سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م، أشاعت العامة خبر وقوع فتنة عظيمة بين

(١) ينظر: «نزهة الناظر» لليوسفي، ص ١٧٧.

(٢) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي: (٣١٩/١٣).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (١، ق ٨٠٢/٣).

الأمراء، فأقدم والي القاهرة على قتل جماعة من الناس لإرهاب العامة، وسمّهم وطيف بهم في القاهرة، ونودي عليهم هذا جزاء من يكثُر فضوله ويتكلم فيما لا يعنيه»^(١).

وعلى الرغم من أنه كان يُنادى في بعض الأحيان من كانت له ظلامة فعليه بباب الأمير^(٢) إلا أن هذه الشكوى كانت ترد على الأغلب، ويذكر المقرئ في أحداث سنة ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م أن أحد الفقراء قدم شكوى لأحد الوزراء فمزقها وطرده^(٣).

ولا تدل كل هذه المظالم على انعدام حرية التعبير في ذلك العصر، وإلا لما وصلتنا هذه المادة التاريخية الواصفة لذلك، حيث حطّ المؤرخون كتاباتهم فوصلتنا هذه المادة العلمية والأدبية الثمينة التي تصف ما كان يجري، وهذا واضح كما سيأتي في كتاب تاج الدين السبكي معيد النعم ومبيد النقم، وفيه ينقد عصره نقداً لاذعاً، وكتاب ابن الحاج المدخل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن هذه الممارسات التعسفية لم تكن من نصيب الشعب وحده، بل تعرضت لها كذلك الفئة العسكرية المملوكية الحاكمة، وقصص الصراع على السلطة وعلى الثروة تشهد على ذلك.

المطلب الرابع: المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادية

عصفت بمجتمع دولة المماليك البحرية عدة مجاعات وأوبئة وأزمات كادت - إن لم أبالغ - أن تقضي عليه وأن تفنيه عن آخره، وعند استعراض

(١) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣، ق ٣٠٧/١)، «البدائع» لابن إياس: (١، ق ٢٠٣/٢).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣، ق ٣٠٧/١).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣، ق ١٤٨/١).

هذه الكوارث سلاحظ مدى فداحة خطرها وعظم هولها.

وتشير المصادر إلى أول مجاعة ألفت بمصر في عصر دولة المماليك البحرية سنة ٦٦٢هـ - ١٢٦٣م تسبب بها قصور النيل، فاختلفت المواد الغذائية من الأسواق وحدثت المجاعة، ودامت إلى أن تمت السيطرة عليها.

وفي سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م، وعام ٦٩٥هـ - ١٢٩٥م حدثت مجاعة خطيرة سببها أيضاً هبوط ماء النيل، فوصل الأمر من شدتها وفداحتها إلى أن أكل الناس القلط والكلاب والحمير والبغال، حتى أن الكلب السمين صار يباع بخمسة دراهم والقط بثلاثة دراهم على ما ذكر ابن إياس^(١).

وفي سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٩م حدث الوباء العظيم؛ وسمته المصادر بالفناء الكبير، وسمي بطاعون الأنساب، لأنه قلما مات به شخص إلا وتبعه أحد من أولاده أو أقربائه وذوي رحمه، وكان الشخص إذا تفل الدم كان ذلك إيذاناً بموته، فيودع أصحابه ويغلق حانوته ويحفر قبره ويعد كفنه ويهيئ تابوته حتى يموت، وتوفي في يوم واحد بهذا الطاعون بالديار المصرية نحو عشرة آلاف شخص، وبلغ عدد الموتى في حلب نحو مئة شخص في اليوم، وفي دمشق أكثر من ألف شخص في اليوم، واستمر هذا الطاعون قرابة العام، وأفنى ثلثي الناس تقريباً^(٢). ولم يشمل مصر وبلاد الشام فقط، بل عمّ أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولم يقتصر على جنس بني آدم بل تعدى ذلك إلى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر^(٣).

(١) ينظر: «البدائع» لابن إياس، (١/٣٨٩-٣٩١)، «التحفة الملوكية» ص ١٤٤، ١٤٥، «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنه»: (١/١٨٤).

(٢) ينظر: «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي، ص ٢١٠-٢١٣.

(٣) ينظر: «السلوك» للمقرئزي: (٢، ق ٧٧٣).

وكان الغلاء من أخطر الأزمات الاقتصادية التي اجتاحت مجتمع ذلك العصر، وكان له أسباب عديدة، يأتي في مقدمتها المجاعات والأوبئة المتقدمة الذكر، والتي تسببت بارتفاع الأسعار، وشح ماء السماء، ثم هبوط منسوب نهر النيل الشريان الأساسي في البلاد، فترتفع الأسعار، ويضاف إلى هذه الأسباب تزييف الناس للفلوس من جهة، وسياسة الدولة الاقتصادية السلبية من جهة ثانية.

ففي سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م، استسقى الناس بدمشق لتوقف نزول الغيث فخرجوا مشاةً، وتزايد الغلاء بديار مصر، وقصر مد النيل^(١)، ووقع الغلاء أيضاً في عهد الأشرف شعبان، و تسبب به قصور النيل في سنة ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م، فانحط الماء وارتفع السعر فبلغ ثمن كل إردب من القمح مائة وخمسين درهماً، وعزّت الأقوات وقلّ وجودها، فمات الكثير من الناس من الجوع حتى امتلأت بهم الطرقات^(٢).

ومن أسباب حدوث الغلاء تزييف النقد، و نتج عنه إغلاق الأسواق و تردّي أحوال الناس، ففي عهد سلطنة العادل كتبغا تعطلت أعمال الناس لخفة الفلوس المزيفة، فنودي في سنة ٦٩٥هـ - ١٢٩٥م، أن توزن بالميزان، وفي سنة ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م توقف حال الناس بسبب الفلوس وما كثر فيها من الزغل، وكانت المعاملة فيها عدداً عن كل درهم فضة عدة ثمانية وأربعين فلساً من ضرب السلطان، فعملها الزغيلة وخففوا وزنها حتى صار الفلوس زنته سدس درهم... وزادت الأسعار كلها حتى غلقت الباعة الحوانيت، عندها نودي أن تكون الفلوس بالميزان^(٣).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١، ق ٨٠٨/٣، ٨٠٩).

(٢) ينظر: «إغاثة الأمة» للمقريزي، ص ٣٤.

(٣) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (٢، ق ٢٠٥/١، ٢٠٦).

وفي سنة ٧٢٤هـ - ١٣٢٣م نودي على الفلوس أن يتعامل الناس بها بالرطل، على أن كل رطل منها بدرهمين، ومن عنده شيء يحضره إلى دار الضرب، ويأخذ عنها فضة، ورُسم بضرب فلوس زنة الفلوس منها درهم وثمان، فُضرب منها نحو مائتي ألف درهم، فُقرت على الصيارفة، وكان سبب ذلك كثرة ما دخل في الفلوس من الزغل، حتى صار وزن الفلوس نصف درهم، فتوقف الناس عن أخذ الفلوس وكثر ردها، إلى أن فسد الحال وغلقت الحوانيت، وارتفعت الأسعار.

وإذا بحثنا عن حكام المماليك في هذه الأزمان فسنجد أن منهم من استغل الغلاء لصالح السلطة فيزيد بذلك الطين بلة فيزداد الغلاء غلاءً، ففي غلاء سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م المتقدم صار الوزير يشتري الغلال للمؤونة بدور السلطان... فتزايد الغلاء»، وفي غلاء حدث سنة ٧٣٦هـ - ١٣٣٦م في عهد الناصر محمد بن قلاوون وبعد أن ضج الناس واستغاثوا، جمع السلطان الأمراء وقال لهم: يا أمراء شهر عليكم وشهر عليّ، وشهر على الله، ففتح الأمراء الشون (المخازن) فباعوا كل إردب بثلاثين درهماً، ففرج عن الناس، وفتح السلطان حواصله في شعبان وباع كل إردب بخمسة وعشرين درهماً، ودخل الفول الجديد والشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء القمح الجديد وانحل السعر^(١).

ويدل هذا الخبر على أن تدخلاً بسيطاً من السلطان والأمراء كان كفيلاً بإنهاء المجاعة، أو أي غلاء يلم بالبلاد، ويظهر فيه أن السلطان والأمراء كانوا يخزنون المواد الغذائية، ولم يخرجوا ما في مخازنهم إلا بأمر من

(١) ينظر: «إغاثة الأمة» للمقريزي، ص ٣٣، ٣٤.

السلطان، أي أن الذي دفعهم لإخراجها كان أمر السلطان وليس حالة الغلاء والفقر والمجاعة التي حلت بالناس، فظهروا كمتصدقين على الشعب المسكين. ويدل الخبر دلالة واضحة على أن المتأثر الوحيد والمتضرر من أي أزمة كانت تحدث هم عامة الشعب، ثم إن ما حدث من اهتمام الناصر محمد بأمر هذا الغلاء ما هو إلا استثناء من الاستثناءات القليلة آنذاك، لما تمتع به الناصر محمد بالإجمال من حبه للشعب وحب الشعب له^(١).

ومن أسباب الغلاء أيضاً ما يتعلق بالسياسة الاقتصادية التي اعتمدها الدولة، والمرتبطة بطبيعة النظام الإقطاعي ذي الطابع العسكري، فأصحاب الإقطاعات من أمراء وجند لم يعيروا اهتماماً كبيراً لاستصلاح أراضيهم وجعلها أكثر مردوداً بسبب اضطراب توزيع هذه الإقطاعات، حيث كان يعاد توزيعها في كل سنة لسبب أو لآخر، كما أن الإجراءات التي كانت تتخذها السلطة - كطرح كميات كبيرة من البضائع على التجار أو العامة بأسعار مضاعفة، فضلاً عن المداهمات والمصادرات - أدت إلى الغلاء وارتفاع الأسعار^(٢).

ومن أسباب تزايد الغلاء أيضاً التدابير التي كانت تتخذها الدولة للحد من الغلاء؛ كتحديد سعر بيع القمح والخبز، وإلزام الأمراء والتجار بالتسعيرة السلطانية، أو ضبط محتويات مخازن القمح العائدة إليهم ومراقبة عملية تصريفها، وقلما كان هؤلاء التجار يتقيدون بالسعر المعلن، فغالباً ما كان تحديد الأسعار يؤدي إلى مزيد من الغلاء بسبب إخفاء المواد التموينية،

(١) ينظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري: (٢٦٧/٣١)، «الخطط» للمقريزي: (٣٠٦/٢).

(٢) ينظر: «نزهة الناظر» لليوسفي، ص ١٥٧، ٢٨٨، ٣٣٨، ٣٥١.

وراج ما نسميه اليوم بالسوق السوداء، مما كان يضطر السلطان إلى فتح مخازنه للتأثير في حركة الأسعار، كما يلجأ إلى الاستعانة بغلال بلاد الشام.

المطلب الخامس: المرأة

تمتعت المرأة في عصر سلاطين المماليك بمكانة جيدة وبقسط وافر من الاحترام، سواء في ذلك فئة المماليك، أم سائر فئات الشعب، فالمماليك قد نظروا إلى نساءهم نظرة تفيض بالإجلال والتقدير، كما أضفوا عليهن في مختلف مكاتباتهم عبارات الاحترام والتبجيل^(١).

وقيل في وصف دور نساء السلطان وغيرهن من المقربين ولهن أبهة عظيمة في ذاتهن، ولو أردنا وصف لبوس كل منهن وتجميل بيوتهن لاحتجنا إلى عدة مجلدات^(٢)، فضلاً عن الثروة التي كن يمتلكنها، فبنت السلطان الناصر محمد مثلاً خلفت ثروة طائلة ومن جملة ما قبضت بالجوهر قيمته أربعون ألف درهم، كما عثر عند إحدى الأميرات لما توفيت على ستمئة ألف دينار، وعند أخرى قاعة كبرى فيها مواعين من ذهب وفضة، وأسرة مفضضة، وسرير مذهب ومرصع بالجواهر، ومنارة من ذهب عليها جوهرة تضيء بالليل.

وكانت المرأة المصرية آنذاك تهتم بنفسها وزينتها، فعملت على تزيين الحواجب وحفها، واستخدمت النقش والوشم على جسمها، كما استخدمت العطر والخلخال^(٣)، إلى غير ذلك من الزينة التي يبدو أنها استخدمتها لتبرز نفسها أمام الرجال فتخرج إلى الطريق كأنها عروس... وتمشي وسط الطريق

(١) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» ص ١٤٣.

(٢) ينظر: «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لابن شاهين، ص ١٢١.

(٣) ينظر: «المدخل» لابن الحاج: (١٦٧/٢، ١٦٨)، (١٠٧/٤).

وتزاحم الرجال، ولهنّ صنعة في مشيتهن حتى أن الرجال ليرجعون إلى
الحيطان حتى يوسعوا لهن في الطريق... وغيرهم يخالطونهن ويزاحمونهن
قصداً».

وتدل الألقاب التي عُرفت بها المرأة على تلك المكانة الرفيعة التي
حازتها في عصرها، فلُقبت بست الخلق، وست الإسلام، وست الحكام،
وست القضاة، وست العلماء، وست الفقهاء، وست الناس، وست النساء،
وست الكل، وما أشبه ذلك.

وشاركت المرأة في الحياة العامة شأنها شأن الرجل، فأخذت موقعها
الصحيح في مجتمعتها، وشاركت فيه بفعالية عالية، فكانت تخرج للأسواق
لشراء مستلزماتها، حتى إنه لتجد في بعض الأيام المخصصة في بعض
الأسواق النساء أكثر من الرجال، فمن يمر بالسوق من الرجال لا يقدر على
المشي فيه إلا بمشقة لزحمة النساء.

وكانت المرأة تذهب إلى الحمامات العامة أيضاً، وكان يجتمع في
الحمام النساء المسلمات والمسيحيات واليهوديات، فكانت الواحدة منهن
تستصحب معها أفخر ثيابها وأنفس حليها لتلبسه حين فراغها من الغسل حتى
يراها غيرها فتقع بذلك المفخرة والمباهاة^(١).

ويخبرنا ابن بطوطة عن خروج النساء مع أولادهن إلى المقابر في أيام
الجمع، وفي ليلة النصف من شعبان^(٢)، على الرغم من أن فقهاء ذلك العصر
قد ذموا هذا الخروج^(٣).

(١) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢/٧٩-٨٥).

(٢) ينظر: «رحلة ابن بطوطة»: (١/٢٠٥).

(٣) ينظر: «المدخل»: (٢/١٧).

وشاركت المرأة في عصر المماليك في الحياة السياسية بشكل فعّال، وشجر الدر أكبر مثال على ذلك، فهي التي عدّها بعض المؤرخين أولى سلاطين المماليك، وقال عنها آخر: وساست الرعية أحسن سياسة»، وكانت الخطباء تخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها، وتقول بعد الدعاء للخليفة: واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، ذات الحجاب الجليل، والسر الجميل، والدة المرحوم خليل»^(١).

وعندما حدثت فتنة بين المماليك سنة ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م تدخلت أم السلطان الناصر محمد لإخمادها، فأرسلت في طلب الأمير كتبغا، وتحدثت معه من أعلى السور، وقالت: إيش آخر هذه الفتنة، إن كان قصدك خلع ابني فافعل، وأرسله في مكان تقصده»، فقال لها كتبغا: أعوذ بالله السميع العليم، والله لو بقي من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما خرّجنا الملك عنها»^(٢).

وحظيت المرأة في هذا المجال بمكانة كبيرة عند السلاطين فارتفعت مكانة كثير من رجال الدولة عندهم بسببها، فمثلاً ترقى برلغي الأشرفي التتري (ت: ٧١١هـ - ١٣١١م) في المناصب ثم تزوج بنت بيبرس فتضاعفت حرمتها»^(٣).

وكانت طغاي أم أنوك جارية اشتراها الناصر محمد بن قلاوون وتزوجها وبسببها أبطل الناصر عن مكة المكس الذي كان يؤخذ عن القمح، حتى يقال إنه لم يسمع بامرأة سلطان حجت مثل حجتها... وكانت معظمة في أيامه ومن بعده إلى أن ماتت في شوال سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م... ولم يستمر الناصر على

(١) ينظر: «البدائع» لابن إياس: (٢٨٦/١)، وانظر «السلوك» للمقريزي (١)، ق ٣٦١/٢، (٣٦٢).

(٢) ينظر: «البدائع» لابن إياس، (٣٨٢/١)، «الخطط» للمقريزي: (١)، ق ٨٠١/٣.

(٣) ينظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر: (٩/٢).

محبة غيرها من النساء مثلها، ولم تنكب قط إلى أن ماتت»^(١).

أما ألجاي بن عبد الله اليوسفي الناصري (ت: ٧٧٥هـ-١٣٧٣م) فقد عظمت حرمة في الدولة بزواجه أم السلطان»، وهي خوند بركة (ت: ٧٧٤هـ-١٣٧٢م) أم السلطان الملك الأشرف ابن حسين^(٢).

ومن ناحية ثانية تدل بعض الإشارات في ذلك العصر على ازدياد المرأة وامتدنانها في بعض الأحيان، ففي سنة ٧٤٥هـ-١٣٤٤م، قُبض على امرأة وزوجها وأولادها، وضربوا جميعاً هي وإياهم، وفي سنة ٧٥٣هـ-١٣٥٢م ضُربت امرأة بعد مصادرة أموال زوجها وضرب ابنها^(٣).

ومن ناحية ثانية كثرت أعداد الجوارى في المجتمع المصري عامة، والمجتمع القاهري خاصة في عصر سلاطين المماليك، وكان منهن مغنيات شهيرات كما سيمر في بحث العلوم التطبيقية، وكان لبعضهن أثر واضح في فنون القول المختلفة التي رددتها الألسن على مر الأيام والأعوام.

وهذه الإشارات لا تسيء إلى الحالة العامة الجيدة التي تمتعت بها المرأة كما تقدم، فضلاً عن دور المرأة الفكري المتميز الذي بوأها أفضل المراتب كما سيمر في فصل قادم.

المطلب السادس: أحوال أهل الذمة

لم تكن حال أهل الذمة واحدة في ذلك العصر، بل كانت طريقة معاملتهم متقلبة بين اللين والشدّة، وتورد مصادر ذلك العصر كثيراً من الصور

(١) ينظر المصدر السابق: (٢/٣٢٢).

(٢) ينظر: «المنهل الصافي» لابن تغري بردي: (٣/٤٢).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢، ٣/٦٦٤، ٦٩٢، ٨٧٩).

التي تؤكد هذا، ومنها تلك المراسيم التي كانت تصدر بحق هؤلاء، ومن هذه المراسيم ذلك المرسوم الذي صدر في رجب من سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م وفرض قيوداً على أهل الذمة، ومما جاء فيه: اقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يُميّز النصارى بلبس العمام الزرق، واليهود يلبسون العمام الصفرة، ولا يركبون الخيول ولا يحملون سلاحاً، ولا يرفعون أصواتهم على أصوات المسلمين، ولا يضربون النواقيس^(١). وكان أثر هذا المرسوم سلبياً في حالة الأمن العام في مصر، فقد امتدت أيدي العامة إلى كنائس اليهود والمسيحيين وهدموها^(٢).

وصدر سنة ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م، مرسوم آخر يشبه في كثير من نقاطه مرسوم سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م.

وفي سنة ٧٢١هـ - ١٣٢١م هدم العامة بعض الكنائس بمصر، ولم ينكر أمراء المماليك عليهم ذلك، بل يشير الخبر إلى حدوث تنسيق وتآمر بين العامة والمماليك على ذلك.

وذكر المقرئ خبراً عن كثرة دخول المسيحيين في الإسلام، ويرجع ذلك إلى رغبتهم في التخلص من الفقر ومعاملة العامة السيئة لهم؛ يقول في أحداث سنة ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م: وكثرت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري عن دخول النصارى في الإسلام ومواظبتهم في المساجد وحفظ القرآن حتى إن منهم من ثبتت عدالته وجلس مع اليهود... فلما عظم البلاء على النصارى وقلت أرزاقهم رأوا أن يدخلوا في الإسلام، ففشا الإسلام في

(١) ينظر: «نهاية الأرب» للنويري: (٤١٨، ٤١٧/٣١).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (١، ٩١٢/٣).

عامّة النصارى بأرض مصر، حتى إنه أسلم في مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمئة وخمسون نفرًا... وحمل كثير من الناس فعلهم هذا كله على أنه من جملة مكروهم لكثرة ما شنع العامة في أمرهم».

ومن جهة ثانية كان أهل الذمة يقومون أحياناً بأعمال سلبية تسيء إلى أحوالهم، ومن ذلك افتعال الحرائق، ففي سنة ٦٦٣هـ - ١٢٦٤م كثر الحريق بالقاهرة ومصر... وأشيع أن ذلك من النصارى، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة، ووجد في بعض المواضع التي احترقت نפט وكبريت، فأمر السلطان بجمع اليهود والنصارى، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم وأمر بإحراقهم... فلاذوا بعفوه وسألوه المن عليهم... فشفع لهم على أن يغرموا بالأموال التي أحرقت، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار، فأفرج عنهم السلطان وتولى البطريرك توزيع المال، والتزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات»^(١).

ومن ذلك أيضاً ما أوقعه سنة ٧٢١هـ - ١٣٢١م من حرائق في الجوامع والدور، وألقي القبض على الكثير منهم.

وتدل أخبارٌ أخرى على أن أهل الذمة شاركوا في نشاط المجتمع المصري وتأثروا بأحداثه، ومن الأمثلة على ذلك ما حدث سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، حين أعاد الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بمصر، فخرج في هذا الاحتفال طوائف المصريين للقاء الخليفة أبي القاسم أحمد، ومن بينهم اليهود وهم يحملون التوراة، والمسيحيون وهم يحملون الإنجيل.

وفي سنة ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م، جفت مياه النيل فارتفعت أسعار المياه،

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١، ق ٥٣٥).

ورأوا أن يبنوا جسراً على النيل، فتقرر جمع النفقات من الطوائف كافة، بما في ذلك اليهود والمسيحيين ولم يُعَفَّ أحد من ذلك^(١).

وفي سنة ٧٧٥ هـ - ١٣٧٣ م، توقفت مياه النيل عن الزيادة واختفى الخبز من الأسواق، فخرج الجميع إلى الصحراء لإقامة صلاة الاستسقاء، وكان من بين هذه الجموع اليهود وهم يحملون التوراة، والمسيحيين وهم يحملون الإنجيل^(٢).

وثمة أخبار تشير إلى حال من الألفة والتضافر الاجتماعي بين مختلف الأديان، ومن ذلك ما حدث سنة ٧١٤ هـ - ١٣١٤ م حين استعار الأقباط بعض القناديل والأثاث من جامع عمرو بن العاص ليستخدموها في كنيستهم في إحدى اجتماعاتهم الدينية^(٣). وذكر ابن فضل الله العمري كذلك أن جميع ملوك المسيحية كانت تهادي صاحب مصر وتراسله لكي يتمكنوا من زيارة مزاراتهم^(٤).

كما أن بعض أهل الذمة قد تولوا المناصب الجليلة في الدولة؛ ومن ذلك الوزارة التي تولاها عدد لا بأس به منهم، ونظر الخاص كذلك، ونظر الدولة، ونظر الشام، ونظر الجيش، وكشف الجهات بالديار المصرية^(٥)، كما كان لهم أعمالهم وحرفهم التي يقتاتون منها، حيث وُجد في القاهرة مطابخ للسكر يملكها اليهود ويعملون بها^(٦).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (١٦٨/٢).

(٢) ينظر: «بدائع الزهور»: (١، ق ١٢٤/٢).

(٣) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (٢، ق ١٣٥/٢).

(٤) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١٣٨.

(٥) ينظر: «نزهة الناظر» لليوسفي، ص ٨٦.

(٦) ينظر: «الانتصار» لابن دقماق: (١/٤١-٤٤).

وفي النهاية يمكن القول إن أهل الذمة لم يتعرضوا للظلم إلا في أوقات الاضطرابات والشدة والفتن، وأكثر التجاوزات كانت تأتي من قبل العوام، وفيما عدا ذلك فإنهم تمتعوا بكل ما تمتع به المسلمون من حقوق وامتيازات كما أشارت إلى ذلك بعض مصادر ذلك العصر^(١).



(١) ينظر: «معالم القربة» ص ٣٨-٤٥.



المبحث الخامس: الحالة الدينية

المطلب الأول: الأعياد والاحتفالات

المطلب الثاني: الوظائف الدينية



المبحث الخامس الحالة الدينية

شهدت مصر في عصر المماليك نشاطاً دينياً ملحوظاً ولاسيما بعد أن أصبحت مركزاً للخلافة العباسية، والملجأ الآمن للمسلمين وغيرهم، فامتدت فيها دائرة بناء المؤسسات الدينية من مساجد وخواتق وربط وزوايا، ووردها كبار مشايخ الأمصار الإسلامية وعلمائها، ولاسيما علماء الصوفية. وكان المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك البحرية مؤلفاً من طوائف و فرق متعددة، فإلى جانب المسلمين كان هناك من يعتنق الديانة المسيحية، والديانة اليهودية، وكان معتنقو هذه الأديان مذاهباً و فرقا متعددة^(١)، لذلك كان لكل طائفة منهم أعيادها واحتفالاتها الخاصة بهم.

المطلب الأول: الأعياد والاحتفالات

تكمن أهمية دراسة الأعياد والاحتفالات في كونها تعكس لنا في أحيان كثيرة الحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد، وهي مؤشر صادق عن التماسك الاجتماعي ومدى ترابطه، والدارس في هذا المجال - فيما يخص تاريخ مصر - يجد كثرة الأعياد والاحتفالات في ظل دولة المماليك، وللبهنة على ذلك يكفي أن تتصفح كتاب المقريري (الخطط) لتقف على هذه الحقيقة، ولتجد الأعياد الكثيرة التي تعكس حالة من السمو الاجتماعي.

وأول ما نبدأ به حديثنا عن الأعياد الخاصة بالمسلمين هو الاحتفال بقدم شهر رمضان المبارك، فقد كان المسلمون يستقبلونه بإيقاد الأنوار والمشاعل والفوانيس والشموع في الطرقات، وكانت الأسواق تزدهر في

(١) ينظر: «صبح الأعشى»: (١٣/٢٥٦-٢٩٤)، و«الخطط» للمقريري: (٢/٤٧٦-٥١٠).

ليالي هذا الشهر، وتظل مفتوحة طوال الليل^(١)، ولا سيما سوق الحلويين وسوق الشماعين اللذان كانا يمتلآن بأصناف الحلوى وأنواع الشموع^(٢).

والعيد الثاني هو عيد الفطر، ويبدأ الاحتفال به في ليلته، فيجهز الناس الملابس الجديدة، وينطلقون في الصباح لأداء صلاة العيد مهللين مكبرين، وبعدها تبدأ التهنئة، وكانوا يجهزون حلوى العيد في أواخر أيام رمضان استعداداً لهذه المناسبة، وفي هذه الأيام يخرج الناس لزيارة القبور كما يجتمعون في أماكن التنزه.

والعيد الثالث هو عيد الأضحى المبارك، وكانت تُجهز له الأضاحي منذ الليل، وفي الصباح ينطلقون لأداء صلاة العيد، ومن ثم زيارة القبور، ثم الاحتفال بهذه المناسبة.

ويضاف إلى هذه الأعياد الثلاثة أعياد أخرى منها الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية في أول شهر محرم من كل عام^(٣)، والاحتفال بيوم عاشوراء في العاشر من محرم، وفي هذا اليوم يذبح الدجاج ويخبز القمح، وفي ليلة الإسراء والمعراج يجتمع الناس في أكبر المساجد في مدينتهم، وتوضع المشروبات وينصتون إلى تلاوة القرآن الكريم^(٤).

ويضاف إلى هذه الاحتفالات والأعياد الاحتفال بعيد المولد النبوي في مطلع شهر ربيع الأول ويستمر حتى الثاني عشر منه، وكان سلاطين المماليك يشاركون في هذا الاحتفال.

(١) ينظر: «المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك» ص ٢٠٤-٢٠٨.

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٩٦-٩٩).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٤٩٠/١).

(٤) ينظر: «المدخل» لابن الحاج: (٢٩٤/٢، ٢٩٦).

وأما أعياد اليهود فهي خمسة أعياد رئيسية، أولها عيد رأس السنة، وفيه يقدمون الأضاحي في ذكرى افتداء سيدنا إسماعيل، والعيد الثاني هو عيد صوماريا أو الكيبور، وهو يوم الغفران حسب معتقدهم، وعقوبة القتل تقع في حق من لا يصومه^(١).

والعيد الثالث هو عيد المظلة، وهو ذكرى الغمام الذي أظلمه الله به في التيه، فكانوا يجلسون تحت سقف الأشجار الدائمة الخضرة، والعيد الرابع هو عيد الفطير، ويسمى أيضاً بعيد الفصح، والعيد الخامس هو عيد الأسابيع أو العنصرة أو الخطاب، وفيه يحتفلون بذكرى الوصايا العشر التي أنزلها الله على سيدنا موسى عليه السلام.

وللمسيحيين أعيادهم الخاصة بهم أيضاً، ومن أعيادهم الأساسية عيد البشارة، وهو ذكرى البشارة التي جاء بها جبريل عليه السلام إلى مريم العذراء بمولد المسيح عليه السلام، ومن أعيادهم أيضاً عيد الزيتون، وهو ذكرى دخول المسيح إلى القدس ثم الهيكل^(٢)، وعيدهم الثالث هو عيد الفصح ويحتفلون فيه بذكرى قيام المسيح من قبره حسب معتقدهم، وعيدهم الرابع هو خمسين الأربعين؛ وهو ذكرى صعود المسيح إلى السماء بعد أربعين يوماً من قيامه حسب معتقدهم، والعيد الخامس هو عيد الخميس أو عيد العنصرة، ويعتقد المسيحيون أنه اليوم الذي حلت فيه روح القدس في حواربي السيد المسيح، والعيد السادس هو عيد الميلاد، والسابع هو عيد الغطاس في ذكرى تعميد المسيح على يد يوحنا المعمدان^(٣).

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤٦٣/٢).

(٢) ينظر: «المدخل» لابن الحاج: (٥٩/٢، ٦٠)، «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤٥٤/٢).

(٣) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤٥٤/٢، ٤٥٥).

هذه لمحة سريعة عن أعياد المسلمين واليهود والمسيحيين في ذلك العصر، وهي تعكس لنا شيئاً من الحياة التي كانوا يعيشها الناس آنذاك. ولا بد من الإشارة إلى أن المسلمين كانوا يشاركون أهل الذمة في أعيادهم، وكانوا يتبادلون معهم الهدايا، ويرسلون إليهم ما يحتاجونه لمواسمهم الدينية.

ويدل احتفال كل طائفة من هذه الطوائف بأعيادها على أن المماليك لم يتدخلوا في معتقدات أحد من هذه الطوائف، بل تركوا لهم حرية تطبيق معتقداتهم والاحتفال بأعيادهم من دون المساس بهم أو التعرض لهم، على أن هذا لا يعني أنهم تمتعوا بالحرية الكاملة، ولا سيما اليهود والمسيحيون، واتضح هذا الكلام عند الحديث عن حال أهل الذمة في ظل دولة المماليك البحرية.

المطلب الثاني: الوظائف الدينية

عرفت وظائف دينية مهمة في عصر المماليك؛ وأهمها القضاء، والنظر في المظالم، والحسبة، ومع أن هذه الوظائف كانت معروفة منذ عصور سابقة إلا أنها أخذت أشكالاً جديدة في عصر المماليك.

فمنذ أن أصبحت مصر مركزاً للخلافة الفاطمية أحدث فيها منصب قاضي القضاة، ومقره القاهرة، بعد أن كان القضاء تابعاً لقاضي القضاة في بغداد، أي أن مصر استقلت قضائياً في عهد الفاطميين، واستمر ذلك طوال عصر الدولة الفاطمية، وحتى أوائل دولة المماليك، حيث بقي للدولة قاض واحد، وكان على المذهب الشافعي فقط، وحتى عندما عُين قاض ثان معه جُعل لقب قاضي القضاة لواحد فقط، ومنذ سلطنة بيبرس حتى سقوط دولة المماليك كان يعين أربعة قضاة في منصب قاضي القضاة، وقد استقل كل واحد منهم عن الآخر، ويُسمون الحكام الأربعة، كل منهم بحكم مذهبه:

الشافعي، والحنفي، والمالكي، والحنبلي^(١).

أما النظر في المظالم فيكون عند وقوع التعدي أو الفساد في الدولة الذي يعجز القضاة العاديون عن النظر فيه، فيرفع أمره مباشرة إلى صاحب السلطة العليا، فهو يشبه قضاء الاستئناف الحالي، وقد بلغ العمل بهذا النظام أوجه في عصر المماليك لكونهم طبقة عسكرية متعسفة، وكان السلطان يقوم بهذا المهمة بنفسه، ومع أن هذا المنصب من سلطة الخلفاء، إلا أن السلطان بقي يشرف عليه بنفسه حتى لما أقيمت الخلافة العباسية في مصر، وكان السلطان أحياناً يكلف من يقوم بتلك المهمة بدلاً عنه^(٢).

والحسبة هي أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله، وإصلاح بين الناس^(٣)، وهي وظيفة مستحدثة في مدن الإسلام، وهي تشبه القضاء، ويسمى من يقوم بها المحتسب أو ناظر الحسبة، وكانت تابعة للخلافة، ولكن منذ أن انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة في أيام المماليك، سيطر السلطان عليها، فكان هو الذي يتولى الخطط الدينية بما فيها الحسبة، ومع أنها كانت توكل قبل المماليك لموظف واحد له حق استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال البلاد؛ إلا أننا نجد في عصر المماليك ثلاث وظائف للحسبة، في مصر الفسطاط والقاهرة والإسكندرية، فضلاً عن وجود محتسب في كل نيابات الشام، فطلب من محتسب القاهرة الإشراف على نوابه في الوجه البحري خلا الإسكندرية،

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤/٣٥، ٣٦)، «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١/٩٣، ٩٤).

(٢) ينظر المرجع السابق: (١/١٠٦، ١٠٧).

(٣) ينظر: «معالم القربة في أحكام الحسبة» ص ٧.

ومحتسب مصر يشرف على نوابه في الوجه القبلي، ومحتسب الإسكندرية يشرف على مدينته وما حولها، وإن كان لمحتسب القاهرة السيطرة على المحتسبين الآخرين، فهو وحده له حق حضور مجلس المظالم مع السلطان، وقد كان التوسع في عدد المحتسبين ونوابهم متماشياً مع التوسع في تعيين القضاة الأربعة ونوابهم، الأمر الذي يدعونا إلى القول إن هذا التقسيم في الحسبة مستحدث في عصر المماليك^(١)، أما مهمات المحتسب ووظائفه فهي كثيرة بحيث لا مجال لإحصائها هنا، وإن كان من أهمها الحسبة على الأسواق وعلى أصحاب الحرف والمهن وعلى الأطباء والمعلمين وكل المصانع.



(١) ينظر: «نظم دولة سلاطين المماليك»: (١/١١٤، ١١٥).

المبحث السادس: الحالة العلمية والفكرية:

تمهيد.

المطلب الأول: عوامل ازدهار الحياة الفكرية:

- ١- الغزو التتري لبلدان العالم الإسلامي ، وسقوط بغداد
- ٢- سوء الأوضاع العامة في العالم الإسلامي
- ٣- العلماء
- ٤- دور سلاطين وأمراء المماليك
- ٥- الحفاظ على اللغة العربية
- ٦- حرية التنقل
- ٧- الموروث الحضاري
- ٨- العامل السياسي
- ٩- العامل الاقتصادي
- ١٠- العامل الاجتماعي

المطلب الثاني: مقومات الحياة الفكرية (المساجد والمدارس):

١- المساجد:

أ- أهمية المسجد ووظيفته

ب - مساجد مصر:

- المساجد السلطانية

- المساجد الأُميرية

- مساجد رعايا الدولة

ج - نشاط المساجد الفكرية

٢- المدارس :

أ- نشأة المدرسة

ب - مدارس مصر :

- المدارس السلطانية

- المدارس الأُميرية

- مدارس رعايا الدولة

ج - أنواع المدارس :

١ - مدارس الفقه

٢ - مدارس الحديث النبوي الشريف

٣ - مدارس التفسير والقراءات والنحو

خلاصة ما سبق.

المبحث السادس

الحالة العلمية والفكرية

تمهيد:

شهدت مصر في عصر دولة المماليك البحرية انتعاشاً فكرياً عظيماً يوازي في كثير من تفاصيله ما شهدته من نهضة في عصورها المختلفة، فعلى الرغم مما شهده عصر المماليك من حروب طويلة وثورات واضطرابات وفتن، إلا أن ذلك لم يمس الجانب الفكري في شيء، فالباحث في هذا المجال يجد بسهولة المئات من المؤلفات التي تتكلم عن المئات من العلماء الذين صبغوا العصر بفكرهم، وملأوه بمؤلفاتهم التي احتوت على كثير من الإبداعات والإنجازات، التي ما زالت إلى يومنا هذا تملأ مكاتب العالم في الشرق والغرب.

ويلاحظ الباحث في تفاصيل ذلك العصر أن ثمة فرقاً واضحاً بين خط الصعود والنمو في عصر المماليك البحرية، وخط التدهور والاضمحلال في عصر المماليك الجراكسة، وأن هناك انقطاعاً وتبايناً بين العصرين، فلكل عصر مميزاتة الرئيسة والحضارية^(١).

وقد تعرض عصر المماليك لأوصاف واتهامات جائرة، فوصف بأنه عصر تدهور واضمحلال، وعصر تخلف وجمود، وعصر اجتريت فيه العلوم اجتراراً، إلى غير ذلك من الأحكام التي انطلقت من أفواه المستشرقين خاصة، فعلى الرغم من أن الحقائق تشير إلى أن أضخم إنتاج فكري في

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/ ٢١٤)، «بدائع الزهور في وقائع الدهور» ج: ٣، ٤، ٥.

العصور الإسلامية قد جاءنا من عصر المماليك^(١)، إلا أن المستشرق الفرنسي جاستون فييت يعده إنتاجاً من الدرجة الثانية، ويقول عن ذلك: «ولكن القاهرة لم تكن في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد وقرطبة، كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين - الثامن و التاسع الهجريين مركزاً للسياسة والإدارة وبصفة خاصة للتجارة العالمية، ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع، فإنها في مجال الإنتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية»^(٢).

ويصف بروكلمان هذا الإنتاج بأنه «إنتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع بالكلية»^(٣).

وقصر فييت هذا الإنتاج في عصر المماليك الطويل على كتاب واحد وعالم واحد، بقوله: «ولا ينبغي أن ننخدع بتكاثر المدارس الدينية والمساجد في ظل حكم سلاطين المماليك فليس لذلك علاقة بنبوغ المدرسين، إذ لم يتخلف لنا عنها اسم واحد عظيم، لم يتخرج من هذه المعاهد العلمية الكثيرة شخصية علمية أو كاتب موهوب، فهي لم تزد عن كونها مدارس لتدريب المدرسين، وباستثناء المقدمة لابن خلدون لم يظهر في القاهرة أي عمل أصيل، وقد تميز هذا القرن بكتّاب الموسوعات والسير، التي كثيراً ما كانت قليلة الأهمية، وواضعي المجاميع، فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالأصالة، كان هؤلاء الرجال يستحقون في حياتهم عبارات المديح، لكن أسماءهم تسقط سريعاً في طيات النسيان».

(١) ينظر: «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» عاشور، ص ٢٩٣

(٢) ينظر: «القاهرة مدينة الفن والتجارة» جاستون، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣) ينظر: «تاريخ الشعوب الإسلامية» بروكلمان، ص ٣٧١.

وإذا ما تحولنا إلى ول ديورانت صاحب قصة الحضارة، فإننا نجده يصف المماليك بالموت الأسود الذي قضى على ازدهار البلاد، ويقلل في موضع من كتابه من أهمية دوري المسجد الديني والفكري، فالمسجد في عصر المماليك - برأيه «جدران حجرية ضخمة جعلت منه قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة»^(١).

وثم إننا نجد أن عدداً من الباحثين العرب والمسلمين قد انساقوا وراء آراء المستشرقين، فأصيبوا بداء الإعجاب بهم، فانطلقت أكثر أحكامهم من حدود آراء المستشرقين، ولم تنطلق من دراسة علمية متخصصة وموضوعية، يقول أحدهم: «يمكننا أن نقول إنَّ مدينة هذا العصر كثيرة المتناقضات، لذلك وُصفت هذه الفترة بأنها عصر الظلام، أو عصر الفوضى، أو العصور المظلمة... وفي هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التي عاشتها أوربة في القرون الوسطى»^(٢).

ويصف باحث آخر الحياة الفكرية بأنها حياة صوفية ومنتَهرة، فيقول: «والحياة الفكرية والعقلية للعصر المملوكي إفراز لتأثير التصوف، حيث دارت الحركة العلمية بين شرح وتلخيص ونظم للمتون وإعادة شرح التلخيص والتمن دون ابتكار أو تجديد، وحيث فرض التصوف نفسه علماً بين المناهج، وحيث دارت الحياة العلمية في المؤسسات الصوفية، وحيث تصوف العلماء وتقهقر مستواهم الفكري»^(٣).

وتُظهر آراء هؤلاء جميعاً تقصيراً في دراسة ذلك العصر دراسة متعمقة

(١) المرجع السابق، ج ٢٦، ص ٥٢.

(٢) ينظر: «المماليك في مصر» زقلمة، ص ١٤.

(٣) ينظر: «العقائد الدينية في مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف» منصور، ص ٣٩.

وواضحة، لذلك ابتعدت أحكامهم عن الموضوعية، فجاءت مطلقة كما ورد في رأي بروكلمان الذي جعل العصر المملوكي بطوله وعرضه خالياً من الإنتاج الأصيل والمبدع بالكلية. وقاصرة كما جاء في رأي جاستون فييت الذي وصل إلى رأي لا أظن أن أحداً من الباحثين يسمع له فيه عندما قصر الحياة الفكرية على مقدمة ابن خلدون وحدها في عصر امتد قرابة قرون ثلاثة، وخلف العشرات من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان، ويعرفهم الصغير والكبير.

ولعل بعض هؤلاء الباحثين قد تأثروا بأوضاع البلاد في ذلك العصر، وبالتطورات السريعة التي شهدتها، ولاسيما أنها كانت تُحكم بحكم المماليك العسكري، فتأثروا بمظالم المماليك وعكسوا سوء الأحوال العامة على الحياة الفكرية، وهذا لا يصح في حال من الأحوال ولا يبرر إسقاط الصفحات المشرقة للازدهار الفكري، ولاسيما أن العلماء هم من قاد الحياة الفكرية، ويكفي أن أشير إلى أن تاريخ مصر القديم نفسها شهد نهضة علمية عظيمة في ظل حكم الفراعنة الذين قتلوا وظلموا.

سأقدم هنا عدداً من تصورات علماء عصر المماليك عن عصرهم؛ وأول هؤلاء ابن فضل الله العمري أحد أبرز أعيان ذلك العصر، وصاحب موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار حيث يقول: «وأبتدئ بالقاهرة التي هي اليوم أم الممالك وحاضرة البلاد، وهي من وقتنا دار الخلافة وكرسي الملك ومنبع العلماء ﷺ، ومحط الرحال، وتبعها كل شرق وغرب، وبعد وقرب، خلا الهند فإنه نائي المكان بعيد المدى»^(١).

(١) ينظر: «التعريف بالمصطلح الشريف» للعمري، ص ٢٤٧.

ولعبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م) رأي عن مصر في ذلك العصر، وكان قد سأل عنها أحد العلماء قبل قدومه إليها عام ٧٤٠هـ - ١٣٣٩م: «كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»^(١).

ويقول عنها: «ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جعلتها تعليم العلم... فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف»، ويقول أيضاً: «ثم انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقص ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة، فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم إلى مصر والقاهرة».

ويُجمل القلقشندي (ت ٨٢١هـ - ١٤١٨م) نهضة ذلك العصر بقوله: «ولم تزل القاهرة في كل وقت تتزايد عمارتها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العلية، والدور الضخمة، والمنازل الرحبية، والأسواق الممتدة، والمناظر النزهة، والجوامع البهجة، والمدارس الرائعة، والخوانق الفاخرة، ممالم يشع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار»^(٢).

هذه آراء متنوعة من مؤرخين عاصروا دولة المماليك، وباحثين غربيين وشرقيين تعطي صورة أولية عن عصر المماليك، أردت من خلالها أن أعطي القارئ فكرة بسيطة عن الانطباعات المختلفة عن عصر المماليك، التي من خلالها يستطيع أي باحث أن يجد الحقيقة التي يبحث عنها، وأردت من

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٦٤٩.

(٢) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٣/٤١٨، ٤١٩).

خلالها أيضاً أن أنتقل إلى الحديث عن العوامل التي ساعدت على ازدهار الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية.

المطلب الأول: عوامل ازدهار الحياة الفكرية

تهيأت لمصر ظروف وعوامل أوصلتها إلى نهضة فكرية، فلم تأت هذه النهضة من فراغ أو عن جفاف، وإنما أنتجتها عوامل كثيرة خارجية وداخلية، تضافرت فيما بينها فشكلت نهضة فكرية مشهودة.

١- الغزو التتري لبلدان العالم الإسلامي وسقوط بغداد:

بدأ التتار بغزو البلاد الإسلامية منذ العام ٦١٧هـ - ١٢٢٠م، وأسقطوها الواحدة تلو الأخرى، فعاثوا فساداً في آسيا طويلاً وعرضاً، ثم دمروا خراسان^(١)، وبعد خراسان واصلوا زحفهم نحو العراق، ودخلوا عاصمة الخلافة العباسية بغداد عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م فأحرقوها، وقتلوا خليفتها المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين فيها، منهين بذلك الدولة العباسية، وفعلوا ما فعلوا في العراق من القتل والسفك والتخريب والإحراق^(٢)، وهاجموا دار الخلافة وقتلوا من كان فيها من الأشراف، ولما جمعوا الفقهاء والأماثل وجميع سادات بغداد ومدرسيها قتلوهم عن آخرهم، حتى الكتب لم تسلم من شرهم، فأحرقوها وأغرقوها، ودام القتل والنهب أربعين يوماً، ثم تركوا العراق متجهين نحو بلاد الشام، فسقطت بيدهم حلب عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، واستسلمت لهم دمشق أواخر عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م^(٣).

(١) ينظر: «الكامل في التاريخ»: (١/٣٣٣).

(٢) ينظر: «التحفة الملوكية» للمنصوري، ص ٤١.

(٣) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (١٣/١٨٣).

ومن فواجع هذا الغزو الكثيرة، خسارتنا لكثير من العلماء الذين لم يتردد التتار في قتلهم، ومنهم موفق الدين عبد القاهر بن محمد الفوطي، عالم العربية والكاتب والشاعر، قُتل صبراً في الواقعة ببغداد^(١)، وابن صلايا الصاحب تاج الدين محمد بن نصير بن يحيى الهاشمي العلوي، نائب الخليفة بإربل^(٢)، قتله هولاء قرب تبريز^(٣)، ويحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري الضرير، عالم اللغة العربية، دخل عليه التتار فقاتلهم بعكازه وقتل منهم حتى قتله، والعلامة محيي الدين بن الجوزي، سفير الخلافة وأستاذ دار الخليفة المستعصم، قتله التتار عند دخولهم بغداد، وقتلوا معه أولاده الثلاثة وهم الشيخ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، وشرف الدين عبد الله متولي الحسبة، وتاج الدين عبد الكريم متولي الحسبة بعد أخيه، قُتل ولم يبلغ عشرين عاماً من عمره^(٤).

وأمام هذه المصائب والفواجع المتعددة كان لابد من مكان آمن يأوي إليه العلماء، ووجدوا ذلك في مصر حيث أقام المماليك لأنفسهم فيها ملكاً وسلطاناً وأحيوا الخلافة العباسية بالقاهرة، وهذا ما كان له أثر معنوي حيث أصبحت القاهرة مقر الخليفة والخلافة، والمركز السياسي والديني والعلمي للعالم الإسلامي، ففر إليها الكثير من العلماء.

ورداً على هذه الأحداث بذل العلماء جهوداً عظيمة لإعادة جمع أكبر

(١) ينظر: «شذرات الذهب» لابن العماد: (٤٨١/٧).

(٢) ينظر: قلعة حصينة ومدينة كبيرة، وكانت تعد من أعمال الموصل، ينظر: «معجم البلدان» للحموي: (١٦٦/١، ١٦٧).

(٣) ينظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي: (١٢٨/٥، ١٢٩).

(٤) ينظر: «شذرات الذهب» لابن العماد: (٤٩٤/٧، ٤٩٥).

قدر ممكن من العلوم - بعد إحراق التتار الكتب وإغراقها - خوفاً على نسيان العلم أو ضياعه، فظهرت مئات من المؤلفات في كل العلوم والفنون، وتمثل جزء من هذه الجهود في كتابة الموسوعات التي كانت ميزة من ميزات ذلك العصر، فحُفظ من خلالها الكثير من العلوم حيث ضمت مواد تاريخية وجغرافية واجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية وبيوغرافية، فاستُدرِك بها وبغيرها ما فُقد من العلم.

وقد أشعر الغزو التتري العلماء بأنهم مسؤولون عن تدوين العلم من جديد، فانطلقوا نحو تحقيق هذا الهدف، فساهموا في التأليف والتعليم والإفتاء والقضاء، وبذلك انتقل العلم والتعليم - بعد انحلال نظام الدولة الإسلامية وسقوط عاصمة الخلافة بغداد - إلى مصر والشام تحت رعاية المماليك.

٢- سوء الأوضاع العامة في العالم الإسلامي:

سأت أوضاع العالم الإسلامي في منتصف القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي مشرقه ومغرب، أما مشرقه فقد شهد اجتياح المد التتري له، وأما مغربه فإنه أصبح بعد انحسار حكم الموحدين مسرحاً لتبدلات سياسية لم تنقطع، فقد أدى التنافس على المناصب السياسية إلى قيام عدد من الدول، وإلى الانقلابات على الحكم، وانعكس ذلك على مجموعة من المغاربة التي اضطرت في النهاية للهجرة^(١).

وممن شهد على سوء الأحوال الفكرية في المغرب ابن خلدون، حيث يقول عن ذلك: «وذلك أنَّ القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب

(١) ينظر: «الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق العربي» أحمد علي، ص ٩٠.

والأندلس ... فلما خربنا انقطع التعليم في المغرب إلا قليلاً كان في دولة الموحدين ... وبقيت فاس وسائر أقطار المغرب العربي خلواً من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم، فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم»^(١).

وإذا ما انتقلنا إلى الأندلس فلن نجد الظروف أفضل حالاً، فالحكم الإسلامي تصدع منذ أن انهار صرح الخلافة الأموية فيها، فقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة، وخاض الأندلسيون صراعاً شديداً ضد القوى المعادية لهم في إسبانيا، ومنذ أوائل القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي اجتاحت موجات كبيرة من الغزو الإسباني الأندلس، فلم يأت منتصف هذا القرن إلا وقد تساقطت قواعد الأندلس وثغوره في الشرق والغرب، مثل قرطبة (٦٣٣هـ - ١٢٣٦م) وبلنسية (٦٣٦هـ - ١٢٣٨م) ومرسيه (٦٤٠هـ - ١٢٤٣م) وقرطاجنة (٦٤٣هـ - ١٢٤٥م) وإشبيلية (٦٤٦هـ - ١٢٤٨م)، وقد أدى الغزو الإسباني إلى اندثار المعاهد الإسلامية والعلمية بعد أن كانت عامرة ومزدهرة، وإلى انكماش الرقعة الإسلامية في إسبانيا، فما بقي منها سوى غرناطة تؤلف مملكة إسلامية صغيرة في الجنوب تذود عن نفسها أكثر من قرنين من الزمن حتى واجهت الفناء^(٢).

ولم يتوقف الأمر عند الاحتلال فحسب، وإنما تلا ذلك إجراءات قاسية، ففرضت على كل من آثر البقاء من العرب والمسلمين في مدنهم شروطاً مهينة، فأجبروا على وضع إشارة على ثيابهم تميزهم عن باقي السكان، ولا يجوز لمسلم استخدام مسيحي، ومن يخالف الأوامر تصادر

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٥٤٤، ٥٤٦.

(٢) ينظر: «نهاية الأندلس» عنان، ص ١٦. ٢٠.

أملاكه، ومن يُقبض عليه وهو فارٌّ إلى بلاد المسلمين يُعد أسيراً، ومن ثم يصبح ملكاً لمن قبض عليه من الإسبان، ويُفرض عليه التنصير، إلى غير ذلك من الشروط التي بلغت حداً لا يطاق، وقد كان لكل هذا آثاره السلبية على الأندلسيين، فساءت الأحوال الاقتصادية، وانتشرت الأوبئة والأمراض، وعمَّ الجوع والغلاء. وأدى كل ذلك إلى هجرة جماعية إلى الأقطار الأخرى. وبقيت الحال كذلك طيلة عصر المرابطين وعصر الموحدين وبلغ الأمر ذروته بانحسار حكمهم، وذهب بذلك التعليم بين أهل الأندلس وقلّت عنايتهم بالعلوم^(١)، ورحل كثير من علماء الأندلس مهاجرين إلى مصر.

لقد جعل اضطراب أحوال الأرض العربية والإسلامية مشرقها ومغربها وأندلسها من مصر وريثة شرعية لبغداد والقيروان وقرطبة، وزعيمة للعالم الإسلامي، والملجأ الوحيد الآمن والمستقر، ولا غرابة في ذلك إذا رأينا المصريين والمماليك يجعلونها بيئة قابلة لاستقبال الجميع، فربحت مصر بفعل هذه الظروف العشرات من أشهر علماء الأمصار، الذين كونوا تياراً فكرياً واضحاً ومتميزاً كما سنرى في العامل التالي.

٣- العلماء :

العلماء سوارى الأمم، وعماد أي نهضة فكرية، والشريان النابض في كل عصر ومصر، بهم قامت الأمم السابقة وبفكرهم وإبداعاتهم نشرت الحضارات إنجازاتها على كل أنحاء المعمورة، وقد اتصف علماء كل عصر من العصور العربية الإسلامية بصفة ميزتهم عن علماء العصور الأخرى، أما علماء مصر في العصر المملوكي فقد اتصفوا بتنوعهم، فلم تقتصر النهضة

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٥٤٥، ٥٤٦.

الفكرية على المصريين فقط، بل شملت عدداً كبيراً من المشاركة والمغاربة والأندلسيين، الذين انصهروا في مجتمع مصر وشاركوا في فعالياته، مشكلين تياراً فكرياً رائعاً استفادت مصر منه كثيراً.

فبعضهم وصل إلى مصر فاراً من بطش التتار، وكثيرون وفدوا إليها قادمين من بلدانهم التي ساءت أحوالها، وآخرون قصدوا الرحلة إليها في سبيل طلب العلم والمعرفة بعدما سمعوا عن نبوغ علمائها واشتهارهم وتميزهم، فأفاد هؤلاء جميعاً مصر ووصلها خيرهم بعد أن استقروا في كنفها، ومارسوا نشاطاتهم الفكرية وقدموا علومهم ومعارفهم، فتولوا مناصب التدريس والوعظ والإقراء والإفتاء والقضاء وغير ذلك من المناصب العلمية وغير العلمية، فكانوا المساهمين الأبرز في النهضة الفكرية.

ومن العلماء الفارين من وجه التتار كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم (ت ٦٦٠هـ - ١٢٦١م)، هرب من حلب إلى مصر بعد ما شاهد ما أصاب حلب من التتار.

وفرّ من التتار أيضاً عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد (ت ٦٨٤هـ -

١٢٨٥م)، الذي عاش في حلب حتى كان الغزو التتري لها عام ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، فهرب مع من هرب إلى الديار المصرية^(١)، ومثله فعل أحمد بن زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٦٦٢هـ - ١٢٦٣م) المعروف بابن الأستاذ^(٢).

(١) ينظر: «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»: (١، ١ق، ١، ص ١، ٢).

(٢) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٩).

ومنهم جلال الدين إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمود العقيلي القلانسي (ت ٧٢٢هـ - ١٣٢٢م) هرب من التتار إلى مصر وأقام فيها لنفسه زاوية^(١).

ومن أشهر من وصلوا إلى مصر للسبب نفسه، والد تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ومعه أولاده، وفيهم ابن تيمية المشهور (ت ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م) الذي كانت له نشاطات واسعة ومهمة في مصر كما سيأتي.

وتنوع العلماء الوافدون إلى مصر بين مشاركة وأندلسيين ومغاربة، فمن المشاركة أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ - ١٢٨٢م) الذي خرج من دمشق متوجهاً إلى الديار المصرية، فسكنها وتأهل فيها واشتغل فيها بالعلوم^(٢)، وبعد زمن عاد إلى الشام، فتكلم فيه شعراء الشام شعراً، منه قولهم:

غداة هجرته هجراً جميلاً أذقت الشام سبع سنين جدياً
مددت عليه من كفيك نيلاً فلما زرته من أرض مصر^(٣)

ومن المشاركة الذين وفدوا إلى مصر القاضي أحمد بن حمدان بن شبيب النميري الحراني (ت ٦٩٥هـ - ١٢٩٥م)، تعلم في حران وحلب ودمشق والقدس، ثم رحل إلى مصر وتولى التدريس فيها، وولي نيابة قضاء القاهرة، وتوفي فيها. والفقير سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري (ت ٧١٦هـ - ١٣١٦م) عمل في بغداد ودمشق، ثم سافر إلى مصر وأقام في القاهرة، وترك في قوص من صعيد مصر خزانة كتب من تصانيفه^(٤).

(١) ينظر: «الدر الكامنة» لابن حجر: (٥٩/١).

(٢) ينظر: «ذيل مرآة الزمان» لليونيني: (١٤٩/٤، ١٥٠).

(٣) ينظر: «فوات الوفيات»: (١١٠/١، ١١١).

(٤) ينظر: «مختصر طبقات الحنابلة» لابن شطي، ص ٥٩، ٦٠.

ومن دمشق وصل إلى مصر العديد من علماء آل قدامة، وهم أسرة فلسطينية الأصل، سكنوا الصالحية المجاورة لدمشق، وجميع هؤلاء عملوا في التدريس في مساجدها ومدارسها، وفي غيرها من مدارس الأمصار ومساجدها في دمشق والقاهرة والإسكندرية، ورحل العديد من آل قدامة في طلب العلم ولاسيما إلى مصر والإسكندرية ودمياط، فاستقر بعضهم في القاهرة، ووصل بعضهم الآخر إلى منصب قاضي القضاة أو شيخ الشيوخ فيها^(١).

أما الأندلسيون، فيزخر كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني أحمد (ت ١٠٤١هـ - ١٦٣١م) بالحديث عن كثير ممن ترك الأندلس مهاجراً ووافداً إلى مصر، ومن أولئك أبي عبد الله محمد بن سراقبة الشاطبي (ت ٦٦٢هـ - ١٢٦٣م) الذي رحل في طلب العلم فقدم مصر وتولى مشيخة دار الحديث الكاملة في القاهرة، وظلَّ فيها حتى وفاته^(٢).

ومن الأندلس رحل أحد كبار علمائها محمد بن أحمد القرطبي، فاستقرَّ في مصر حتى توفي في صعيدها عام ٦٧١هـ - ١٢٧٢م. وكذلك رحل إلى مصر عالم النحو وإمام القراءات محمد بن عبد الله بن مالك (ت ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م) صاحب الألفية المشهورة. وجمال الدين محمد بن أحمد الشريشي صاحب شرح مقامات الحريري الذي رحل إلى الإسكندرية، ثم أقام بالمدرسة الفاضلية في القاهرة، وتخرج على يديه خلق كثير، حتى توفي عام ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م.

(١) ينظر: «مدينة للعلم، آل قدامة والصالحية» مصطفى شاكر، ص ٧، ٦٤-٦٦.

(٢) ينظر: «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري: (٢/ ٢٨٠)، «الوافي بالوفيات»: (١/ ٢٠٨، ٢٠٩).

ووصل إلى مصر من الأندلس أحد أبرز علمائها، وهو الأديب الشاعر علي بن موسى بن سعيد العنسي الأندلسي الغرناطي (ت ٦٧٣هـ - ١٢٧٤م)، رحل أولاً إلى المشرق، ثم توجه إلى مصر، وكتب عن رحلته المصرية أشعاراً كثيرة، منها قوله عن نيلها:

حيث المناظر أنجم تلتاح يا نيل مصر أين حمص ونهرها
تدعو إليه مناوح وبطاح في كل شط للمناظر مسرح

ويأتي في مقدمة العلماء المغاربة الوافدين إلى مصر العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م)، الذي وصل إلى مصر عام ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م، فتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد إليه، فتولى قضاء المالكية فيها، ودرّس في الجامع الأزهر وغيره.

وفي موسوعة مسالك الأبصار في ممالك الأمصار يتحدث ابن فضل الله العمري في تراجم تفصيلية عن ثلاثة عشر عالماً مغربياً وفدوا إلى مصر، ومن دراسة أصحاب تلك التراجم يتبين أن العمري التقى بكثير منهم، وكان له مع بعضهم مراسلات عديدة، ذكر منهم الكاتب والناظم والناثر تاج الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم المعروف بابن البازنباري (ت ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م).

وبهؤلاء العلماء أصبحت مصر أم الممالك ودار الخلافة ومنبع العلماء، فتبعها الشرق والغرب والقريب والبعيد، فساهم هؤلاء العلماء القادمون إلى مصر في إنعاش الروح الفكرية، وساعدوا مصر كي تتبوأ مكان الصدارة بين بلدان العالم الإسلامي آنذاك.

٤- دور سلاطين وأمراء المماليك:

كان المماليك البحرية مخلصين إلى حد ما للأرض التي جاؤوا إليها

ونشؤوا فيها، فلذلك دافعوا عنها وصدوا كل من اقترب منها، وقاموا بأعمال وسطروا إنجازات تشهد على إخلاصهم وتدل على غيرتهم، ومهما قيل عنهم فمن الصعب نكران دورهم الكبير في إيصال الأمة العربية والإسلامية إلى بر الأمان، فقد حققوا للبلاد الأمن والاستقرار بعد تصديهم للتتار وطردهم للصليبيين، وعلى أيديهم توحدت مصر والشام من جديد، فعلى الرغم من تمركزهم في مصر، فإنهم لم يهملوا الشام، بل عدوها جزءاً من مصر، وفي رؤية سريعة للتقسيمات الإدارية نجد أنهم قسموا بلاد الشام إلى ست قواعد أو نيابات^(١)، وكان نائب دمشق يُعد من أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة، حتى إنه استحق لقب ملك الأمراء^(٢).

وفي الجوانب الحضارية الأخرى حقق المماليك نجاحات كثيرة، فأحسنوا ربط البلاد إدارياً سواء بالتقسيمات أم بالنظام الإداري أو الوظائف الإدارية، وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في عصرهم كما رأينا في الفصل الأول.

وهذا النجاح السياسي والإداري جعلهم قادرين على الالتفات إلى نواحي الحياة الفكرية والاعتناء بها، والغريب أن المماليك على الرغم من أنهم من أصول غير عربية، إلا أنه كان لهم أثر واضح في تقدم النشاط الفكري في مصر، ومن ذلك ما نسمعه عن ولع بعضهم بالعلم مثل الظاهر بيبرس الذي ولع بسماع التاريخ، وقال عنه ابن تغري بردي: «وكان يقرب أرباب الكمالات في كل فن وعلم، وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً،

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٩٤/٤) وما بعد.

(٢) ينظر: «المسالك» للعمري، ص ١١٥.

ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب»^(١)، واشتغل غيره بالفقه والحديث واللغة العربية، وتصدى آخرون للتدريس^(٢).

ونجد أيضاً أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون يطرح الأدباء، ويجلس بالميدان والقراء بين يديه يقرؤون القرآن الكريم، وقد قال عنه المقرئ: «حسن النادرة، يطرح الأدباء بذهن رائق، وذكاء مفرط»^(٣). ولم يبخل المماليك برعاية العلماء وتقديرهم وتشجيعهم وحسن معاملتهم واحترامهم، فبلغوا في ذلك العصر منزلة عظيمة، وأقام لهم السلاطين والأمراء وزناً كبيراً، ولم تأت هذه المكانة الرفيعة إلا لأن علماء ذلك العصر كانوا يتمتعون بصفات إيجابية كثيرة كتشجيعهم ومعارفهم، فكسبوا ثقة السلاطين والأمراء ومحبتهم، فعمد هؤلاء إلى تصديرهم في المناصب المهمة في الدولة.

واتضح الأثر الأبرز للمماليك في الحياة الفكرية بتصديهم لبناء العمائر الدينية والعلمية، التي أقيمت فيها الفعاليات الدينية والعلمية، ودرّس فيها العلماء، وتخرج بها العلماء الأعيان الذين كان لهم الدور الفعّال في النهضة الفكرية، فأشاد المماليك المساجد والمدارس والربط والخوانق والنوايا والبيمارستانات والمكتبات، ووقفوا عليها الأوقاف لضمان استمراريتها.

٥- الحفاظ على اللغة العربية:

لم يشهد عصر المماليك أي نوع من السياسات ذات التأثير السلبي على اللغة العربية، فلم نجد سياسة محو اللغة كما حدث في آخر أيام الدولة

(١) ينظر: «النجوم الزاهرة»: (٧/١٦٢).

(٢) ينظر: «مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» ص ٢٩٣.

(٣) «السلوك» للمقرئ: (١، ٣، ص ٧٩١).

العثمانية من سياسة تترك على يد الاتحاديين الأتراك، أو كسياسة الفرنسة التي اتبعتها فرنسة في المغرب العربي خلال احتلالها له، بل شهدنا عكس ذلك، حيث حافظت اللغة العربية على مكانتها الرئيسة وموقعها الطبيعي في حياة المجتمع، وكان لسلطين المماليك وأمرائهم وكبار رجال دولتهم نصيب مهم في الاعتناء بها، ويعود السبب في ذلك إلى أن لغتهم التركية أو الجركسية لم تكن مناسبة لإدارة دولة لغة أفرادها العربية.

فلقد ظل المماليك - مع تحدثهم باللغة التركية - يحافظون على الآداب العامة العربية، وكان اهتمامهم باللغة العربية عظيماً جداً على أنها لغة السياسة والإدارة والعلم، وقد يعجب الباحث من ازدهار الثقافة العربية في عصر المماليك ازدهاراً واسعاً، في حين كانت السلطات العليا فيها بأيدي جماعة من السلطين والأمراء وقادة الجيوش، وجميعهم من أصول غير عربية، بل إن معظمهم لا يجيد اللغة العربية نطقاً أو كتابة، والواقع أن هذه الدولة كانت تركية في قمتها، ولكنها بقيت عربية الطابع في لسان أهلها وثقافتهم وعلومهم ودواوينهم، وقد ساعد على كل ذلك مساعدة كبيرة مؤسستان كبيرتان حافظتا على استمرار اللغة العربية كوعاء للثقافة والعلوم، وهما مؤسسة ديوان الإنشاء ومؤسسة القضاء، فديوان الإنشاء ظل المؤسسة الضخمة الثابتة الأركان على امتداد العصر الفاطمي والعصر الأيوبي ثم عصر المماليك، فمثل مهمات وزارتي الخارجية والثقافة والإعلام في عصرنا، فكان السجل الذي يمر فيه كل ما يصدر عن الدولة إلى داخل البلاد أو خارجها وكل ما يرد إليها، فضلاً عن أن الأمور السلطانية من مكاتبات وولايات تنشأ عنه وتبدأ منه^(١).

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (١/١٢٣، ١٢٤)، ومقدمة «النجوم الزاهرة»: (١/٦، ٧).

ولم يُسمح بالعمل في هذا الديوان إلا لمن تأكد تمكنه باللغة العربية وعلومها ودقائقها وتفصيلها، تدلنا على ذلك الشخصيات التي تولت العمل فيه، حيث إن أغلبها اتصف بالموسوعية، فمن الذين تولوا العمل في ديوان الإنشاء أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري^(١)، وأحمد القلقشندي، ومحيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ - ١٢٩٢م)، وغير هؤلاء^(٢)، وذلك يؤكد عروبة هذا الديوان، وعلى دوره المهم الذي لا يُعلى عليه في صون اللغة العربية.

والمؤسسة الثانية - مؤسسة القضاء - كان يتولاها منذ أيام الظاهر بيبرس قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، تولوا فيها النظر في قضايا كثيرة كالأحوال الشخصية والمدنية والجنائية، وإمامة المسلمين في الصلاة، ونيابة الأقاليم، والنظر في دعاوى إثبات الحقوق والأموال التي ليس لها وارث، وعُد القاضي في مدن الأقاليم نائباً لقاضي القضاة في القاهرة، وكانت جلسات المحاكم تُعقد في المساجد وفي دور القضاة أحياناً، وكان للقاضي مساعدون من أعوان وعدول وأمناء وكاتب وترجمان^(٣)، فكان لهذه المؤسسة بكل أعمالها وإشرافاتها دور كبير في الحفاظ على اللغة العربية.

ومن ناحية ثانية، نلاحظ أن من المماليك من تأثر باللغة العربية كثيراً، فمنهم من تعلمها، ومنهم من درس علوم الدين، وتعدى ذلك إلى ظهور من برع في تأليف الكتب بالعربية، فبيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ - ١٣٢٤م)

(١) ينظر: «التعريف بالمصطلح الشريف» ص ٣.

(٢) ينظر: «الدرر الكامنة»: (١/١١١، ١١٢، ١٢٠، ١٢١، ١٨٦، ٢٠١، ٢١٠، ٤٩٧)، و(٣)، ١١٦، ٢٩٤، ٣٨٤.

(٣) ينظر: «حسن المحاضرة»: (٢/١٦٧.١٧٥)، «تاريخ المماليك البحرية»، ص ٢٩٠.٢٨٦.

مثلاً، مملوك وصل إلى مصر عام ٦٥٩هـ - ١٢٦١م، وعمره آنذاك خمسة عشر عاماً تقريباً، ولم يكن يعرف اللغة العربية، فاشتراه المنصور قلاوون وأعتقه، ثم توجه إلى تعلم اللغة العربية ودراسة العلوم الدينية مع أبناء السلطان، فأتقن العربية بحيث أنه تولى منصبين مهمين في الدولة هما ديوان الإنشاء ونائب سلطنة مصر، والأكثر من ذلك أنه ألف بالعربية مؤلفات عدة، منها تاريخه الضخم المؤلف من خمسة وعشرين مجلداً والمسمى «زبدة الفكرة»، ومنها كتابه: «التحفة الملوكية في الدولة التركية»، كما ألف تفسيراً للقرآن الكريم سماه «مواعظ الأبرار»، وأمام هذا الإبداع باللغة العربية وصل بيبرس إلى مرتبة أُجيز له فيها بالتدريس والإفتاء.

وبرع سنجر بن عبد الله البرلي التركي (ت ٦٩٩هـ - ١٢٩٩م) في الحديث والفقهِ، وكان من نجباء الترك وعلماهم، وله معجم في أربعة عشر جزءاً^(١). وكذلك كان لإبراهيم بن محمد بن دقماق (ت ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م) مؤلفات عربية كثيرة سترد معنا.

ونلاحظ كذلك شغف المماليك في تعلم العلوم الدينية، الذي يعكس اهتمامهم باللغة العربية لارتباط العلمين ببعضهما البعض ارتباطاً وثيقاً، فدانيال بن منكلي بن صرفا التركماني (ت ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م) قرأ القراءات وتعلم على يد الكثير من العلماء حتى أصبح من الفقهاء. والأمير علم الدين سنجر الدواداري الصالحي (ت ٦٩٩هـ - ١٢٩٩م) حفظ القرآن الكريم وسمع الحديث النبوي^(٢). والأمير سيف الدين أرغون الناصري (ت ٧٣١هـ - ١٣٣٠م) عُدد من الفقهاء حتى إنه كتب صحيح البخاري بكامله بخطه. والأمير

(١) ينظر: «الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب» لابن خطيب الناصرية: (٧/٧٨٣).

(٢) ينظر: «تذكرة النبيه» لابن حبيب: (١/٢٢٩).

تنكز أبو سعيد (ت ٧٤١هـ - ١٣٤٠م) جُلب إلى مصر صغيراً، فتعلم وسمع الحديث وبرع فيه حتى قرأه عليه العلماء. وسنجر الجاولي أبو سعيد المنصوري (ت ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م) سمع وتعلم وحدث، وكان له معرفة بمذهب الإمام الشافعي، فرتب مسنده ترتيباً جيداً وشرحه في مجلدات. على أن من الأدلة المهمة على تسييد اللغة العربية في ذلك العصر هو أن وثائق الجينيزا الخاصة باليهود قد كتبت باللغة العربية في حروف عبرية.

٦- حرية التنقل:

لم يكن التنقل بين مدن دولة المماليك ومناطقها وكذلك مع بلدان العالم آنذاك أمراً صعباً، فلم أجد ما يدل على مانع يحول دون تنقل الأفراد ولا سيما أصحاب العلوم، وهذه السهولة في التنقل أدت بطريقة أو بأخرى إلى التفاعل والاحتكاك بين مختلف علماء الأمصار، وإلى انتقال العلوم مع حاملها من مكان إلى آخر، فانتشرت العلوم السائدة آنذاك في كل أطراف الدولة، ومن النادر - إن لم أبالغ - أن نجد عالماً من العلماء قد أقام في موضع واحد، فالسفر والترحال كان عنواناً بارزاً لعلماء ذلك العصر، وإن تعددت أغراضه فإن أولها كان السعي لطلب العلم أو تعليمه، وتمتلى كتب تراجم القرنين السابع والثامن الهجريين - الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين بالأمثلة على ذلك.

ولم يختلف مكان ولادة كثير من العلماء عن مكان وفاتهم؛ كأبي حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥هـ - ١٣٤٤م) الذي وُلد في غرناطة وتوفي في القاهرة^(١)، وابن خلدون الذي وُلد في تونس وتوفي في

(١) ينظر: «فوات الوفيات»: (٤/٧٩٠٧٩).

القاهرة^(١). على أن المثل الأوضح عن تنقلات العلماء بحرية هم أولئك الذين دُوت رحلاتهم ووُثقت، ويأتي على رأسهم الرحالة ابن بطوطة الذي جال البلدان وارتحل فيها وتنقل بينها، فزار الهند واليمن والعراق والشام ومصر ومكة والمدينة والقدس والمغرب والأندلس والسودان وفارس وتركستان وما وراء النهر، وكانت وفاته في مراكش عام ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م وقيل ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م^(٢)، ويضاف إليه أصحاب الرحلات الأخرى الذين سنعرض لهم في فصل النتاج الفكري، كالعبدري والبلوي وابن رشيد وغيرهم.

وأخيراً، فقد أشار ابن خلدون إلى فضل الرحلة في طلب العلم، فذكر «أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم»^(٣). فكان هذا أحد الأسباب المهمة التي دفعت العلماء للتنقل والرحلة في طلب العلم.

٧- الموروث الحضاري:

لم تقم نهضة في تاريخ البشرية إلا باعتمادها على إنجازات من سبقها من الحضارات والأمم، فربما يخيل إلينا أن هناك حدوداً فاصلة في تاريخ الفكر، وأن حضارة الدول الفانية تذهب بذهابها، وهذا التخيل بعيد عن المنطق لارتباط التاريخ والحضارة ببعضهما بعضاً، فالحضارات اللاحقة تركز على علوم الحضارات السابقة وتقتبس منها، ثم تتابع مسيرة التطور الفكري.

(١) ينظر: «إنباء الغمر بأبناء العمر»: (٥/ ٣٢٧. ٣٣٢)، «الضوء اللامع» للسخاوي: (٤/ ١٤٦).

(٢) ينظر: «الدرر الكامنة» لابن حجر: (٤/ ١٠٠).

(٣) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٧٤٤.

وفي رؤية سريعة ومختصرة عن الحضارات التي سبقت دولة المماليك، نجد أولاً أن عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين قد شهد تقدماً ورقياً علمياً، وأن أول سورة أوحيت إلى سيدنا محمد ﷺ كان فيها حث على طلب العلم، ومبدؤها: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، لذلك امتلأ القرآن الكريم بالآيات الدالة على الحقائق العلمية، كالحقائق المتعلقة بعلم الفلك، وعلم طبقات الأرض والجغرافية، وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن علم النبات، وعلم الرياضيات، وفي أحاديث الرسول ﷺ صور كثيرة عن علم الطب، كالكي والحجامة^(١). وهذه الحركة العلمية ظلّت بالطبع ممتدة في عصر الخلفاء الراشدين.

وفي عصر دولة بني أمية (٤٠-١٣٢هـ - ٦٦٠-٧٥١م) اتجه العرب المسلمون إلى الاهتمام بعلم اللغة العربية من نحو وشعر وخطابة ورواية، ولم يهتموا كثيراً بالعلوم الرياضية والطبيعية ما عدا علم الكيمياء الذي برع فيه خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ - ٧٠٤م)، وتقدمت بقية العلوم كالفلسفة والطب، كما عرفت صناعة الغناء تطوراً سريعاً ولاسيما بعد دخول الموالي والفرس إلى قلب المجتمع.

وفي عصر الخلافة العباسية (١٣٢-٦٥٦هـ - ٧٥١-١٢٥٨م) خطت الأمة العربية والإسلامية خطوة جديدة واسعة في حياتها العقلية وحركتها العلمية، ووُضعت في هذا العصر تقريباً أسس كل العلوم، فقلّ أن نرى علماً نشأ إلا وكان قد وضع في العصر العباسي، كالتفسير والحديث والنحو والتاريخ والفلسفة والطب وغير ذلك من العلوم، فارتقت الحركة العلمية في

(١) من ذلك قوله ﷺ: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار، وأنا أنهي أمتي عن الكي» ينظر: «الطب النبوي» لابن قيم الجوزية، ص ٤٢.

ذلك العصر في جميع العلوم، وانتشرت المساجد والمدارس، وكثر العلماء وتنوعت علومهم.

وازدهرت الحركة العلمية في العصرين الزنكي والأيوبي (٥٢١- ٦٣٠هـ - ١١٢٧- ١٢٣٣م) (٥٦٩- ٦٦١هـ - ١١٧٤- ١٢٦٣م) كذلك، وكان أهم سبب وراء ذلك تشجيع ملوك هاتين الدولتين وسلاطينهم على العلم، فكان همهم إظهار شعائر الإسلام عن طريق بناء المساجد والمدارس والربط والخوانق والبيمارستانات، فانتشرت شتى أنواع العلوم، كعلوم القراءات والتفسير والفقه والتصوف والفلسفة والطب وعلوم اللغة العربية و التاريخ والجغرافيا وغيرها.

وجاء عصر المماليك، ووجد العلماء أمامهم ميراثاً علمياً ضخماً، وكان أمامهم تحد كبير استطاعوا التغلب عليه، فأعادوا خط ما أتلفه التتار، وانطلقوا نحو نهضة علمية لا مثيل لها، فوضعوا المؤلفات في جميع العلوم النظرية والتطبيقية، وخطوا خطوة واسعة في تاريخ الفكر، فظهر في ذلك العصر من الأعيان والمبدعين الذين إن أردنا الحديث عنهم وعن إنجازاتهم لكلفنا ذلك عشرات المجلدات.

وبذلك تابعت دولة المماليك المسيرة العلمية بعد أن تسلمتها من الحضارات التي سبقتها، يقول أحمد أمين: «ذلك بأن تاريخ الفكر في الأمم المختلفة يكاد يسلك سبيلاً واحداً، ويتدرج في درجات معينة، كل درجة تسلم إلى التي تليها متى تهيأت الظروف وتوافرت العوامل، وليس سيرها من قبيل طيف الخيال أو حلم النائم تنتقل حيثما اتفق، ولا يخضع في حركاته لقانون أو نظام».

٨- العامل السياسي :

تجلى العامل السياسي في وجوه عدة، منها ما يُفهم من مجمل ما تكلمت عنه عن الموروث الحضاري، فنلاحظ أنّ مظاهر العلم تنتقل مع انتقال الحكم (الخلافة)، فالمدينة المنورة كانت موطن الحركة العلمية وعاصمتها على عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم انتقلت هذه الحركة العلمية إلى دمشق بانتقال مقر الخلافة إليها وقيام الدولة الأموية، ثم انتقلت إلى بغداد بانتقال مقر الخلافة إليها وقيام الدولة العباسية، ثم كان سقوط العاصمة العباسية على يد التتار، فانتقل العلماء إلى مصر وقاهرته حيث استقر المماليك وأسسوا حكماً وسلطاناً، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة، فانتقل شأنهما من الخط والكتابة، بل والعلم إلى مصر والقاهرة»^(١). وهذا السر العظيم بانتقال العلم حيث تنتقل الخلافة بيّنه الإمام السيوطي بقوله: «واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، فصارت محل سكن العلماء، ومحط الرجال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية، حيث ما كانت يكون فيها الإيمان والكتاب»^(٢).

ومن وجه آخر، تميز عصر المماليك بظهور مؤلفات تاريخية سياسية ابتغى بعض مؤلفيها تمييز عصرهم بما شهد من أعمال بطولية تتطلب التمييز والتمجيد، وآخرون أرادوا التأريخ لعصر سلطان من السلاطين، وظهر من أراد أن يسجل تاريخاً لدولة المماليك إرضاءً لسلطانه أو جنسه.

(١) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٥٢٨.

(٢) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/١٠٢).

والأمثلة على هذا كثيرة، سأتناولها بالدراسة في فصل العلوم النظرية، وأختار هنا مثالين فقط، أولهما ابن شداد محمد بن علي (ت ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م) الذي خلف لنا كتابين، هما: «تاريخ الملك الظاهر» و«الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، وقد دفعه إلى تأليفهما حسن استقبال الظاهر بيبرس له عند قدومه إليه فاراً من حلب، ودفعه لذلك أيضاً ما تميز به عصر بيبرس من إنجازات كثيرة، وهذا واضح في كلام ابن شداد عندما قال: «لما حلت بمصر المحروسة وتبوت محالها المأنوسة، شملني من إنعام مولانا السلطان المجاهد المرابط ... معيد رونق الخلافة العباسية بعد مضيه وذهابه، الملك الظاهر الطاهر المقاصد ... ورتعت في إنعامه بين روضة وغدير ... رأيت انتهاز الفرصة في شكر إنعامه العميم، وإدراك البغية في وصف إكرامه الجسيم أن أصنع كتاباً أذكر فيه ما سن الله له من الفتوحات وملّكه ما كان بأيدي الكفار من منيعات الحصون والقلاع»^(١).

وأرّخ إبراهيم بن عبد الرحمن القيسراني القرشي الخالدي (ت ٧٥٣هـ - ١٣٥٢م) في كتابه «النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا الصالح» لسلطنة الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون، وهو السادس عشر من ملوك المماليك والرابع من بني محمد بن قلاوون، فيذكر القيسراني في مقدمة كتابه: «الحمد لله الذي أصلح شأن الأمة الإسلامية بأعظم سلطان نصّر وجهها وأقرّ عينها ... صالح بلغ آمالها وضاعف أمانها ... كيف لا وهو إسماعيل الأمة الذي جمع العباد على طاعته فأطاعوا أحكامه وما أضاعوا تحصيلها»^(٢).

(١) ينظر: «الأعلاق الخطيرة» لابن شداد: (١، ق ١، ص ١، ٢).

(٢) ينظر: «النور اللائح والدر الصادح في اصطفاء مولانا الصالح» لابن القيسراني، ص ٤٧.

وقد أفادتنا حركة التأليف السياسي هذه كثيراً، فورثنا منها كتباً مهمة نتج عنها مادة علمية لا تقدر بثمن لمعاصرة مؤلفيها للسلطين وقربهم من أحداث العصر، فكسبنا معلومات غنية عن سير السلطين وأعمالهم، وعن تاريخ دولة المماليك، وما رافق ذلك من أحداث في شتى المجالات، وهذا كله صب في حلقة الازدهار الفكري في مصر في عصر تلك الدولة.

٩- العامل الاقتصادي :

كان اقتصاد دولة المماليك البحرية متيناً ومزدهراً، لاهتمام السلطين بالزراعة والصناعة، وكذلك التجارة التي احتلت المكان الأول في الحياة الاقتصادية، ونتج عن هذا الازدهار الاقتصادي ثراء الدولة، وامتلاك المماليك لثروات طائلة، فكان إذا توفي أحد السلطين أو الأمراء خلف وراءه تركت هائلة، فانعكس ثراء الدولة على الأعمال العمرانية، واستطاعت أن تنفق من ذلك على بناء المؤسسات الدينية والعلمية والمدنية، وأن توقف الأوقاف عليها لضمان استمراريتها، كما عملت الدولة على الإنفاق بسخاء على هذه المؤسسات، مما جعلها تؤدي الدور المطلوب منها وأن تصل إلى الهدف المقصود، فشهدت بذلك مصر في عصر دولة المماليك البحرية نهضة عمرانية شاملة دفعت القلقشندي ليؤكد أن هذه الحال من النهضة العمرانية «لم يشع بمثله في قطر من الأقطار، ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار»^(١).

وهذه النهضة أبهرت أنظار الرحالة الأوربيين في العصور الوسطى، يقول جاستون فييت: «يمكننا أن نتخيل بسهولة مدى الدهشة التي تتملك رحالة

(١) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٤١٩/٣).

العصور الوسطى من الأوربيين حين يقفون على قمة جبل المقطم، فقد ذكروا أنه كان منظرًا من أجمل مناظر الدنيا، وقد زاد في روعته عدد لا يحصى من القباب والمآذن التي أضفت نوعاً من التغيير الجميل على المدينة التي تشابه سقوفها المسطحة»^(١).

ومن الملاحظ بعد استقراء التاريخ وأحوال الدول أن من أسباب انتشار العلوم وتطورها ما يصاحب تلك الدول من تقدم حضاري ونهضة عمرانية، وأكد ذلك ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان خاص هو: «في أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة» قائلاً: «واعتبر ما قرناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة، لَمَّا كثر عمرانها صدر الإسلام، واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين، ولما تناقص عمرانها وانذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة، وفُقد العلم بها والتعليم، وانتقل إلى غيرها من أمصار الإسلام، ونحن لهذا نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جعلتها تعليم العلم»^(٢).

١٠- العامل الاجتماعي:

انتهج حكام المماليك مع رجال الدين والعلماء نهجاً خاصاً يختلف عن معاملتهم لباقي فئات المجتمع، فتمتع رجال الدين ورجال الفكر بمميزات معينة، وبقدر وافر من الاحترام، وتسلموا مناصب مهمة في الدولة، أداروا

(١) ينظر: «القاهرة مدينة الفن والتجارة» ص ٩٧.

(٢) ينظر: «مقدمة ابن خلدون» ص ٥٤٨، ٥٤٩.

من خلالها كثيراً من الفعاليات، فكانوا صلة الوصل بين حكام المماليك والفئات الاجتماعية الأخرى، وهذا ما مكنهم من أداء أدوار مهمة تفيد المجتمع وترتقي به، ومكنهم من نيل حرية كافية لأداء واجباتهم ونشر أفكارهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ونتيجة لكثرة الأحداث وتسارعها، من حروب وثورات ومظالم وأزمات وأوبئة ومجاعات وأمراض، التجأت فئة كبيرة من أبناء المجتمع إلى العلماء، وساعد هذا كثيراً على تقدم الحياة الفكرية، حيث توافرت فئة متعلمة تخللت المجتمع برمته، وساهمت كثيراً في تسيير فعالياته، حتى باتت لبنة أساسية من لبناته.

من ناحية أخرى مختلفة، عاشت في مجتمع مصر في ذلك العصر عائلات علمية عريقة، قدّمت الكثير من أعيان العلماء وجهابذتهم، وشكلت بيوتاً علمية ميزت عصر المماليك، وكانت من أقوى أعمدة الحياة الفكرية فيه، ولعل أشهر بيوت العلم تلك العائلة السبكية، التي قدّمت أفاضل العلماء على مرّ الأيام، وعميد هذا البيت في عصر المماليك هو زين الدين عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف السبكي المصري (ت ٧٣٥هـ - ١٣٣٤م) الذي علم وحدث في القاهرة^(١)، ثم ولده تقي الدين علي السبكي (ت ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م) الحافظ والمفسر والمقرئ واللغوي والنحوي^(٢)، وأولاده تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت ٧٧١هـ - ١٣٦٩م) المفتي والمصنف والمدرّس، وجمال الدين حسين السبكي (ت ٧٥٥هـ - ١٣٥٤م)، وبهاء الدين أحمد السبكي (ت ٧٧٣هـ - ١٣٧١م) المفتي والمدرّس^(٣)، وولده

(١) ينظر: «أعيان العصر»: (٣/١٣١).

(٢) ينظر: «طبقات الشافعية» للأسنوي: (١/٣٥).

(٣) ينظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي: (٧/٢٤٦).

تقي الدين محمد (ت ٧٦٤هـ - ١٣٦٢م) الخطيب والمدرس، الذي ولاه السلطان مدارس والده^(١). وأخيراً المحدث ستيتة بنت تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) التي تعلم عليها العلماء^(٢).

وظهرت في صعيد مصر أسرة علمية كبيرة أخرى، هي أسرة ابن دقيق العيد، وعميدها في عصر المماليك مجد الدين علي بن وهب بن مطيع بن دقيق العيد (ت ٦٦٧هـ - ١٢٦٨م)^(٣)، وسمى الناس جده بدقيق العيد عندما شاهدوا عليه في يوم عيد طيلساناً شديداً البياض، فقال بعضهم: كأنه دقيق العيد، فلقّب به، ومن أولاد مجد الدين سراج الدين موسى (ت ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م) الذي انتهت إليه رئاسة الفتوى في قوص، وتقي الدين محمد (ت ٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) الحافظ المحدث، ومن أولاد تقي الدين محمد ولي الدين طلحة (ت ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م) فقيه الشافعية، ومحِب الدين علي (ت ٧١٦هـ - ١٣١٦م) محدث القاهرة ومدرّسها، وكذلك كان للمرأة مكانها في هذا البيت، ومثله فرقية بنت تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد (ت ٧٤١هـ - ١٣٤٠م) التي حدثت في القاهرة وأجازت للطلاب، ومن الأسر العلمية أيضاً أسرة كجك اليهودية، وكان أكثر أبنائها من المساهمين في العلوم الطبية، وجُلهم تخرج على يد ابن النفيس^(٤).

وغير هذه الأسر العلمية^(٥) التي شكلت بيوت علم أغنت مصر ورفدت

(١) ينظر: «أعيان العصر» للصفدي: (٤/٢٧٩)، «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي: (١٤/٢٣٩).

(٢) ينظر: «إنباء الغمر» لابن حجر: (١/١١٧)، «الدرر الكامنة»: (٢/٢٢٤).

(٣) ينظر: «ذيل مرآة الزمان»: (٢/٤٢٠)، «الطالع السعيد» الأدفوي، ص ٤٢٤، «العبر» للذهبي: (٥/٢٨٦).

(٤) ينظر: «المسالك» للعمري، نشرة سزكين: (٩/٣٥٤، ٣٥٥).

(٥) ينظر: «مرآة الجنان وعبرة اليقظان»: (٤/١٤٥-١٧١)، «أعيان العصر»: (٣/١٨٣، ١٨٦).

النشاط الفكري بأبنائها الذين امتزجوا في مسار الحياة الفكرية.

تلك كانت هي الظروف والعوامل التي أفرزت النهضة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية، التي شكلت عاملاً مغرياً وجاذباً للعلماء وغيرهم للتوجه نحو الديار المصرية والإقامة فيها، بعد أن باتت مقر السلطان المملوكي والخليفة العباسي، ومستقر المؤسسات الحكومية، ومركز العلم والتعليم، واستقرت الأحوال السياسية فيها بعد مواجهة الغزو الأجنبي، وتمكن فيها الاقتصاد، في حين ساءت أحوال البلدان الأخرى، بل واندثر أكثرها، فغدت مصر في ظل هذه الأحوال الملجأ الوحيد الآمن، ومستقر كل من أتى إليها، فأغرى ذلك فئة من المشاركة والمغاربة والأندلسيين، في الانتقال إليها. فلا عجب بعد عظم هذه الإيجابيات، وأمام هذه المغريات، أن يفد مصر كبار العلماء، كابن خلدون وابن تيمية وابن مالك الأندلسي وابن فضل الله العمري وأبو حيان الغرناطي وابن خلكان وتاج الدين السبكي، وغيرهم.

المطلب الثاني: مقومات الحياة الفكرية (المساجد والمدارس)

تمهيد:

جاءت دولة المماليك لتكمل إنشاء المؤسسات العلمية والتربوية، وكان الأيوبيون قد سبقوها بإنشاء المدارس، لكن هذه المدارس زادت أعدادها في عصر المماليك زيادة لم تكن في أي عصر من عصور مصر الإسلامية، وكذلك المساجد التي نشأت مع ظهور الدين الإسلامي، زادت أعدادها أيام المماليك، وازدهرت باقي المؤسسات كالربط والزوايا والخوانق.

ولم تقتصر المؤسسات العلمية والتربوية على مصر الفسطاط والقاهرة،

بل تجاوزتهما إلى الإسكندرية ودمياط ومدن الصعيد وبقاع مصر الأخرى. وكان عصر الظاهر بيبرس وعصر الناصر محمد بن قلاوون من أبهى أيام المماليك وأزهاها ازدهاراً ونشاطاً علمياً لما شهداه من الإكثار من بناء العمائر الدينية والعلمية، ورقى العناية بها وبالعلماء القائمين عليها.

المساجد:

من المعروف أن المسجد اسم للمكان المهيأ والمعد لإقامة الصلاة وأداء العبادة والفرائض المكتوبة، ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه، اشتق منه اسم المسجد، فقليل مسجد، ولم يقولوا مرع^(١).

وأول مسجد وُضع للناس على هذه الأرض هو المسجد الحرام، وهو الذي في مكة المكرمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقوله ﷺ في حديث رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، قال: «سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وُضع على الأرض، فقال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي، قال: المسجد الأقصى»^(٢).

أ - أهمية المسجد ووظيفته:

لابد من التعريف بأهمية المسجد بغية معرفة وظيفته الفكرية، فأحب البقاع إلى الله تعالى المساجد، فقد ورد ذلك في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»^(٣)، ولذلك كان المسجد حياة رسول الله ﷺ، فأول عمل بدأ به

(١) ينظر: «إعلام الساجد بأحكام المساجد» للزرکشي، ص ١٣. ١٥.

(٢) ينظر: «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»: (٣/٦٣).

(٣) أخرجه مسلم: ١٥٢٨.

حين قدم المدينة كان بناؤه لمسجد قباء^(١).

والمسجد أول مدرسة في الإسلام، ولم تكن مهمته مقصورة على أداء العبادات، بل كان مدرسة كبرى يعلم فيها الرسول ﷺ أصحابه، فيجلس فيه ليعلم الجاهل، ويفتي السائل، ويعبر الرؤيا، ويبين أحكام الشرع، فصار المسجد مدرسة المسلم التي يتعلم فيها كل ما ينفعه من أمور دينه ومصالح دنياه، فارتبطت حياته به، ففيه يتعلم ويتعبد، وبه يلقي إخوانه^(٢).

وفي حديث النفر الثلاثة: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المجلس والناس معه إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على مجلس رسول الله ﷺ سلما، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»^(٣).

ولم يكن المسجد مركزاً للعبادة والتعليم فحسب، بل استخدم لأغراض أخرى مهمة، فمنه خرجت جيوش المسلمين لتفتح مشارق الأرض ومغاربها^(٤)، كما استخدم في أثناء المعارك لمعالجة الجرحى، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق في الأكلح، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب»^(٥).

(١) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام، ص ٢٢٨.

(٢) ينظر: «الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه» للوكيل، ص ١٤، ١٥.

(٣) ينظر: «الموطأ»: (١/٧٣٢).

(٤) ينظر: «المسجد في الإسلام» للوانلي، ص ٣.٨.

(٥) أخرجه البخاري: ٢٨١٣.

وشكل المسجد في العصر الأموي ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، فكان على كل أمير أو عامل من عمال الأقاليم إقامة مسجد جامع يمثل مسجد الدولة الرسمي، وإذا علمنا أن الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة في المسجد الجامع يكون شارة من شارات الخلافة، وأن عدم ذكر اسمه يعني خلعه، تبين لنا الدور السياسي إلى جانب الدور الديني والفكري الذي لعبه المسجد^(١).

لذلك كان المسجد أول وحدة عمرانية تبنى عند إنشاء المدن في الأمصار الإسلامية، حيث تتفق الروايات التاريخية على ذلك، فأول وحدة عمرانية تأسست في البصرة هي المسجد الجامع حيث اختط عام ١٤هـ - ٦٣٥م، وفي الكوفة عُدَّ المسجد الجامع أول وحدة طبوغرافية اتخذها سعد بن أبي وقاص، وكذلك فعل عقبة بن نافع في القيروان، وعندما أمر الحجاج بن يوسف الثقفي ببناء مدينة واسط ابنتى أولاً قصره ثم ابنتى إلى جواره المسجد الجامع، وفعل مثله أبو جعفر المنصور عند بنائه لمدينة بغداد^(٢).

وورد في شأن بلاد ما وراء النهر نصٌ يفيد بأن هذه البلاد تشتمل على قرى كبار تشبه المدن حجماً، ولا ينقصها أن تكون مدينة إلا وجود المسجد الجامع، وعند دخول الفاطميين إلى مصر، فإن أول عمل قاموا به هو بناؤهم للجامع الأزهر، فكان قيام هذا الجامع متزامناً مع قيام الدولة الفاطمية في مصر، وإنشائه تم غداة قيام عاصمتهم الجديدة القاهرة. وفي العصر العباسي تنوعت حلقات الدروس بسبب تنوع علوم ذلك العصر، فظهرت حلقات

(١) ينظر: «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» ص ٣١.

(٢) ينظر: «دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية» ناجي، ص ١٦١، ١٨٨، ٢٥٤، ٣٠٣،

يُدْرَس فيها النحو وأخرى لعلم الكلام، وظهر التناظر في الشعر وما أشبه ذلك^(١).

ب - مساجد مصر :

تعطينا مصادر العصر المملوكي صورة عن انتشار المساجد في جميع أنحاء الديار المصرية، بحيث لا تكاد تخلو بقعة فيها من مسجد، وهذا مؤشر صادق على تلك النهضة التي شهدتها ذلك العصر، في حين لم يكن يوجد في مصر حين فُتحت سوى جامع واحد تقام فيه صلاة الجمعة، وهو جامع عمرو بن العاص.

ثم جاء عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس من العراق عام ١٣٣هـ - ٧٥٢م ملاحقاً مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، فبنى عدة أبنية في موضع سُمِّي بالعسكر، فأقيمت صلاة الجمعة هناك، فصارت الجمعة تقام في جامع عمرو وفي جامع العسكر، إلى أن بنى أحمد بن طولون جامعاً، فأبطلت الخطبة من جامع العسكر، وصارت تقام في جامع عمرو وجامع ابن طولون، وظل الأمر كذلك إلى أن جاء الفاطميون ودخلوا مصر، فاختم القائد جوهر الصقلي القاهرة، وبنى الجامع الأزهر عام ٣٦١هـ - ٩٧٢م، فأصبحت الجمعة تقام في ثلاثة مساجد، وبعد ذلك بنى العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله جامعاً أكمله ابنه الحاكم بأمر الله، فأطلق عليه اسم جامع الحاكم، ثم أنشأ الحاكم بأمر الله جامعي المقس وراشدة، فصارت الجمعة تقام في هذه الجوامع الستة حتى نهاية دولة الفاطميين عام ٥٦٧هـ - ١١٧١م، حيث أبطلت الجمعة في الجامع الأزهر وبقيت فيما عداه^(٢).

(١) ينظر: «ضحى الإسلام» لأحمد أمين: (٥٢/٢، ٥٣).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢/٢٤٤، ٢٤٥)، «حسن المحاضرة»: (٢/٢١٢).

وعندما قامت دولة المماليك أحدثت مساجد كثيرة، دلت على ذلك أقوال مؤرخي العصر المملوكي الكثيرة، فالقلقشندي يذكر أنه: «كثرت عمارة الجوامع بالقاهرة في الدولة التركية، خصوصاً في الأيام الناصرية - يقصد الناصر محمد بن قلاوون - وما بعدها، فعمرَّ بها من الجوامع ما لا يكاد يحصى كثرة»^(١)، ويقول في موضع آخر: «وأما مساجد الصلوات الخمس فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى».

ويقول المقرئزي: (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م): «وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مئة وثلاثين مسجداً»^(٢). ويقول خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ - ١٤٦٨م) «إنَّ بمصر والقاهرة داخل السور وخارجه ألف خطبة ونيف»^(٣). وعند حديثه عن الناصر محمد بن قلاوون، يذكر يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ - ١٤٦٩م) أنه: «عُمِّرت في أيامه بالديار المصرية عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعاً»^(٤).

وتحدث ابن أبيك الدواداري (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) عن الجوامع التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون في مصر والقاهرة جامعاً جامعاً، فبلغ عددها (٢٧) جامعاً، وذلك فضلاً عن الجوامع في سائر الأعمال المصرية قبليها وبحريها. ولا أدل على كثرة مساجد مصر مما يعرضه ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ - ١٤٠٦م) عندما عدد وسمى المساجد المنتشرة في جميع أرجاء مصر، سواء في الأسواق أو في الدروب والأزقة، فلا يكاد يخلو أي

(١) ينظر: «صبح الأعشى»: (٤١٣/٣).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢٤٥/٢).

(٣) ينظر: «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لابن شاهين: ص ٣١.

(٤) ينظر: «النجوم الزاهرة»: (١٤٤/٩، ١٤٥).

منها من خمسة أو أربعة مساجد على الأقل، ويصل العدد في بعضها إلى عشرين مسجداً^(١).

لقد نشط سلاطين دولة المماليك البحرية في بناء المساجد وهندستها وتزيينها ورصد الأوقاف لها، وقلدهم في ذلك الأمراء الذين شاركوا في هذا النشاط، وكان لرعايا هذه الدولة يدٌ في هذه الأعمال أيضاً، وهذا ما دفعني لأقسّم الحديث عن مساجد مصر بحسب منشئها إلى: مساجد سلطانية ومساجد أميرية ومساجد رعايا الدولة.

- المساجد السلطانية:

اهتم سلاطين دولة المماليك البحرية ببناء المساجد أو ترميمها وتجديدها، فالظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أنشأ في موضع خارج القاهرة جامعاً سُمي باسمه: جامع الظاهر، وكان مهتماً جداً بهذا البناء، فسير بدايةً جماعة من المهندسين للكشف عن مكان لائق، فاختاروا ميدان قراقوش^(٢)، ثم كتب بإحضار عمد الرخام من سائر البلاد، والجمال والجواميس والأبقار والدواب من سائر الولايات، وأمر بجلب الآلات والحديد والأخشاب من أجل الأبواب والسقوف وغيرها.

ثم توجه ٦٦٦هـ - ١٢٦٧م إلى بلاد الشام، فنزل يافا وتسلمها من الفرنج بأمان، ثم هدمها وقسّم أبراجها على الأمراء، ونقل كثيراً من أخشابها ورخامها إلى القاهرة، واستخدمه في بناء جامعها، وكان قد ابتدئ به في ربيع

(١) ينظر: «الانتصار»، ق ١، ص ٧٩. ٩٢.

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/١٩٧، ١٩٨).

الآخر عام ٦٦٥هـ - ١٢٦٦م، وكملت عمارته في شوال من عام ٦٦٧هـ - ١٢٦٨م^(١).

وكان الظاهر بيبرس قد أنهى في عام ٦٦٢هـ - ١٢٦٣م بناء مسجد بجوار المشهد الحسيني بالقاهرة^(٢)، وجدد الجامع الأحمر الذي بناه الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله^(٣)، وجدد الأزهر^(٤).

وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون أكثر سلاطين المماليك عناية بالمساجد، وقد وضحت أقوال المؤرخين التي استعرضتها ذلك، وذلك ما جعل المقرئ يقول عنه «كان محباً للعمارة وبلغ مصروف العمارة في كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة»^(٥)، وأشار ابن دقماق إلى كرم الناصر بقوله: «أما نفقات العمائر فكان شيئاً خارجاً عن الحد».

ومن أعماله تشييده لجامع القلعة على قلعة الجبل، وسُمي هذا الجامع باسمه أيضاً، وكان مكانه جامع قديم وبجواره عدة أبنية، فهدم الجميع وعمّر جامع على أحسن شكل، وأنشأ معه قبة ومقصورة، وكان ذلك عام ٧١٨هـ - ١٣١٨م^(٦)، ويصف المقرئ هذا الجامع بأنه «أحسن عمارة، وعمل فيه من الرخام الفاخر الملون شيئاً كثيراً، وعمّر فيه قبة جليلة، وجعل عليه مقصورة

(١) ينظر: «نهاية الأرب»: (١٣٣/٣٠، ١٣٤).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٤١٣/٢)، «فوات الوفيات»: (٢٤٢/١).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٢٩٠/٢).

(٤) ينظر: «تاريخ الملك الظاهر» ص ٣٤٥، ٣٦٠.

(٥) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣٠٦/٢).

(٦) ينظر: «السلوك» للمقرئ، ٢، ق ١، ص ١٨٤.

من حديد بديعة الصنعة، وفي صدر الجامع مقصورة من حديد أيضاً برسم صلاة السلطان^(١).

وفي عام ٧١٤هـ - ١٣٦٤م بنى الناصر محمد جامعاً عند المشهد النفيسي، وحضر أول خطبة جمعة فيه أمير المؤمنين المستكفي بالله أبو الربيع سليمان وولده^(٢). وأربى اهتمام الناصر محمد بتجديد المساجد وترميمها على اهتمامه بعمارتها، فقد أصلح ما كان فيها من المساجد، وذلك عمل يُسجل في إنجازاته الكثيرة، وقد بلغ عدد المساجد المجددة في عصره ثلاثين جامعاً تقريباً فاستحق بذلك وصف أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ - ١٣٣٣م) له بسلطان العصر^(٣).

وشيد السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون جامعاً يعد من أشهر جوامع مصر وأعظمها، ويشكل أنموذجاً صادقاً لجوامع مصر في عصر المماليك، لما فيه من عظمة البناء ووضوح الهدف، ابتداءً بعمارته في موضع تحت قلعة الجبل عام ٧٥٧هـ - ١٣٥٦م، واستمر بناؤه ثلاثة أعوام، رصد له في كل يوم عشرين ألف درهم^(٤).

وخير وصف لعظمة هذا الجامع ما قاله الحسن بن حبيب المعاصر للسلطان حسن: «وهو بناء مشيد محكم، عظيم الشأن، مرفوع القواعد، عالي الأركان، متسع الفناء، ثابت الأساس، يكاد يخرج عن الحد

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٢٥/٢)، «السلوك» للمقريزي: (٢، ١، ص ١٨٤).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٠٦/٢).

(٣) ينظر: «نهاية الأرب» للنويري: (٢٦٧/٣١).

(٤) ينظر: «تذكرة النبيه» لابن حبيب: (٢٠٩/٣).

والقياس، يشتمل على جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة، ارتفاع الأكبر القبلي منهن يزيد على إيوان كسرى بثلاثة أذرع على ما ذكر، وفي صدره قبة تضاهي قبة النسرة التي بجامع دمشق، وفيه المنبر، وبه تقام الجمعة، والأواوين الثلاثة دونه، وعلى كتفي الإيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلى مدرستين، وعلى كتفي الإيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن، الأيمن منهما مجاز إلى الجامع المذكور، والأيسر تنطرق منه إلى دهليز ينتهي إلى أماكن وبيوت ومساكن ومرافق، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة، وعلى بابه سبيل يُسقى فيه ماء النيل على أحسن وضع، وفوقه مكتب برسم تعليم الأيتام، وفيه منافع كثيرة، وله محاسن وجوهها منيرة، أسواره رفيعة، ومقاماته بديعة، وقبته شاهقة، وقنطرة باسقة، ومطارفه أنيقة، وزخارفه شريفة، وأبوابه عالية، ومنازله من الخلل خالية، لقد أعجز من يماثله، وعلا على من يشاكله»^(١).

وللسلطان عز الدين أيبك التركماني أول سلاطين المماليك البحرية تجديد لجامع عمرو بن العاص، فقد «جدد بياض الجامع وأزال شعثه، وجلى عمدته، وأصلح رخامه حتى صار جميعه مفروشاً بالرخام، وليس في سائر أرضه شيء بغير رخام حتى تحت الحصر».

وفي عام ٦٩٦هـ - ١٢٩٦م أمر السلطان حسام الدين لاجين بتجديد عمارة الجامع الطولوني، وندب لذلك الأمير علم الدين سنجر الدواداري، وأقرّ لذلك عشرة آلاف دينار من خالص ماله^(٢).

(١) ينظر: المصدر السابق: (٣/٢٠٩، ٢١٠).

(٢) ينظر: «نهاية الأرب» للنويري: (٣١/٣٢١، ٣٢٢).

- المساجد الأميرية :

فاق عدد المساجد المبنية من قبل الأمراء المساجد السلطانية، وربما يعود تفسير ذلك إلى انشغال السلاطين بأعباء الحكم ومسؤولياته أكثر من الأمراء، فبلغ مثلاً عدد الجوامع المبنية من قبل أمراء الناصر ابن قلاوون وكتابه قرابة ثلاثين جامعاً^(١).

فالأمير سيف الدين قوصون (ت ٧٤٢هـ - ١٣٤١م) أحد المماليك السلطانية، وصاحب الشأن في سلطنة مصر، بنى عام ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م جامع قوصون خارج باب زويلة^(٢)، وبنى الأمير عز الدين أيدير الخطيري (ت ٧٣٧هـ - ١٣٣٦م) أحد أمراء الناصر ابن قلاوون جامع الخطيري بناحية بولاق^(٣)، وأكثر الخطيري من الاهتمام بجامعه هذا، فبالغ في عمارته وتأنق في رخامه حتى جاء من أجمل جوامع مصر كما وُصف^(٤)، وأنشأ الأمير بدر الدين محمد التركماني (ت ٧٣٨هـ - ١٣٣٧م) متولي دواوين الدولة جامع التركماني^(٥).

وأما الأمير الطنبغا المارداني (ت ٧٤٤هـ - ١٣٤٣م) أحد أمراء محمد بن قلاوون والي حماة ثم حلب، فقد شيّد جامع المارداني خارج باب زويلة في مكان كان مقابر لأهل القاهرة^(٦)، والأمير آقسنقر الناصري (ت ٧٤٤هـ -

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (٢/٢١٢).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣٠٧)، «أعيان العصر» للصفدي: (٤/١٣٧، ١٣٨).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣١٢)، «الوافي بالوفيات»: (١٠، ١٧، ١٨).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣١٢).

(٥) المصدر السابق: (٢/٣١٣).

(٦) ينظر: «أعيان العصر»: (١/٦٠٥، ٦٠٦).

١٣٤٣م) أحد مماليك المنصور قلاوون ونائب صفد وغزة، بنى جامع آقسنقر قرب قلعة الجبل^(١)، بناه من الحجر والرخام، وكان يشرف بنفسه عليه، ويحمل التراب مع العمال^(٢).

وفي عام ٧٤٦هـ - ١٣٤٥م شيّد الأميرُ بهاء الدين أصلم (ت ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م) أحد مماليك المنصور قلاوون جامع أصلم^(٣)، وأنشأ جامع آل ملك الأمير سيف الدين الحاج آل ملك (ت ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م) أحد كبار الأمراء ونائب حماة ودمشق، أنشأه بالحسينية خارج باب النصر^(٤)، وبنى الأمير سيف الدين شيخو الناصري (ت ٧٥٨هـ - ١٣٥٦م) أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون جامع شيخو تحت قلعة الجبل^(٥)، وأنشأ الأمير سيف الدين منجك اليوسفي (ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) جامع منجك تحت قلعة الجبل أيضاً^(٦).

- مساجد رعايا الدولة:

لم يقف النشاط العمراني عند السلاطين والأمراء، فكان لرعايا دولة المماليك في ذلك مشاركة محمودة.

- (١) ينظر: «الوافي بالوفيات»: (٣١٣/١١، ٣١٤)، «الخطط» للمقريزي: (٣٠٩/٢)، «المنهل الصافي»: (٤٩٦/١، ٤٩٧).
- (٢) ينظر: «الخطط»: (٣٠٩/٢).
- (٣) ينظر: «أعيان العصر»: (٥٤٠/١).
- (٤) ينظر: «الخطط»: (٣١٠/٢، ٣١١)، «الوافي بالوفيات»: (٣٧٢/١، ٣٧٣).
- (٥) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣١٣/٢، ٣١٤).
- (٦) ينظر: «إنباء الغمر»: (١٤٨/١)، «الخطط» للمقريزي: (٣٢٠.٣٢٣/٢)، «النجوم الزاهرة»: (١٠٨/١١).

فالعالم صاحب تاج الدين محمد بن محمد بن سليم بن حنا (ت ٧٠٧هـ - ١٣٠٧م) نائب الوزارة، بنى عام ٦٧٢هـ - ١٢٧٣م جامع دير الطين^(١)، وشيّد جامع ابن الظاهر بالقرافة الصغرى العالم فتح الدين محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر (ت ٦٩١هـ - ١٢٣٩١م)، كاتب الإنشاء وصاحب المناصب العالية في عصر المنصور قلاوون^(٢).

وشيّد القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م) الجامع الجديد الناصري على شاطئ النيل من ساحل مصر، ومساجد أخرى كثيرة^(٣)، وبني جامع الأسيوطي بطرف جزيرة الفيل بناحية بولاق القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر السيوطي (ت ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) ناظر بيت المال^(٤).

وأنشأ رئيس الأطباء في ديار مصر صلاح الدين يوسف المغربي جامع ابن المغربي على الخليج الناصري^(٥)، وبني الدلال نجم الدين بن غازي عام ٧٤١هـ - ١٣٤٠م جامع ابن غازي، وشيّد أحد جنود الجيش ويُعرف ببركة جامع بركة، وأنشأ جوهر السحرتي اللالا أحد خدام الناصر بن قلاوون جامع الطواشي عام ٧٠١هـ - ١٣٠١م^(٦).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٢٩٨، ٢٩٩، ٤٢٩).

(٢) ينظر المرجع السابق: (٢/٣٢٤).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢، ٣٠٤)، «الوافي بالوفيات»: (٤/٣٣٥، ٣٣٦).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣١٥).

(٥) ينظر المصدر السابق: (٢/٣٢٨)، «إنباء الغمر»: (١/١٤٩).

(٦) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣١٣، ٣٢٥، ٣٢٦).

ج - نشاط المساجد الفكري:

أقيمت مجالس العلم في مساجد مصر في العصر المملوكي، ودُرِّس فيها العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها، وبذلك ظلَّ المسجد يؤدي الدور الفكري إلى جانب دوره الديني.

ويجعل محمد بن محمد بن محمد العبدري، الشهير بابن الحاج (ت بالقاهرة ٧٣٧هـ - ١٣٣٦م) مواضع التدريس ثلاثة: البيت والمدرسة والمسجد، وعلى الرغم من كثرة المدارس في العصر المملوكي، فإن ابن الحاج يرى أنَّ أفضل مواضع التدريس المسجد، ويعلل ذلك بعدة أسباب، منها أن التدريس بالمسجد إنما فائدته أن تُظهر سنة أو تخدم بدعة أو يُعلم به حكم من أحكام الله تعالى، ويساعد على ذلك كون المسجد موضع مجتمع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم، بخلاف البيت المقصور على أهله، فكان المسجد أولى لأنه أعم في توصيل الأحكام وتبليغها للأمة، ويضيف أن المسجد أفضل من المدرسة بالذات لسببين: الأول لما في ذلك من اقتداء بالسلف الذين لم تكن لهم مدارس يدرسون فيها غير المسجد، والثاني كون المدرسة لا يدخلها في الغالب إلا من له رغبة في طلب العلم، فلا يصل العلم إلى من لا رغبة له فيه، ومن ثم فإن المقصود من التدريس إنما هو التبيين للأمة وإرشاد الضال وتعليمه والدلالة على الخيرات، وذلك كله موجود في المسجد أكثر من المدرسة^(١).

فكان المسجد في مصر في عصر المماليك أشبه بمدرسة يتلقى فيه طلبة العلم مختلف أنواع العلوم، وخير مثال على ذلك الجامع العتيق، الذي يقال

(١) ينظر: «المدخل» لابن الحاج: (١/٨٥).

له أيضاً جامع عمرو بن العاص، كان فيه في كل بقعة حلقة علم، وينقل المقرئ عن غيره من العلماء أنه كان في هذا المسجد قبل وباء عام ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه^(١)، وفيه ثماني زوايا دُرِّس فيها العلوم، وهي:

- ١- زاوية الإمام الشافعي، وسماها ابن دقماق بالزاوية الخشابية، وعُرفت بزاوية الشافعي لأن الإمام الشافعي دُرِّس فيها قديماً فُعُرفت به، ودرِّس فيها في العصر المملوكي أعيان العلماء والفقهاء.
- ٢- الزاوية المجدية، وتقع في صدر الجامع فيما بين المحرابين، وعُدَّ التدريس فيها من المناصب الجليلة، لذلك دُرِّس فيها كثير من العلماء والفقهاء.
- ٣- الزاوية الصاحبية التاجية، ورُتّب فيها مدرسون لفقهِ الشافعية وفقهِ المالكية.
- ٤- الزاوية الكمالية.
- ٥- الزاوية التاجية، وتقع أمام أحد المحارِب، وجُعِل فيها مدرس فقيه.
- ٦- الزاوية المعينية، في الجانب الشرقي للجامع.
- ٧- الزاوية العلائية، بجانب صحن الجامع الغربي.
- ٨- الزاوية الزينية^(٢).

وقُررت في جامع الحاكم أربعة دروس لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة، ودرسُ لإقراء الحديث النبوي، ودرسُ للنحو، ودرسُ لتعليم

(١) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٢٥٦/٢).

(٢) ينظر: «الانتصار»: (١٠٠/١، ١٠١)، «الخطط» للمقرئ: (٢٥٥/٢، ٢٥٦).

القراءات السبع، ولكل درس مدرّس وعدد كثير من الطلبة، ورُتّب فيه أيضاً متصدرون لتلقين القرآن الكريم، وعدد من القراء يتناوبون على قراءة القرآن، ومعلمٌ يُقرئ أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل^(١).

ورُتّب في جامع ابن طولون دروس لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة، ودرس لتفسير القرآن العظيم، ودرس للحديث الشريف، ودرس لتعليم الطب، وفي عام ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م أُدخل فيه سبعة من المدرسين المختصين بتدريس المذهب الحنفي^(٢).

وأما جامع السلطان حسن، فقد طغت عليه صفة المدرسة أكثر من المسجد، دلت على ذلك أقوال المؤرخين، وقد تقدم قول ابن حبيب عنه، ويسميه القلقشندي بالمدرسة، ويلقبها بالمدرسة العظمى^(٣)، ويصفه المقرئزي بالجامع المدرسة، فيقول عنه: «هذا الجامع يُعرف بمدرسة السلطان حسن» و«في هذا الجامع عجائب من البنيان ... ومنها المدارس الأربعة التي بدور قاعة الجامع»^(٤).

وحفلت مساجد مصر الأخرى بالفعاليات العلمية، ودُرّس فيها مختلف أنواع العلوم، كإقراء القرآن الكريم، والتفسير، والحديث، وفقه المذاهب الأربعة، والنحو، والطب، والتصوف، وغير ذلك من العلوم، وذلك أضاف إلى المسجد دوراً رائداً في الحياة الفكرية، فكان من أقوى المؤسسات تأثيراً في حياة الناس و فكرهم آنذاك.

(١) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢/٢٧٨).

(٢) ينظر: «نهاية الأرب» للنويري: (٣١/٣٢٢)، «الخطط» للمقرئزي: (٢/٢٦٩).

(٣) ينظر: «صبح الأعشى» للقلقشندي: (٣/٤١٥).

(٤) ينظر: «الخطط» للمقرئزي: (٢/٣١٦).

فهذه نشاطات كثيرة شهدتها مساجد مصر، جعلت المسجد يتبوأ مكان الصدارة أمام أغلب المؤسسات الأخرى، فكان أهم تلك النشاطات الدور الفكري الذي مارسه المسجد مشاركاً بذلك المؤسسات العلمية الأخرى، ومساهمًا في تعليم العلوم ونشرها.

٢- المدارس:

أ - نشأة المدرسة:

لم تُعرف المدرسة الرسمية إلا في قرون متقدمة من التاريخ الإسلامي، وقبل نشأتها انتشرت أماكن كثيرة للتعليم، وبقراءة المصادر والمراجع من الممكن أن أحصي هذه الأماكن في ما يلي:

١- الكتاب: انتشر هذا النوع في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، وكان انتشاره بطيئاً^(١)، إلى أن جاء الدين الإسلامي، فاستخدمت الكتابات لتعليم القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي، فلما كثرت الفتوحات الإسلامية، وازداد دخول الناس في الإسلام من عرب وعجم كثر الولدان، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببناء بيوت المكاتب، ورتب الرجال فيها للتعليم والتأديب^(٢)، وكان المعلم في الكتاب يُسمى معلم صبيان أو معلم كتاب^(٣).

٢- القصور: انتشر التعليم في قصور الخلفاء والعظماء، وهو تعليم أولي ابتدائي يهدف إلى تعليم أبناء هؤلاء ليؤهلوا لتحمل أعباء المستقبل^(٤)،

(١) ينظر: «تاريخ التربية الإسلامية» أحمد شلبي، ص ٤٤.

(٢) ينظر: «التربية الإسلامية وفلاسفتها» للأبراشي، ص ٧٣، ٧٤.

(٣) ينظر: «تاريخ التربية الإسلامية» أحمد شلبي، ص ٥٨.

(٤) من أشهر المؤدبين في قصور الخلفاء مؤدبو الأمين والمأمون ولدي هارون الرشيد، وأشهرهم =

ولا يُسمى المعلم هنا بمعلم الصبيان أو معلم الكتاب، وإنما يُطلق عليه لفظ مؤدب.

٣- حوانيت الورّاقين: ويمكن الربط هنا بين أسواق العرب في الجاهلية، وبين دكاكين بيع الكتب في الإسلام، ففي تلك الأسواق كان العرب يجتمعون للقيام ببعض الصفقات التجارية، لكنهم كانوا ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية، فينشدون الأشعار ويلقون الخطب، ويعقدون المناظرات، وفي ذلك شبه كبير مع دكاكين بيع الكتب، فهي مفتوحة في الأصل لأعمال تجارية، ثم أصبحت مسرحاً للثقافة والحوار العلمي.

وقد ظهرت دكاكين بيع الكتب منذ مطلع الدولة العباسية، ثم انتشرت بسرعة في العواصم والبلدان المختلفة من العالم الإسلامي، ولم يكن بائعو الكتب تجاراً يبتغون الربح فحسب، وإنما كانوا في أغلب الأحيان أدباء ذوو ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة، والأهم من ذلك أن هذه الدكاكين كانت تجذب إليها العلماء.

٤- منازل العلماء: كان التعليم في المنزل معروفاً منذ عصر الإسلام المبكر وقبل نشأة المسجد، فالرسول ﷺ اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مكاناً تلتقي فيه المجموعة المسلمة، ويدعو فيه الناس إلى الإسلام، يقول محمد بن سعد صاحب الطبقات (ت ٢٣٠هـ - ٨٤٤م): «وكانت داره بمكة على الصفا، وهي الدار التي كان النبي ﷺ يكون فيها في أول الإسلام، وفيها دعا الناس إلى الإسلام، وأسلم فيها قوم كثير»^(١).

= علي بن حمزة بن عبد الله الكسائي، شيخ القراء والنحاة، وصاحب إحدى القراءات السبع المشهورة، توفي عام ١٨٩هـ = ٨٠٦م، ينظر «التاريخ الكبير» للبخاري: (٦/٢٦٨).

(١) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد: (٣/١٨٣).

٥- الصالات الأدبية: ظهرت في العصر الأموي، وانتشرت بكثرة في العصر العباسي، وهي مجالس الخلفاء ومن يسمح له بحضورها، وهي ليست إلا تطوراً لمجالس الخلفاء الراشدين، يجلسون للناس في المسجد أو خارجه يُفتون ويُبينون^(١).

٦- البادية: تركزت ثقافة العرب في العصر الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة، فكانت اللغة العربية حتى صدر الإسلام فصيحة سليمة، إلا أن اتصال العرب بغيرهم واختلاطهم بالأعاجم أفسد لسانهم، فظهر اللحن في لغتهم، وبينما كان هذا اللحن يفسو في الحضر، بقيت اللغة سليمة في الصحراء التي لم يدخل إليها العجم، كذلك أصبح البدو هم الذين تؤخذ عنهم اللغة الصحيحة السليمة، فوفد الكثير من البدو إلى القرى والمدن وجلسوا يعلمون الناس، وهاجر بعض الأمراء والعلماء إلى البادية ليتعلموا اللغة من منبعها الأصيل^(٢)، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل في طفولته إلى البادية جرياً على ما كان من عادات العرب، حيث كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية ليتعلموا فصاحة الأعراب وخشونة الحياة، ويستنشقوا هواءها وعبيرها^(٣).

= ومن منازل التعليم منزل الطيب ابن سينا، الذي كان عامراً بالطلبة، يقول أحد تلامذته: «وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من الشفاء، وكان غيري يقرأ من القانون... وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير».

ينظر: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، ص ٤٤١.

(١) ينظر: «التربية» شلبي، ص ٧١.٧٣.

(٢) ينظر المرجع السابق، ص ٩٦.١٠٠.

(٣) ينظر: «السيرة النبوية» لابن هشام، ص ٧٧.٨٠.

٧- المساجد: تأسست المساجد مع قيام الإسلام، وباتت المركز الديني والعلمي الأول عند المسلمين.

هذه معظم أمكنة التعليم قبل نشأة المدرسة التي مهدت لظهورها، فلم تكن المدرسة الرسمية معروفة في عصر الصحابة والتابعين، وإنما استحدثت في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي، وأول من حفظ عنهم أنهم بنوا مدرسة في الإسلام هم أهل نيسابور، حيث بنى الأمير نصر ابن سبكتكين المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية^(١).

ويرى بعض المؤرخين أن أول من بنى المدارس في الإسلام واقتدى به الناس بعد ذلك الوزير نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير السلطان السلجوقي ملكشاه ألب أرسلان بن داود، شرع ببناء مدرسته النظامية الكبرى ببغداد عام ٤٥٧هـ - ١٠٦٤م، وفي عام ٤٥٩هـ - ١٠٦٦م جمع الناس ليدرسوا بها^(٢).

وقد تعددت الآراء في أول مدرسة أنشئت، ويعود ذلك إلى الخلط بين المدلولات والمصطلحات، فعندما نبحث في تاريخ المدارس الإسلامية يجب أن نتجنب التعبيرات ذات المدلولات العامة غير المحددة، فقد اعتاد بعض الكتاب المعاصرين في كتاباتهم عن تاريخ الإسلام وحضارته أن يطلقوا كلمة المدرسة على كل معهد علمي، وهذا يعني أن فكرة المدرسة - ذات الهدف المعين والنظام المخصوص التي تسير عليه، وكان لها في خدمة التعليم الجامعي الإسلامي دور بارز له مميزاته وخصائصه - لم تظهر إلا بعد

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٦٣/٢)، «حسن المحاضرة»: (٢٢٣/٢، ٢٢٤).

(٢) ينظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان: (١٢٩/٢). ويذكر السيوطي أن الحافظ الذهبي أنكر =

القرن الرابع الهجري، وهي بالطبع نتيجة لخطوات أخرى سابقة لها كالمساجد ودور العلم والمكتبات والأسواق والمنازل وغيرها^(١).

ومع نشأة المدرسة انتقل التعليم من المساجد إلى المدارس، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، منها رغبة الناس الشديدة منذ ظهور الإسلام بالتوجه نحو الدراسات الإسلامية، ومع مرور السنين ازداد الناس إقبالاً على حلقات العلم، فحفلت الجوامع بعدة حلقات دراسية، وكان ينبعث من كل حلقة من هذه الحلقات صوت المدرس يلقي الدرس، وأصوات الطلاب يسألون ويناقشون، فيحدث ذلك ضجيجاً يؤذي المصلين، فاتضح صعوبة المسجد للصلاة والتدريس معاً^(٢).

وقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب أن صبيان المسلمين قد كثروا وأن وجودهم في المسجد يؤدي إلى تشويش على المصلين، فلم يعد المسجد المكان المناسب لتعليم الصبيان.

كما أن هناك جماعة من الناس انشغلوا بالتعليم معظم وقتهم، محاولين الارتزاق عن طريق حرف بسيطة كانوا يقومون بها مع التدريس، ولكنهم فشلوا في الحصول على مستوى مناسب من العيش، فلم يكن من حل حينئذ إلا بإنشاء المدارس لتضمن لهم أرزاقاً تفي بحاجاتهم^(٣).

= على من زعم أن نظام الملك أول من بنى المدارس، وقال: إن المدرسة البيهقية والمدرسة السعيدية بنيسابور كانتا قبل أن يولد نظام الملك. ينظر: «حسن المحاضرة»: (٢/٢٢٣).

(١) ينظر: «تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى» غنيمه، ص ٦٦، ٦٧.

(٢) ينظر: «التربية» لشلبي، ص ١١٣.

(٣) ينظر المرجع السابق، ص ١١٣، ١١٤.

وهذا الكلام لا يعني فقدان المسجد لدوره الفكري، بل ظلت حلقات العلم تدار فيه، ومجالس العلم تعقد فيه، ولم تقم المدرسة إلا بحجب لون من ألوان نشاط المسجد الفكري الكثيرة، حيث استمر يشارك المدرسة في تدريس مختلف أنواع العلوم كما رأينا.

ب - مدارس مصر:

عندما كانت مصر تحت حكم الفاطميين، أقاموا فيها عدة دروس، وعُرف من ذلك درسٌ أقيم للناس في الجامع الأزهر في خلافة العزيز بالله نزار بن المعز، ثم عُقد درس آخر في دار أحد الوزراء، ثم عُمل مجلس في جامع عمرو بن العاص، ومن ثم بنى الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز دار العلم في القاهرة.

وبناء عليه لم تعرف مصر المدرسة في العصر الفاطمي، فاقترنت الحركة العلمية فيها على المجالس والدروس في المساجد والدور. بعد زوال الدولة الفاطمية، أبطل صلاح الدين الأيوبي مذهب تلك الدولة، وأقام في مصر مذهبي الإمام الشافعي والإمام مالك، وبنى لكل منهما عدة مدارس، مقتدياً بسيرة نور الدين محمود بن زنكي الذي أنشأ في دمشق وحلب وأعمالهما مدارس عديدة^(١).

وأول مدرسة شيدها الناصر صلاح الدين في مصر هي المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمدينة الفسطاط - وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد - وكان موضعها داراً ثم أصبح سجنًا، فهدمه في المحرم من عام ٥٦٦هـ - ١١٧٠م وأنشأ مكانه هذه المدرسة وجعلها للفقهاء الشافعية.

(١) ينظر: «الخطط»: (٢/٣٦٣)، «صبح الأعشى»: (٣/٣٩١).

وذهب المقرئ إلى أن هذه المدرسة هي «أول مدرسة عُملت بديار مصر»، وهذه العبارة في حاجة إلى تدقيق وإعادة نظر، وذلك لأن ابن عساكر في تاريخ دمشق - وفي معرض حديثه عن الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد أبي طاهر السلفي - يقول: «قدم علينا دمشق طالب حديث عام تسع وخمسة، وأقام بها مدة... ثم خرج إلى مصر فسمع بها وبالإسكندرية، ثم استوطن الإسكندرية وتزوج... وصارت له بالإسكندرية وجاهة... وبني له أبو منصور علي بن اسحق المعروف بابن السلار المقرئ الملقب بالعادل أمير مصر مدرسة بالإسكندرية، ووقف عليها وقفاً»^(١).

وذكر هذا الخبر أيضاً كل من ابن خلكان والذهبي^(٢)، دون أن يشير أحد من الثلاثة إلى تاريخ إنشاء هذه المدرسة، مع ذكرهم لتاريخ وفاة الحافظ أبي طاهر السلفي في عام ٥٧٦هـ - ١١٨٠م، وإذا علمنا أن وفاة ابن السلار كانت في عام ٥٤٨هـ - ١١٥٣م^(٣) فإنه يتأكد لدينا أن مدرسة الحافظ السلفي هي أول مدرسة أنشئت في ديار مصر وفي الإسكندرية، وخصّصت لتدريس الفقه الشافعي كما سنرى لاحقاً.

وثاني مدرسة أحدثها صلاح الدين في مصر المدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق أيضاً، وجعلها للفقهاء المالكية، وكان ذلك في الشهر والسنة نفسهما اللذين بنى فيهما المدرسة الناصرية، أي في المحرم من عام ٥٦٦هـ - ١١٧٠م^(٤)، وعُرفت بالقمحية نسبة للقمح الذي كان يُجلب إليها من الفيوم

(١) ينظر: «تاريخ مدينة دمشق» لابن عساكر: (٢٠٨/٥، ٢٠٩).

(٢) ينظر: «وفيات الأعيان»: (٤١٦/٣، ٤١٧).

(٣) ينظر المصدر السابق: (٤١٨.٤١٦/٣)، «العبر» للذهبي: (١٣١/٤، ١٣٢).

(٤) ينظر: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة: (١٨١/٢)، «الخطط» للمقرئ: (٤٦٤/٢).

لإطعام مدرسيها وطلابها^(١).

واقتردى بصلاح الدين في بناء المدارس أولاده وأمرأؤه ومن ملك مصر من بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم، إلى أن صار في مصر في عصر المماليك عدد كبير من المدارس يثير الدهشة والإعجاب، فالمقريزي قدّم بحثاً مطولاً عن خمس وخمسين مدرسة شُيدت في مصر في عصر دولة المماليك^(٢)، وشهد ابن بطوطة على هذه الكثرة حين زار مصر، حين قال: «وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»^(٣)، وذلك يعطي رؤية أوضح عن ذهبية عصر المماليك وانتشار التعليم فيه انتشاراً واسعاً. وكما قسمت الحديث عن مساجد مصر تبعاً لمنشئها أقسم مدارسها التقسيم نفسه، فهناك مدارس سلطانية، ومدارس أميرية، ومدارس رعايا الدولة.

- المدارس السلطانية:

اهتم سلاطين دولة المماليك البحرية اهتماماً كبيراً بإنشاء المدارس، وما تزال مدارسهم شاهدة على إنجازهم، ساعدهم على ذلك عوامل عديدة، منها ثراء الدولة وقوة اقتصادها، مما مكّن المماليك من صرف الأموال على المنشآت بسخاء، وغير ذلك من العوامل التي ستأتي في وقتها.

وبدأ هذا النشاط مع أول سلطان مملوكي، فبنى المعز أيبك التركماني المدرسة المعزية عام ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م^(٤)، تلاه الظاهر بيبرس الذي بدأ

(١) ينظر: «تاريخ ابن خلدون»: (٦٦٧/٧، ٦٦٨).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٤٠٣.٣٦٩/٢).

(٣) ينظر: «رحلة ابن بطوطة»: (٢٠٣/١).

(٤) ينظر: «الانتصار»: (٩٢/١، ٩٣).

بتشييد مدرسته الظاهرية في القاهرة عام ٦٦٠هـ - ١٢٦١م، وفرغ منها عام ٦٦٢هـ - ١٢٦٣م، فاشتملت على أربعة أواوين في كل إيوان درس^(١).

وأنشأ السلطان المنصور قلاوون الألفي المدرسة المنصورية في القاهرة^(٢)، وعمّر أيضاً عام ٦٨٢هـ - ١٢٨٣م مدرسة تربة أم الصالح بالقرب من المشهد النفيسي من أجل زوجته أم ابنه الملك الصالح علاء الدين علي^(٣).

واشترك في بناء المدرسة الناصرية سلطانان مملوكيان، فقد بدأ بعمارتهما السلطان زين الدين كتبغا المنصوري، ثم خلع عن منصبه قبل أن يكملها، فآتم بناءها الناصر محمد بن قلاوون بين عامي ٦٩٨ - ٧٠٣هـ - ١٢٩٨ - ١٣٠٣م، ووصف المقرئ هذه المدرسة، بقوله: «من أجل مباني القاهرة، وبابها من أعجب ما عملته أيدي بني آدم، فإنه من الرخام الأبيض البديع الذي الفائق الصناعة... وهي من رخام قواعدها وأعضادها وعمدها، كل ذلك متصل بعضه ببعض»^(٤). وقد تقدم في بحث المساجد الحديث عن سخاء الناصر محمد بن قلاوون في الصرف على العمائر، وأضيف إلى ذلك شهادة لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شعبة عنه يؤكد فيها أنه: «كان محباً للعمارة، وعمّر أماكن كثيرة بالقلعة وغيرها، وكان يصرف كل يوم على العمارة أجرة سبعة آلاف درهم»^(٥).

(١) ينظر: «الروض الزاهر» لابن عبد الظاهر، ص ٩٠.

(٢) ينظر: «تشریف الأيام والعصور» لابن عبد الظاهر، ص ٥٥، ٥٦، «الخطط» للمقرئ: (٢/٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٢/٣٩٤).

(٤) المصدر السابق: (٢/٣٨٢)، «الجواهر الثمين» لابن دقماق، ص ٣٦٥.

(٥) ينظر: «تاريخ ابن قاضي شعبة»: (١/١٩٤).

ومن مدارس السلاطين أيضاً المدرسة الأشرفية، وقام بنائها السلطان الأشرف شعبان بن حسين تحت قلعة الجبل، وتوفي قبل أن يكلمها^(١).

- المدارس الأميرية:

اهتم أمراء المماليك ببناء المدارس اهتماماً فاق اهتمام السلاطين، وهذا يدل على امتلاكهم للثروة الطائلة التي وظفوا قسماً منها في هذا النشاط. فقد أقام المدرسة الطيرسية في القاهرة بجوار الجامع الأزهر الأمير علاء الدين طيبرس بن عبد الله الوزيري (ت ٧١٩هـ - ١٣١٩م) نقيب الجيوش، وعند وفاته دُفن فيها، وقال المقرئ عن بنائه: «تأنق في رخامها وتذهيب سقوفها، حتى جاءت في أبداع زي وأبهج ترتيب لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة، بحيث إنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام»^(٢).

وأنشأ الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد (ت ٧٤٤هـ - ١٣٤٣م) استادار الملك الناصر ابن قلاوون المدرسة الأقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، ويذكر المقرئ أنه: «حشر لعملها الصنّاع من البنّائين والنجارين والحجّارين والمرخمين والفعلة. وحمل مع هذا إلى العمائر سائر ما يحتاج إليه من الأمتعة وأصناف الآلات وأنواع الاحتياجات من الحجر والخشب والرخام والدهان وغيره»^(٣).

وشيّد الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري (ت ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م)

(١) ينظر: «الانتصار» لابن دقماق، ص ٤٣١.

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣٨٣/٢)، «الدرر الكامنة»: (٣٣١/٢).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣٨٤/٢).

نائب سلطنة مصر المدرسة الحسامية في القاهرة، وبنى نائب سلطنة مصر أيضاً الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري (ت ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م) المدرسة القراسنقرية فيما بين باب العيد وباب النصر^(١).

وبنى الأمير سيف الدين آل ملك المدرسة الملكية في القاهرة عند المشهد الحسيني، وبنى سيف الدين شيخو الناصري مدرسة في ظاهر القاهرة، وبنى الأمير علاء الدين مغلطائي الجمالي (ت ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م) المدرسة الجمالية، وأنشأ الأمير سابق الدين مئقال الأنوكي (ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) مقدم المماليك السلطانية المدرسة السابقة بالقاهرة، وشيّد الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري (ت ٧٥٩هـ - ١٣٥٧م) المدرسة الصرغتمشية خارج القاهرة، وعنها قال المقرئ: «جاءت من أبداع المباني وأجلها وأحسنها قلباً وأبهجها منظراً»^(٢).

- مدارس رعايا الدولة :

كانت لرعايا دولة المماليك مشاركة في تشييد المدارس، وبذلوا أموالهم لتأسيس مدارس لطلاب العلم، منهم العلماء الذين نقف لهم على عدة مشاركات، منها بناء العالم شمس الدين شاكر بن غزير المعروف بابن البقري (ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) للمدرسة البقرية تجاه الجامع الحاكمي، وكان ابن البقري نصرانياً ثم أعلن إسلامه^(٣)، وبناء الإمام الشيخ مجد الدين عبد العزيز بن الحسين (ت ٦٨٠هـ - ١٢٨١م) للمدرسة المجدية الخيلية في مدينة مصر الفسطاط^(٤).

(١) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣٩٠. ٣٨٨/٢).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٤٠٣/٢، ٤٠٤)، «أعيان العصر»: (٥٥٥/٢).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقرئ: (٣٩١/٢).

(٤) ينظر: «الانتصار»: (٩٦/١)، «الخطط» للمقرئ: (٤٠٠/٢).

وشارك الأطباء كذلك في هذا النشاط، فبنى رئيس أطباء الديار المصرية مهذب الدين بن علم الدين بن أبي الوحش عام ٦٨٤هـ - ١٢٨٥م المدرسة المهذبية خارج القاهرة^(١)، وشرع رئيس الأطباء صلاح الدين يوسف المغربي - الذي تقدم أنه بنى جامعاً - في بناء مدرسة تجاه جامع المطل على الخليج الناصري، لكنه توفي قبل إكمالها، فدفن في قبة تجاه جامع^(٢).

وساهم التجار بنصيب جيد في هذا المجال، فأنشأ رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن علي المحلي (ت ٨٠٦هـ - ١٤٠٣م) مدرسة المحلي في ظاهر مدينة القاهرة^(٣)، وعمّر كبير التجار ناصر الدين محمد بن مسلم (ت ٧٧٦هـ - ١٣٧٤م) المدرسة المسلمية في مدينة مصر^(٤).

ومن الذين شاركوا في بناء المدارس القاضي عبد القادر بن أبي القاسم بن علي الأسنائي (ت ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م) الذي عمّر المدرسة الشهابية في ميدان القمح ظاهر القاهرة^(٥). وقام كذلك رجل من عامة الناس يُعرف بناصر الدين محمد بن محمد بن بدير العباسي ببناء المدرسة البديرية عام ٧٥٨هـ - ١٣٥٦م^(٦).

وفي عام بضع وأربعين وستمئة للهجرة وصلت إلى مصر قاصدة الحج قافلة الكانم من طوائف التكرور^(٧)، وكان لهم رغبة في إنشاء مدرسة في ديار

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٦٩/٢، ٣٩٧).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٣٩١/٢).

(٣) ينظر: «الضوء اللامع» للسخاوي: (١١٢/١، ١١٣)، «إنباء الغمر»: (١٥٥/٥، ١٥٦)، «الخطط» للمقريزي: (٣٦٨/٢، ٣٦٩).

(٤) ينظر: «الدرر الكامنة»: (٢٦/٥)، «إنباء الغمر»: (١٤٦/١)، «الخطط» للمقريزي: (٤٠١/٢).

(٥) ينظر: «أعيان العصر»: (١٢٠/٣)، «الدرر الكامنة»: (٤/٣).

(٦) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٩١/٢، ٣٩٢).

(٧) الكانم: مملكة قديمة من ممالك بلاد السودان، وقد اشتهر من ممالك السودان ست ممالك، =

مصر، فدفَعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً ليشيد لهم مدرسة للمالكية، ففعل، وسميت المدرسة باسمه، فعُرفت بمدرسة ابن رشيق، وظل هؤلاء يرسلون الأموال إلى هذه المدرسة في أغلب الأعوام^(١).

وكما مثل المسجد دوراً من أدوار المدرسة، مثلت المدرسة دور المسجد في كثير من الأحيان، فكانت تُقام الخطب والصلوات في عدد منها، ففي عام ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م اجتمع أحد الأمراء مع القضاة والفقهاء «بسبب عمل منبر بالمدرسة الصالحية بين القصرين من القاهرة لإقامة الجمعة بها، فأفتوه بجواز ذلك... وأقيمت الخطبة في يوم الجمعة... فكان يوماً مشهوداً»^(٢).

وأقيم في المدرسة الحجازية منبرٌ لخطبة يوم الجمعة، وعُين فيها إمامٌ يؤم الناس في الصلوات الخمس^(٣). ورُتب في المدرسة الناصرية إمامٌ أيضاً للغرض نفسه^(٤)، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تفرغ المدرسين والطلبة للعلم، وإقامة الأغلبية منهم في المدرسة، وذلك يستدعي حضور الصلوات الخمس والجمعة فيها.

= وهي: بلاد البجا، وبلاد النوبة، وبلاد البرنو، وبلاد الكانم، وبلاد مالي، ومملكة الحبشة، واشتملت بلاد مالي على خمسة أقاليم، كل إقليم منها مملكة بذاته، ومن ضمنها بلاد التكرور، وهذه الأقاليم الخمسة هي: مالي، صوصو، غانة، كوكو، تكرور.

ينظر بتوسع: «صبح الأعشى»: (٢٨٩/٥ - ٢٦٣/٥).

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٦٥/٢).

(٢) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (١، ق ١، ص ٣١٧).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٨٢/٢).

(٤) ينظر: «السلوك» للمقريزي: (ج ١، ق ٣، ملحق رقم ١٧، ص ١٠٤٦)، «الخطط» للمقريزي:

(٣٨٢/٢).

ج - أنواع المدارس:

اشترط مشيّدو المدارس أو واقفوها شروطاً تقتضي الحرص على مصالح المدرسة وضمّان استمراريتها وتأديتها للوظيفة التي من أجلها بُنيت، ومن تلك الشروط تحديد أنواع المواد الدراسية التي ستُدرس بها، فظهر لدينا ما يمكن أن نسميه المدارس التخصصية، فاختصت بعض المدارس بتدريس مادة دراسية واحدة، ومدارس أخرى بتدريس مادتين، وأغلبها درّس عدة مواد في آن واحد، فانتشرت أنواع كثيرة من المدارس في ذلك العصر.

ونبّه تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ - ١٣٦٩م) على ضرورة تقييد المدرّس بتخصص مدرسته، وهذا يدل على الحرص الذي كان متبعاً في ذلك، يقول: «وعندي أنّ الذمة لا تبرأ في المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلا بإلقاء الفقه، فإن كان المدرّس لا يلقي الفقه رأساً فهو آكل حرام، وكذلك نقول في مدرسة التفسير إذا ألقى مدرّسها غير تفسير، ومدرسة النحو إذا ألقى مدرّسها غير نحو، والأحوط في هذا كله الإلقاء من الفن الذي بنيت له المدرسة»^(١).

وبذلك ظهرت مدارس مختصة متنوعة، بالفقه والحديث النبوي، والتفسير، والقراءات، والنحو، والتصوف، والعلوم العسكرية، والطب.

١- مدارس الفقه:

وهي أوسع المدارس انتشاراً في الديار المصرية، واختصت بتدريس فقه السنة، واختلفت اختصاصاتها في ذلك، فمنها ما درّس فقه المذاهب الأربعة، ومنها ما درّس فقه مذهبين، وأخرى درست فقه مذهب واحد.

(١) ينظر: «معيد النعم ومبيد النقم» للسبكي، ص ٨٤.

- مدارس فقه المذاهب الأربعة :

اختصت هذه المدارس بتدريس فقه المذاهب الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية، فمثلت ما يشابه في وقتنا هذا الجامعات المختصة، وكانت المدرسة الصالحية أول مدرسة في الديار المصرية تختص في تدريس المذاهب الأربعة، وكان قد شيدها الصالح نجم الدين أيوب عام ٦٤٠هـ - ١٢٤٢م، ورتب فيها عام ٦٤١هـ - ١٢٤٣م دروساً أربعة لفقهاء المذاهب الأربعة^(١).

ومن أبرز هذه المدارس مدرستان: المدرسة والقبة المنصورية، والمدرسة الناصرية، فالمدرسة والقبة المنصورية قد رُتب فيهما إلى جانب دروس فقه المذاهب الأربعة درسٌ للطب، وآخر للحديث النبوي، وثالث للتفسير^(٢)، وأما المدرسة الناصرية فقرر فيها درس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلي، ودرس فقه الحنابلة بالإيوان الغربي، ودرس فقه الحنفية بالإيوان الشرقي، ودرس فقه الشافعية بالإيوان البحري.

ومن هذه المدارس أيضاً مدرسة السلطان حسن بن محمد بن قلاوون وجامعه، ومدرسة الأمير سيف الدين شيخو، وخانقاه شيخو^(٣).

- مدارس فقه المذهبين الشافعي والحنفي :

اختصت مدارس مصرية كثيرة بتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي معاً في مدرسة واحدة، ومن تلك المدارس المدرسة الظاهرية، درّس فيها فقهاء

(١) ينظر: «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة»، ص ٨٥، «الخطط» للمقريزي: (٢/٣٧٤)، «حسن المحاضرة»: (٢/٢٢٨).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٣٨٠)، «حسن المحاضرة» للسيوطي: (٢/٢٢٩).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٢/٤٢١)، «حسن المحاضرة»: (٢/٢٣٠).

الشافعية فقههم في الإيوان القبلي منها، وفقهاء الحنفية في الإيوان البحري، بالإضافة إلى درس الحديث النبوي في الإيوان الشرقي، ودرس القراءات في الإيوان الغربي^(١).

وُدِّرس هذان المذهبان في المدرسة الفارقانية التي أنشأها في القاهرة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني (ت ٦٧٧هـ - ١٢٧٨م) نائب سلطنة مصر، وفي مدرسة الجاي التي شيدها سيف الدين الجاي بن عبد الله اليوسفي (ت ٧٧٥هـ - ١٣٧٣م) عام ٧٦٨هـ - ١٣٦٦م قرب باب زويلة، والمدرسة الأقبغاوية، والمدرسة القطبية التي بنيت بوصية من الست الجليلة عصمة الدين مؤنسة خاتون (ت ٦٩٣هـ - ١٢٩٣م) ابنة الملك العادل أبي بكر أيوب، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه نسبة هذه المدرسة، ومدرسة أم السلطان، وبنتها الست الجليلة بركة (ت ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م) أم السلطان الأشرف شعبان بن حسين، عام ٧٧١هـ - ١٣٦٩م^(٢).

- مدارس فقه المذهبين الشافعي والمالكي:

مدارس ليست بالكثيرة اختصت بتدريس فقه المذهبين الشافعي والمالكي معاً في موضع واحد، فكان منها المدرسة المسلمية التي دُرِّس فيها هذان المذهبان بناءً على شرط الواقف، والمدرسة الفاضلية التي بناها في القاهرة الأمير الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني عام ٥٨٠هـ - ١١٨٤م، وقد جُعل فيها إلى جانب تدريس هذين الفقهاء قاعة للإقراء، والمدرسة الحجازية في القاهرة التي شيدها الست خوند تتر الحجازية بنت السلطان الناصر محمد بن قلاوون^(٣).

(١) ينظر: «تاريخ الملك الظاهر» لابن شداد، ص ٣٤٤، «الخطط» للمقريزي: (٣٧٩، ٣٧٨/٢).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٨٢/٢).

- مدارس فقه المذهبين الحنفي والمالكي :

ولم أقف في المصادر إلا على مدرسة واحدة اختصت بتدريس فقه هذين المذهبين، وهي المدرسة المنكوتيرية التي بناها الأمير سيف الدين منكوتير الحسامي (ت ٦٩٨هـ - ١٢٩٨م) أحد مماليك السلطان حسام الدين لاجين^(١).

- مدارس فقه المذهب الشافعي :

اختصت مدارس كثيرة بتدريس الفقه الشافعي، تتفوق بعددها على المدارس الفقهية الأخرى، فدُرِّس هذا المذهب في المدرسة الفائزية، والمدرسة القطبية، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الناصرية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة الطبرسية، والمدرسة الحسامية، والمدرسة البقرية، والمدرسة الملكية، والمدرسة السابقة، والمدرسة المجدية الخيلية^(٢).

- مدارس فقه المذهب الحنفي :

كثرت المدارس المختصة بتدريس الفقه الحنفي أسوة بمدارس الشافعية، فدُرِّس هذا الفقه في المدرسة السيوفية، والمدرسة الأزكشية، والمدرسة الجمالية، والمدرسة البوبكرية، والمدرسة المهمندارية، والمدرسة الصرغتمشية^(٣).

- مدارس فقه المذهب المالكي :

وهي مدارس قليلة مقارنة بمدارس الفقهاء الشافعي والحنفي، وكان

(١) ينظر المصدر السابق: (٢/٣٨٦، ٣٨٧)، «أعيان العصر»: (٥/٤٥٦).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٢/٤٠٠).

(٣) ينظر: «سكردان السلطان» ص ٥٥، «الخطط» للمقريزي: (٢/٤٠٣، ٤٠٤).

منها المدرسة القمحية، ومدرسة العادل، ومدرسة ابن رشيقي، والمدرسة الصاحبية^(١).

ولم أجد بعد البحث في المصادر أي مدرسة في مصر تختص بتدريس فقه المذهب الحنبلي وحده، كما لم يُدرس مشتركاً مع مدرسة فقهية أخرى، إلا في المدارس المختصة بتدريس المذاهب الأربعة، وهذا يدل على محدودية انتشار المذهب الحنبلي في مصر في عصر المماليك، وأكد ذلك الإمام السيوطي، وبيّن السبب في ذلك، فقال عن الحنابلة: «هم بالديار المصرية قليل جداً، ولم أسمع بخبرهم إلا في القرن السابع وما بعده، وذلك أن الإمام أحمد رضي الله عنه كان في القرن الثالث، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع، وفي هذا الوقت ملكت العبيديون مصر، وأفنوا ما كان فيها من أئمة المذاهب الثلاثة... ولم يزلوا منها إلى أواخر القرن السادس، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب»^(٢)، فقلة عدد العلماء الحنابلة في مصر، وقلة من وفد إليها من فقهاء هذا المذهب، قد ساهم في تراجع عدد المنتسبين إلى فقه هذا المذهب، ولهذا قلّ تشييد مدارس تختص بتدريس فقهم.

وبهذا تكون المذاهب الأربعة قد دُرست دراسة مختصة، ويدل هذا على التعليم المذهبي الذي انتشر انتشاراً واسعاً في مصر، كما تدل أنواع هذه المدارس على قيام ما يسمى بالدراسات الفقهية المقارنة لاجتماع تدريس عدة مذاهب في مدرسة واحدة، وهذا يعني - من جهة ثانية - استيعاب المدارس لشتى علوم الدين الإسلامي، لأن الفقه الإسلامي يشتمل على أبواب وعلوم دينية كثيرة.

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٧١/٢).

(٢) ينظر المصدر السابق: (٣٩٧/١).

ومن خلال دراسة مدارس مصر الفقهية والمقارنة فيما بينها لاحظت ما

يلي :

- عُدت المدرسة الصالحية التي بناها الصالح نجم الدين أيوب أول مدرسة في مصر جمعت بين تدريس المذاهب الأربعة، وكانت المدرسة المستنصرية التي بنيت في بغداد عام ٦٣١هـ - ١٢٣٣م أول مدرسة في الإسلام جمعت بين تدريس المذاهب الأربعة^(١).

- عُدت المدرسة السيوفية أول مدرسة في مصر وُقفت للحنفية^(٢).

- أكثر المدارس انتشاراً مدارس الفقه الشافعي، ثم مدارس الفقه الحنفي، ثم مدارس الفقه المالكي.

- كان حظ المذهب الحنبلي قليلاً من هذه المدارس، فلم يُدرس إلا في مدارس المذاهب الأربعة، حيث لم تختص مدرسة بتدريسه وحده.

- لم يكن بين مدارس مصر الفقهية مدرسة درست فقه ثلاثة مذاهب، وإنما اختصت بعضها بمذهب واحد، أو بمذهبين، أو أربعة مذاهب.

٢- مدارس الحديث النبوي الشريف :

أول دار للحديث بُنيت على وجه الأرض بناها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم كانت دار الحديث الكاملة التي شيدها الملك الكامل ناصر الدين بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب (ت ٦٣٥هـ - ١٢٣٧م) في القاهرة ثاني دار عُملت للحديث، وذلك عام ٦٢٢هـ - ١٢٢٥م^(٣).

(١) ينظر: «تاريخ الإسلام»: (٦/٣)، «البداية والنهاية» لابن كثير الدمشقي: (١١٨/١٣).

(٢) ينظر «الخطط» للمقرئبي: (٣٦٦/٢).

(٣) ينظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان: (٨١/٥).

وتعددت بعد ذلك مدارس الحديث، فكانت المدرسة الخروبية التي أنشأها تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن علي الخروبي (ت ٧٨٥هـ - ١٣٨٣م) وجعل فيها دروس حديث فقط^(١)، وجُعل في المدرسة الظاهرية درسٌ لعلم الحديث إلى جانب دروس الفقه والقراءات^(٢)، وكذلك رُتب في المدرسة المنصورية دروسٌ للحديث النبوي إلى جانب دروس الفقه والتفسير والطب^(٣)، ودُرس الحديث النبوي في المدرسة الصرغتمشية إلى جانب الفقه الحنفي^(٤).

٣- مدارس التفسير والقراءات والنحو:

انحصرت مدارس التفسير في مصر في عصر المماليك البحرية بالمدرسة المنصورية^(٥)، والقبة المنصورية^(٦)؛ وذلك بسبب كثرة المدارس الفقهية، التي استُغني بها عن مدارس التفسير، فالتشابه كبير بين هذين العلمين، وإن كان الفقه يُعد العمدة لاشتماله على الجانب العملي في تطبيق الأحكام، بينما يشتمل التفسير على الجانب النظري، ولا سيما أن غالبية أبواب الفقه المعروفة هي تفسير آيات الأحكام في القرآن الكريم، فيكون التفسير جزءاً من الفقه، يضاف إلى هذا وذاك أن عدداً من الجوامع قد اقتص بتدريس التفسير، كجامع ابن طولون، والجامع الأزهر.

(١) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٦٨/٢).

(٢) ينظر: «تاريخ الملك الظاهر» لابن شداد، ص ٣٤٤، «الخطط» للمقريزي: (٣٧٩/٢).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٧٩/٢، ٣٨٠).

(٤) ينظر المصدر السابق: (٤٠٣/٢، ٤٠٤).

(٥) ينظر المصدر السابق: (٣٧٩/٢، ٣٨٠).

(٦) ينظر المصدر السابق: (٤٠٧/٢).

وُدِّرس علم القراءات في المدرسة الظاهرية^(١)، والمدرسة السابقة^(٢)، وجامع الحاكم، وبما أن هذا العلم هو من العلوم التي تؤخذ من أفواه العلماء، كان تعليمه في منازل العلماء ومجالسهم أكثر منه في المدارس النظامية الرسمية.

وأما علم النحو فإنه درس في مدرسة وحيدة هي المدرسة الصاحبية، يضاف إليها جامع الحاكم، مما يدل على تلقي هذا العلم عن العلماء مباشرة لأهميته المعروفة.

خلاصة ما سبق:

لقد أسهم سلاطين المماليك إسهاماً فعالاً في تنشيط حركة العلم والمعرفة، فبنوا المساجد والمدارس والخوانق، وأنشئوا خزانات الكتب، وعيّنوا من يشرف على ذلك من العلماء والموظفين، وأجروا عليهم المرتبات، ومنحوا طلبة العلم المكافآت حتى غدت مصر في أيام المماليك ميداناً واسعاً لنشاط علمي كبير يدل عليه ذلك التراث الضخم من الموسوعات في شتى العلوم والفنون، مما أدى إلى نشاط الحركة الثقافية تشجيع المماليك لها، فلقد برز من بينهم سلاطين كان لهم اهتمام بالعلوم وولع ببناء المدارس ومؤسسات التعليم، وكان كثير من هؤلاء السلاطين ذوي ثقافة عالية، شغوفين بالمجتمع المثقف والدراسات الأدبية والعلمية، فالملك الظاهر خشقدم كان فصيح اللسان بالعربية، يقرأ القرآن، وله بعض اشتغال بالعلم مع أنه رومي الجنس من الأرنأؤوط^(٣).

(١) ينظر المصدر السابق: (٣٧٨/٢).

(٢) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٣٩٣/٢، ٣٩٤).

(٣) ينظر: «الخطط» للمقريزي: (٤١٤/٢)، و«السلوك»: (١٨٢/١)، و«العصر المماليكي في

مصر والشام» ص ٢٣٠.

وكذلك الملك الظاهر تمربغا قال عنه ابن إياس: وكان عارفاً بصنعة الحساب القبطي والديواني فصيحاً بقراءة القرآن، وله اشتغال بالعلم.

أما الملك المؤيد فقد كان محباً للعلماء، يقوم لهم إذا دخلوا عليه، وكان منقاداً إلى الشرع ومشاركاً للفقهاء في مسائل الفقه والبحث معهم في ذلك، متقناً لفن الموسيقى، وكان ينظم الشعر ويقرب أرباب الفن^(١).

وكذلك الملك قايتباي، فقد كان له اشتغال بالعلم، كثير المطالعات في الكتب، يعظم العلماء، وقال عنه ابن إياس: كان علامة في كل فن.

أما الغوري فقد كان أديباً يفهم الشعر، وله نظم باللغة التركية، مغرمًا بقراءة التواريخ والسير، ودواوين الأشعار، وكان شديد الحرص على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة وحضورها والمشاركة فيها^(٢).

وقد أدرك سلاطين المماليك أنه لا شيء يقربهم ويوطد سلطانهم بين الناس إلا أن يعظموا الدين وأهله، ويرفعوا من قدر العلم والعلماء فأسسوا المدارس، وأرصدوا لها العلماء، فهرع إليها الألوفا من الطلاب ينهلون العلم من أصفى موارد، ويدرسون الفقه على مختلف مذاهبه، فكانت المدرسة الصالحة والصلاحية، والظاهرية والناصرية والكاملية والبيبرسية والشيخونية والمؤيدية وغيرها.

وترغيباً في العلم وحذباً على أهله أقاموا الخوانق والرباطات وحبسوا عليها المال والضياع، من ذلك خانقاه شيخو، وقوصون، وسعيد السعداء،

(١) ينظر: «بدائع الزهور»: (٣/٤٥٦، ٤٧٦)، و«الضوء اللامع»: (٣/٤١، ١٧٥-٧٦).

(٢) ينظر: «بدائع الزهور»: (٢/٦١) و(٣/٣٢٦) و(٥/٣٢٥)، و«مجالس السلطان الغوري» ص: ٣٨ - ٣٩ و٤٩، و«مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك» لسعيد عاشور، ص ٢٧٤.

والبيرسية وغير ذلك مما أورده السيوطي في «حسن المحاضرة»، والمقريزي في «المواعظ والاعتبار».

وغصت المدارس بخزائن الكتب، وكان يعين لكل خزانة قيماً أو خازناً، وكان يختار لهذه المهمة رجل عالم أو فقيه، فابن حجر مثلاً كان خازناً للمكتبة المحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الأستادار، سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤ م) ووقف عليها كتب ابن جماعة قال عنها المقريزي: ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وبهذه الخزانة كتب الإسلام عن كل فن، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر، وبقي الإمام ابن حجر خازناً للمكتبة إلى أن توفي سنة (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨ م)^(١).

وكان العلامة شمس الدين محمد بن سعد أحد شيوخ السيوطي مقيماً بالخانقاه الشيخونية وهو خازن كتبها، قال عنه في «نظم العقيان»: كان عالماً بالفنون مشهوراً بالصلاح، متصدياً لنفع الطلبة.

وخير ما يدل على ازدهار الحياة العلمية في عصر المماليك هو عظم الثروة العلمية التي وصلتنا من ذلك العصر بالذات، وما زالت دور الكتب في بعض أنحاء العالم مشحونة بمئات المخطوطات التي ترجع إلى عصر سلاطين المماليك بمصر، والتي تناولت معظم ألوان العلوم: الأدب والتاريخ والجغرافية والعلوم الدينية والطب والفلاحة والمعارف العامة وغيرها، مما يدل على أن هذا العصر شهد نشاطاً علمياً فائقاً لم يشهد مثله في عصر آخر.

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (٢/ ٢٦٠، ٢٦٥-٢٦٧)، و«الخطط المقريزية»: (٢/ ٤١٥-٤١٦، ٤٢١، ٤٢٥)، و«المجتمع المصري» لسعيد عاشور، ص ١٤٦، و«شذرات الذهب»: (٦/ ٣٦٢)، «الخطط»: (٢/ ٣٩٧-٣٩٥)، و«الضوء اللامع»: (٢/ ٣٩).

وإنَّ المتتبع للنشاط العلمي في هذا العصر يجد نفسه أمام ثروة علمية واسعة تتمثل في تلك الجماهرة الكبيرة من أساطين العلم والمعرفة الذين برزوا في هذه الحقبة.





الفصل الثاني:

ترجمة الإمام السيوطي، ويشمل خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته، ولقبه، ووالده وأمه.

المبحث الثاني: مولده ونشأته، وبدء طلبه للعلم، ورحلاته.

المبحث الثالث: بدء تدريسه وإفتائه وإملائه، ومناصبه، واختفاؤه من السلطان طومان باي.

المبحث الرابع: خلقه وعفته وزهده.

المبحث الخامس: وفاته.



المبحث الأول: اسمه ونسبه، كنيته ولقبه، والده، أمه.

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: كنيته ولقبه.

المطلب الثالث: والده.

المطلب الرابع: أمه.



المبحث الأول:

اسمه ونسبه، كنيته ولقبه، والده، أمه

تمهيد:

«أسيوط» أو «سيوط» مدينة كبيرة تقع غربي النيل في صعيد مصر، وهي أكبر مدن الصعيد.

واختلفوا في ضبطها، فضبطها الإمام السمعاني: بضم الألف، وسكون السين المهملة، وضم الياء المنقوطة بنقطتين من تحت، وفي آخرها طاء مهملة بعد الواو.

ومنهم من يسقط الألف، فيقول: سيوط^(١).

وذكره ياقوت الحموي في موضعين: أسيوط: بالفتح، ثم السكون، وياء مضمومة وواو ساكنة، وطاء مهملة، مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر جليلة كبيرة، وقال في موضع آخر: سيوط: بفتح أوله، وآخره طاء، كورة جليلة من صعيد مصر^(٢).

أما السيوطي فقال: الأسيوطي: بضم أوله والتحتية، وسكون السين إلى أسيوط، ويقال: سيوط، بلد بصعيد مصر، ثم قال: فيها خمسة أوجه ضم الهمزة وكسرها وإسقاطها وتثليث السين المهملة^(٣).

(١) ينظر: «الأنساب»: (١/٢٦٢) و(٣/٣٠١).

(٢) ينظر: «معجم البلدان»: (١/١٩٣)، و«اللباب في تهذيب الأنساب» لابن الأثير: (١/٤٩)، «تقويم البلدان» لأبي الفداء، ص ١١٢.

(٣) ينظر: «لب اللباب في تحرير الأنساب» ص ١٥.

وذكر السيوطي: أن والده كان يكتب في نسبه: السيوطي، وغيره يكتب: الأسيوطي، وينكر كتابة الوالد، ويرد على ذلك السيوطي بقوله: ولا إنكار، بل كلا الأمرين صحيح^(١).

وكانت مدينة «أسيوط» أو «سيوط» أو «ليكوبولس» - كما يقول اليونان - مدينة مهمة منذ القدم بسبب وقوعها على رأس عدة طرق للقوافل التجارية، وبفضل وقوعها في أضيق بقاع وادي النيل الأكثر خصوبة^(٢).

المطلب الأول: اسمه ونسبه

هو عبد الرحمن بن الكمال أبو المناقب أبو بكر بن ناصر الدين محمد بن سابق الدين أبي بكر بن فخر الدين عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضير الأسيوطي أو السيوطي الطولوني الشافعي^(٣).

المطلب الثاني: كنيته ولقبه

أما الكنية؛ فيقول السيوطي عنها: لا أدري هل كناني والدي أم لا؟ ولكن لما عرضت على صديق والدي قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني الحنبلي، كناني: أبا الفضل، فإنه سألني: ما كنيته؟ فقلت: لا كنية لي، فقال: أبو الفضل.

وقد لقب بعدة ألقاب تدل على سمو مكانته وعلو منزلته، منها: جلال الدين الطولوني الشافعي، والإمام الكبير، وشيخ الإسلام، والحافظ

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ١٢.

(٢) ينظر: «دائرة المعارف الإسلامية»: (٢/٢٠١).

(٣) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٥)، و«التحدث بنعمة الله» ص ٥.

والمسند، والمحقق المدقق، وابن الكتب^(١).

المطلب الثالث: والده

قال الإمام السيوطي عن والده: هو الإمام العلامة ذو الفنون، الفقيه الفرضي، الحاسب الأصولي، الجدلي النحوي، التصريفي البياني، البديعي المنشي، المترسل البارع، كمال الدين أبو المناقب أبو بكر بن محمد.

وكان مولد والدي بأسيوط في أوائل هذا القرن تقريباً، أي: القرن التاسع، وقدم القاهرة سنة عشرين ونيّف، واستقر به المقام، وأقبل على العلوم بأنواعها، فأخذ عن مشايخ عصره، وتردد إلى مجالس الحافظ ابن حجر العسقلاني وأخذ عنه الحديث، وكانت له اليد الطولى في الإنشاء.

وقد تولى والدي عدة وظائف منها تدريس الفقه بالجامع الشيخوني، والخطبة بالجامع الطولوني، والإفتاء، وناب في الحكم عن الحافظ ابن حجر، وعرض عليه قضاء مكة فأبى.

ولوالد السيوطي بعض التصانيف وجلّها حواش وشروح لكتب، منها:

١ - حاشية على «شرح الألفية» لابن المصنف، لم تتم، وصل فيها إلى باب الإضافة.

٢ - حاشية على «العضد». لم تتم.

٣ - حاشية على كتاب «أدب القضاء» للغزّي.

٤ - أجوبة على اعتراضات ابن المقرئ على «الحاوي».

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٥)، و«التحدث بنعمة الله» ص ٣٢ و٢٣٥، و«شذرات الذهب» لابن العماد: (٨/٥١)، و«الكواكب السائرة»: (١/٢٢٦)، و«البدر الطالع»: (١/٣٢٨).

٥ - كتاب في «التصريف».

توفي السيوطي الوالد شهيداً بمرض يسمى «ذات الجنب» وقت أذان العشاء يوم الاثنين الخامس من صفر سنة (٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)، رحمه الله تعالى^(١).

المطلب الرابع: أمه

لم يتعرض السيوطي للحديث عن أمه كما تحدث عن أبيه، وقد ذكر السخاوي أنها «أمة تركية»، وعند العيدروسي: «أم ولد تركية»، وقيل: إن اسمها هو قطلوباي كلستان.

وقد أراد بعض خصومه وأقرانه كالسخاوي وابن الكركي الانتقاص من نسبه، مما دفع جلال الدين إلى الرد عليهم: من أن الانتساب إلى الآباء وليس إلى الأمهات.

وقد توفيت والدته بعده، ودفنت بقبر مجاور لقبر ولدها في داخل التربة التي أنشأتها^(٢).



(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٥ و ٨ و ٩، و«نظم العقيان» ص ٩٥، و«بغية الوعاة»: (١/ ٤٧٢)، و«حسن المحاضرة»: (١/ ٤٤١ و ٤٤٢)، و«الضوء اللامع»: (١١/ ٧٢ و ٧٣)، و«بدائع الزهور»: (٢/ ٢٨٩)، و«شذرات الذهب»: (٧/ ٢٨٤ و ٣٥٠).

(٢) ينظر: «شرح مقامات السيوطي»: (٢/ ٧٣٧)، و«البدر الطالع»: (٤/ ٦٥)، و«النور السافر» للعيدروسي، ص ٥١، و«الكواكب السائرة»: (١/ ٢٢٦).

المبحث الثاني: مولده، أسرته، نشأته وبدء طلبه للعلم، رحلاته.

المطلب الأول: مولده.

المطلب الثاني: أسرته.

المطلب الثالث: نشأته وبدء طلبه للعلم.

المطلب الرابع: رحلاته.



المبحث الثاني

مولده وأسرته، ونشأته وبدء طلبه للعلم ورحلاته

المطلب الأول: مولده

ولد جلال الدين السيوطي ليلة الأحد بعد المغرب مستهل رجب من سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١/ رجب/ ٨٤٩هـ)، الموافق لـ (٣/ ١٠/ ١٤٤٥م)، في عهد الخليفة العباسي المستكفي بالله سليمان بن المتوكل على الله، وعهد السلطان المملوكي الظاهر أبو سعيد جقمق العلاني.

أما مكان ولادته فيذكر السيوطي أنها في القاهرة، هذا وقد اكتنفت ولادته حادثة طريفة وذلك أن والده - وكان من أهل العلم - احتاج إلى كتاب، فأمر زوجته أن تأتيه بالكتاب من مكتبته، فذهبت لتأتيه به، فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعت، فأطلق عليه ابن الكتب^(١).

فكان كما قيل، فقد ولد وعاش مع الكتب، وأفنى عمره في تأليفها وتحريها.

المطلب الثاني: أسرته

ينتمي جلال الدين السيوطي إلى أسرة كانت مليئة بأسباب الجاه والعز والدين، فمن أجداده من كان من أهل الوجاهة والرئاسة، ومنهم من تولى القضاء والحسبة، ومنهم من كان ذا غنى ومال، وقد اتخذت في أسمائها ألقاباً يقوم التشرف فيها على الدين.

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/ ٣٣٦)، و«التحدث بنعمة الله» ص ٧ و١٦ و٣٢، و«الضوء اللامع»: (٤/ ٦٥)، و«النور السافر» للعيدروسي، ص ٥٤ و٦٢، و«بدائع الزهور»: (٤/ ٨٣)، و«الكواكب السائرة»: (١/ ٢٢٦).

وقد حدثنا السيوطي عن بعض أعيان أسرته فقال: وأما جدي الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريق.. وأما من دون جدي المذكور من أجدادي فقد كانوا من أهل الوجاهة والرئاسة، منهم من ولي القضاء بأسوط، ومنهم من ولي الحسبة بها، ومنهم من كان في صحبة الأمير شيخو، وبنى مدرسة بأسوط، ووقف عليها أوقافاً، ومنهم من كان تاجراً متمولاً، ولا أعلم فيهم من خدم العلم حق الخدمة إلا والدي^(١).

مما تقدّم يتبيّن أنّ الإمام السيوطي سليل أسرة كريمة ذات مناصب ومراكز اجتماعية مختلفة وهو يذكرها ذكر المفتخر بأجداده، المعترز بأصوله.

المطلب الثالث: نشأته وبدء طلبه للعلم

ولد السيوطي بالقاهرة بعد انتقال أبيه إليها بمدة طويلة حيث كان يعمل مدرساً للفقه الشافعي بالجامع الشيخوني، وقد سبق بيان ما كانت عليه بيئة القاهرة من عظمة في نواحيها الفكرية والحضارية، ونتيجة لغلبة الطابع الصوفي على البلاد من ناحية، ولكون والده من صوفية الشيخونية من ناحية أخرى حمّله بعد مولده إلى أحد كبار الأولياء بجوار المشهد النفيس، وهو الشيخ محمد المجذوب فباركه^(٢)، وكان والده قد قارب الخمسين من عمره في ذلك الحين.

وعندما بلغ السيوطي الثالثة من عمره وكانت شهرة الحافظ ابن حجر تملأ الدنيا وكان شيخاً لأبيه اصطحبه والده إلى مجلس الحافظ ابن حجر في

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٧).

(٢) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/١٨٨).

إحدى المرات^(١)، وقد كان لحضور هذا المجلس أثره العميق في نفسية السيوطي وفي حياته العلمية فيما بعد.

ولم يلبث والده أن توفي بعد قليل في صفر عام (٨٥٥هـ - مارس ١٤٥١م)^(٢)، حين كان ابنه لم يتم السادسة من عمره، وقد ولى الوصاية عليه بعد أبيه أحد أصدقائه من الصوفية وهو الشيخ جمال الدين ابن الهمام^(٣).

وقد أنشأ السيوطي يحفظ القرآن قبل وفاة أبيه، وقد بلغ في الحفظ عند وفاته إلى سورة التحريم، وقد واصل الحفظ بعد وفاته فأتم القرآن الكريم ولم يبلغ الثامنة من عمره^(٤).

دلّ السيوطي بحفظه المبكر للقرآن الكريم على ذكاء متوقد، وذاكرة قوية، وقد حفظ بعد ذلك عمدة الأحكام، والمنهاج الفرعي في الفقه للنووي والمنهاج في الأصول له أيضاً على ما ذكر، وألفية ابن مالك في النحو، ومنهاج البيضاوي، وقد أتم حفظ هذه الكتب وعرضها على شيوخ عصره، ومن ثم فقد أصبح أهلاً لأن يطلب العلم على أيدي علماء العصر في مختلف مناحي العلم^(٥).

ومنذ مستهل عام (٨٤٦هـ) وحين كان السيوطي لم يتم الخامسة عشرة من عمره أنشأ يطلب العلم، فأخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ منهم الشمس محمد بن موسى الحنفي إمام الشيخونية في النحو، وعن الفخر عثمان المقسي والشموس البامي وابن الفالاتي وابن يوسف أحد فضلاء

(١) ينظر: «النور السافر» ص ٥٤.

(٢) ينظر: «النور السافر» ص ٥٤، «شذرات الذهب»: (٥٢/٨).

(٣) ينظر: «شذرات الذهب»: (٥٢/٨).

(٤) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/١٨٨)، «شذرات الذهب»: (٥٢/٨).

(٥) ينظر المرجعين السابقين.

الشيخونية، والبرهانين العجلوني والنعماني بعضهم في الفقه وبعضهم في النحو، وأخذ الفرائض عن العلامة فرض زمانه شهاب الدين الشارمساحي الذي كان قد بلغ المائة من العمر.

وقد أجاز بتدريس العربية في مستهل عام (٨٦٦هـ)، أي: حين كان في السابعة عشرة من عمره، وقد ابتداءً التأليف في هذه السنة فكتب شرحاً للاستعاذة والبسملة وأطلع عليه شيخه علم الدين البلقيني شيخ الإسلام فكتب عليه تقریظاً، وقد لزم عليه كثيراً من أبواب الفقه وأجازه بالتدريس والإفتاء في عام (٨٧٦هـ) حين كان السيوطي في السابعة والعشرين من عمره، وحضر تصديره، وقد توفي البلقيني عام (٨٧٨هـ).

كما لزم السيوطي شيخ الإسلام شرف الدين المناوي فقرأ عليه بعض كتبه في الفقه والتفسير.

ولزم في الحديث والعربية العلامة تقي الدين الشمنيّ أربع سنين وكتب له تقریظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية، وكان شيخه يشهد له بالتقدم ويثق في علمه وسعة اطلاعه.

وقد أخذ جملة من العلوم منها التفسير والأصول والعربية والمعاني عن العلامة محيي الدين الكافيجي الذي لازمه السيوطي أربع عشرة سنة، وكتب له الكافيجي إجازة عظيمة بذلك، كما حضر دروساً عديدة عند الشيخ سيف الدين الحنفي^(١).

وقد نظم السيوطي رحمه الله أرجوزة في شيوخه عدّ منهم ستمائة شيخ فيما نقله عنه تلميذه الشعراني في «الطبقات»؛ إذ ذكر أنه كان يقول: أخذت العلم عن ستمائة نفس، وقد نظمتها في أرجوزة، قال: وهم أربع طبقات:

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/١٨٩). وسيأتي الكلام عن شيوخه.

الأولى: من يروي عن أصحاب الفخر بن النجار والشرف الدمياطي ووزيره والحجار وسليمان بن حمزة وأبي النصر بن الشيرازي ونحوهم .

والثانية: من يروي عن السراج البلقيني والحافظ أبي الفضل العراقي ونحوهما، وهي دون التي قبلها في العلو.

والثالثة: من يروي عن الشرف بن الكويك والجمال البجيلي ونحوهما، وهي دون الثانية.

والرابعة: من يروي عن أبي زرعة العراقي وابن الجزري ونحوها، وهذه لتكثير العدة وتكثير الحجة^(١).

المطلب الرابع: رحلاته

كانت الرحلة في طلب العلم من لوازم طريق العلماء ومنهجهم في التحصيل العلمي، فكان طالب العلم يأخذ عن شيوخ بلده ثم يرحل إلى البلدان الأخرى للأخذ عن علمائها والاستفادة منهم قدر الإمكان، وقد ذكر ابن الصلاح (ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) بهذا الخصوص قائلاً: وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده فليرحل إلى غيره^(٢).

وهكذا سلك الإمام السيوطي هذا الطريق بعد أن نهل من علماء بلده، فقد رحل إلى الفيوم^(٣)، وألف في رحلته هذه كتاباً أسماه «الرحلة الفيومية»^(٤).

(١) ينظر: «الطبقات الكبرى»: ص ٤٣٣.

(٢) ينظر: «علوم الحديث» لابن الصلاح، ص ٢٢٢.

(٣) الفيوم، ولاية غربية بينها وبين الفسطاط أربعة أيام. ينظر: «معجم البلدان»: (٣/٩٣٣).

(٤) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ١٢٧.

ورحل إلى دمياط والإسكندرية سنة (٨٧٠هـ - ١٤٦٦م) وله في هذه الرحلة كتاباً أسماه «الاغباط في الرحلة إلى الإسكندرية ودمياط»^(١) أو «قطف الزهر من رحلة الشهر»^(٢).

ورحل إلى المحلة الكبرى والرشيد أيضاً.

ولما كانت همّة السيوطي عالية، ورغبته في تلقي العلوم قوية وكبيرة، فقد دفعه ذلك للقيام برحلات علمية خارج الديار المصرية وكانت رحلته إلى الحجاز سنة (٨٦٩هـ - ١٤٦٥م) لأداء فريضة الحج ولقاء المشايخ، خير دليل على ذلك، وقد أُلّف في ذلك كتابه «النحلة الزكية في الرحلة المكية»^(٣) وكتاب «الرحلة المكية والمدينة»^(٤).

كما رحل إلى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور (السودان الغربي)^(٥).



-
- (١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٢٠٣.
 (٢) ينظر: المصدر السابق، ص ٨٣.
 (٣) ينظر: المصدر السابق، ص ٧٩.
 (٤) ينظر: المصدر السابق، ص ١٢٧.
 (٥) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٨).

المبحث الثالث: بدء تدريسه وإفتائه وإملائه ووظائفه.

خلاصة ما سبق.



المبحث الثالث

بدء تدريسه وإفتائه وإملائه ووظائفه

لقد تصدر السيوطي للإقراء والتدريس والإملاء بالجوامع والمدارس والمجالس المنتشرة في القاهرة وغيرها وقصده الناس للفتوى وأقبل عليه الطلبة من كل مكان. أما الوظائف أو المناصب التي تولاها والمدارس التي كان يدرس فيها فهي على النحو الآتي :-

بدأ السيوطي في تدريس العربية إجازة في مستهل سنة (٨٦٦هـ - ١٤٦٢م) من قبل شيخه تقي الدين الشمني^(١).

كما تولى تدريس الفقه بالجامع الشيخوني إجازة من قبل شيخه علم الدين البلقيني، وفي ذلك قال: ثم إن شيخنا المذكور ألقى رأيه الشريف أن يجيزني بالإفتاء والتدريس، فأجازني بذلك في شوال سنة ست وستين وكتب لي بخطه إجازة، وكان باسم والدي مشيخة تدريس الفقه بالجامع الشيخوني وليس هو من وقف شيخه، فلما توفي قرر باسمي وناب عني فيه تلميذ والدي العلامة محب الدين بن مصيفح إلى أن توفي، فناب عني فيه العلامة فخر الدين المقسي، فلما أجازني شيخنا شيخ الإسلام بالتدريس استأذنته في أن أباشر الدرس بنفسي وأن يشرفني بالحضور عندي من أول يوم كما جرت به العادة، فأجاب إلى ذلك وعين لي يوماً يحضر فيه، فلما كان يوم الثلاثاء تاسع ذي القعدة سنة سبع وستين حضر شيخ الإسلام البلقيني ومعه ولده وربيبه ونوابه في الحكم ومن الفضلاء والطلبة خلق كثير ومن الحسدة والأعداء أكثر، فامتلاً بهم الجامع^(٢).

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٧).

(٢) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٢٣٩، ٢٤٠، «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٧).

تصدى السيوطي للإفتاء ابتداءً من سنة (٨٧١هـ - ١٤٦٦م) على مذهب الإمام الشافعي، وقد بلغت فتاويه نشرًا ونظمًا ثلاثة مجلدات قال السيوطي: وتصديت للإفتاء من سنة إحدى وسبعين فلا يعلم مقدار ما كتبت عليه من الفتاوى إلا الله تعالى، وقد جمعت غرائب الفتاوى التي لي نشرًا ونظمًا في مجلد دون الواضحات والمشهورات، وفتاوى خالفنا فيها أهل العصر، فانتصنا لبيان الحق فيها بالتأليف، فألفنا في كل مسألة منها مؤلفًا، فذلك أكثر من خمسين واحدة ففيها خمسون مؤلفًا جعلناها في مجلدين على حدة فمجموع الفتاوى الآن ثلاثة مجلدات^(١).

وفي مستهل سنة (٨٧٢هـ - ١٤٦٧م) تصدر لإملاء الحديث النبوي الشريف بالجامع الطولوني الذي بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون قال السيوطي: وفي الجمعة مستهل سنة اثنين وسبعين ابتدأت إملاء الحديث بالجامع الطولوني، وكان الإملاء من حين انقطع بموت حافظ العصر ابن حجر نحو عشرين سنة، وأول من أملى الحديث بالجامع الطولوني الربيع بن سليمان صاحب الشافعي، واخترت كون الإملاء يوم الجمعة بعد الصلاة على خلاف ما كان عليه الحفاظ الثلاثة الذين أملوا في هذا القرن... فأملت ثلاثين مجلساً مطلقاً ثم قطعته^(٢).

وفي سنة (٨٧٧هـ - ١٤٧٢م) تولى تدريس الحديث وإسماعه بالمدرسة الشيخونية^(٣)، قال السيوطي: وفي رجب سنة سبع وسبعين وثمانمائة وليت

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٩، ص ٩٠، «حسن المحاضرة»: (٣٣٨/١).

(٢) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٨-٨٩، و«حسن المحاضرة»: (٣٣٨/١).

(٣) المدرسة الشيخونية، هي المدرسة التي أنشأها الأمير سبق الدين شيخو العمري سنة (٧٥٧هـ - ١٣٥٦م). ينظر: «الذيل على رفع الإصر» للسخاوي، ص ٤٩٢.

تدريس الحديث بالشيخونية، وأول من وليه في حياة الواقف المحدث جمال الدين عبد الله الزولي، ثم وليه حافظ العصر ابن حجر من سنة ثمان وثمانمائة، ثم نزل عنه فوليه الشيخ شمس الدين الشطنوفي النحوي، ثم وليه بعد وفاته ولده شهاب الدين أحمد، ثم مات فقرر فيه ولده وهو صغير وناب عنه الشيخ فخر الدين المقسي سنين عدة، ولم يتأهل صاحب الوظيفة بعد كبره فنددن الناس بأن هذه الوظيفة لي بشرط الواقف، وبلغ ذلك المذكور فتخيل مني وزاده تخيلاً تصدري لإملاء الحديث، فبادر واستنزل صاحب الوظيفة عنها بخمسين ديناراً فأقام فيها أربع سنين ثم توفي فوليتها بعده بشرط الواقف^(١).

وقد عاب عليه السخاوي إملاء الحديث^(٢)، فرد عليه السيوطي بقوله:

عاب الإملاء للحديث رجال قد سعوا في الضلال سعياً حثيثاً
إنما ينكر الأمالي قوم لا يكادون يفقهون حديثاً^(٣)

ومن الوظائف الدينية الرسمية الأخرى التي تولها السيوطي هي مشيخة التصوف بتربة الأمير برقوق سنة (٨٧٥هـ - ١٤٧٠م)، قال السخاوي: تولى مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي ببان القرافة بعناية بلدية أبي الطيب السيوطي^(٤).

كما تولى السيوطي مشيخة الخانقاه البيبرسية سنة (٨٩١هـ - ١٤٨٦م)

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٩٠-٩١.

(٢) ينظر: «الضوء اللامع»: (٤/٦٦).

(٣) ينظر: «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي: (٨/٥٥).

(٤) ينظر: «الضوء اللامع»: (٤/٦٧).

بمساعدة الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كان بينه وبين السيوطي علاقة حميمة، وقد نص على ذلك السخاوي قائلاً: وقد ساعده الخليفة حتى استقر في مشيخة البيبرسية^(١)، وبقي السيوطي في هذه الوظيفة إلى سنة (٩٠٦هـ - ١٥٠٠م) رغم إثارة الصوفية ضده.

قال تلميذه بن إياس: من الحوادث في هذا الشهر - يعني: شهر رمضان - أن الصوفية التي بالخانقاه البيبرسية ثاروا على شيخهم الشيخ جلال الدين السيوطي وكادوا يقتلونه، ثم حملوه بأثوابه ورموه في الفسقية، وكان طومان باي الدوادار محاطاً عليه، فلما تسلطن فيما بعد اختفى الشيخ السيوطي في مدة سلطنته^(٢).

ويبدو أن هذه الوظيفة كانت آخر وظيفة دينية رسمية تولها السيوطي في حياته حيث رفض أن يتولى بعدها أية وظيفة أخرى وبقي منعزلاً في بيته في روضة المقياس إلى أن توفي سنة (٩١١هـ - ١٥٠٥م)^(٣).

خلاصة ما سبق:

مكث الإمام السيوطي سبعة عشر عاماً (٨٦٧ - ٨٨١هـ) يطلب العمل بين أيدي العلماء، يصغي، ويحفظ، ويكتب.

وفي عام (٨٦٦هـ) تصدر لتدريس العربية بعد أن أجازته شيخه الشُّمْنِي بذلك.

(١) ينظر المصدر السابق: (٦٩/٤).

(٢) ينظر: «بدائع الزهور»: (٣٨٨/٣).

(٣) ينظر: «الضوء اللامع»: (٦٩/٤)، «شذرات الذهب»: (٥٣/٨).

وفي سنة (٨٦٧هـ) تولى تدريس الفقه في المدرسة الشيخونية، وهو المنصب الذي كان لأبيه من قبل، وأضيف إليه تدريس الحديث الشريف. وفي سنة (٨٧١هـ) كان له الإفتاء العام. وفي سنة (٨٧٢هـ) جلس لإملاء الحديث النبوي في جامع أحمد بن طولون، بعد أن انقطع بوفاة الحافظ ابن حجر العسقلاني سنة (٨٥٢هـ). وفي سنة (٨٩١هـ) أصبح شيخ الخانقاه البيبرسية، أكبر خوانق مصر، وأغناها، إضافة لمشيخة التصوف بتربة برقوق الناصري. وفي سنة (٩٠٦هـ) صرفه السلطان طومان باي عنها، بعد تمرد الصوفية عليه، ثم عرضت عليه سنة (٩٠٩هـ)، فأبأها، وكان هذا آخر عهده بالمناصب.





المبحث الرابع: خلقه وورعه، تمسكه بالسنة وسلوكه طريق
السلف الصالح.

المطلب الأول: خلقه وورعه.

المطلب الثاني: تمسكه بالسنة وسلوكه طريق السلف الصالح.



المبحث الرابع

خلقه وورعه، وتمسكه بالسنة

وسلوكه طريق السلف الصالح

المطلب الأول: خلقه وورعه

كان جلالُ الدين السيوطي مجبُولاً على الخصالِ الحميدة، من صفاءِ الباطن، وسلامةِ السَّريرة، وحُسنِ الاعتقادِ، ورِعاً زاهداً، مجتهداً في العلم والعمل، لا يتردُّ إلى أحدٍ من الأمراءِ والملوك، ولا إلى غيرهم مدَّةَ حياته رضي الله تعالى عنه.

وكان يُظهِرُ كلَّ ما أَنْعَمَ اللهُ عليه من العُلوم والأخلاق، ولا يَكْتُمُ منها إلَّا ما أَمَرَ بِكْتُمِهِ؛ عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ﴿١١﴾ [الضحى: ١١]. وكان من لا يعرف مقصده يقول: فلانٌ عنده دعوى عظيمة.

وكان السيوطي يفتي بتحريم الاشتغال بعلم المنطق وكتبه، وينقل تحريم ذلك عن شيخه علم الدين البُلُقينيِّ، وألَّفَ كراسةً في ذلك، سمَّاها «الغيث المغدق في تحريم المنطق»، وقام عليه جماعةٌ، قال: وهذه الواقعة من أول وقائعي الذي قام الناس عليَّ فيها.

وكان السيوطي يقول: ينبغي للمدرِّس أن يقرأ سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وسورة الإخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب كلِّما يريد أن يدرِّس، ويُنْقَلُ فعل ذلك عن شيخ الإسلام علم الدين صالح البُلُقينيِّ رضي الله تعالى عنه.

المطلب الثاني: تمسكه بالسنة وسلوكه طريق السلف الصالح

الزجر بالهجر لأنه كان كثير الملازمة لهذه السنة^(١)، ومن السنن التي أحيها سنة لبس الطيلسان، وقد ألف في ذلك مؤلفاً سماه «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان»^(٢).

وكان لا يبادر أحداً بالاعتداء والخصومة، ولا يقابل الاعتداء بمثله بل يصبر ويحتسب ذلك عند الله، ويعد هذا من نعم الله عليه ولذلك فقد عقد فصلاً في كتابه «التحدث بنعمة الله» بعنوان: ذكر نعمة الله عليّ بأن أقام لي عدواً يؤذيني، كما كان للسلف^(٣).

وهو مع ذلك سمح الخلق، لين العريكة، أن دُعي للصلح أجاب، وقد ألف في ذلك رسالة سماها «النجع في الإجابة إلى الصلح»^(٤).

تمسكه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وله في ذلك مواقف كثيرة ومشهورة مع سلاطين عصره وأمرائه، مما دفع أحد السلاطين أن يتهدده بالقتل، بل إن السلطان طومان باي قد تعقبه وأراد البطش به مما اضطره أن يختفي أيام حكمه^(٥).

وله فتاوى جريئة منها فتواه بهدم منزل مُعد للفساد، وألف في ذلك رسالة

(١) ينظر: «الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» للسيوطي: (٢/٧٨٧).

(٢) طبع في الهند قديماً، وله في ذلك مؤلف آخر بعنوان (طي اللسان عن ذم الطيلسان)، يُنظر: «بهجة العابدين» ص ١٢.

(٣) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ١٦٠.

(٤) يُنظر: «التحدث بنعمة الله» ص ١٩٤.

(٥) يُنظر: «بدائع الزهور» لابن إياس: (٣/٤٧٧)، «الطبقات الصغرى» ص ٣٥.

سماها: «رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين»^(١)، ومنها فتواه بشأن الأوقاف ومنع السلطان الغوري من بيعها وألف رسالة في ذلك سماها «الإنصاف في تمييز الأوقاف»^(٢)، ومنها رسالته المسماة بـ«الرسالة السلطانية»^(٣) التي أرسلها إلى السلطان قايتباي فيها جملة من الأحاديث المرورية في نهى العلماء عن التردد إلى السلاطين.

٢- عدم تردده إلى السلاطين وسلوكه في ذلك طريق السلف الصالح في عدم التردد إليهم إلا المرات اليسيرة، حتى قال له تلميذه الشاذلي: أن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك الأمراء في حوائج الناس فأجابه بقوله: اتباع السلف في عدم التردد عليهم أسلم لدين المسلم وكذلك في رد أموالهم عليهم^(٤)، وكان الأمراء والسلاطين يُرسلون إليه فيعتذر عن الإجابة، وألف في ذلك مؤلفاً سماه «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»^(٥).

وعندما ألح عليه السلطان الغوري في المجيء إليه قال في نفسه: ما بقي علي في آخر عمري إلا التردد إلى الملوك لآخذ الرزق، وأنا طول عمري سالك سبيل السلف، عامل بالأحاديث الواردة فيه^(٦)، ثم قال: مالي وللسلطان، إن كان للسلطان عندي حاجة فليأت إلى منزلي، ولذلك لما توفي

(١) وتُسمى أيضاً «هدم الجاني على الباني» مطبوعة ضمن كتابه «الحاوي للفتاوي» للسيوطي: (١/١١٣).

(٢) وهي مطبوعة ضمن «الحاوي»: (١/١٥٥).

(٣) وهي مختصر كتابه «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»، ينظر: «الطبقات الصغرى» ص ٣٤.

(٤) ينظر: «الطبقات الصغرى» ص ٣٢.

(٥) ينظر المصدر السابق، ص ٣٤.

(٦) ينظر: «بهجة العابدين» ص ٢٢.

السيوطي وبلغ ذلك السلطان لم يتعرض لتركته - رغم فساد دولته - وقال: الشيخ لم يقبل منا شيئاً في حياته، فنحن لا نتعرض لتركته بعد وفاته^(١).

ومناقب الشيخ كثيرة وبالجملة فهو كما قال عن نفسه: إن الله سبحانه من فضله وكرمه جبلني من حين كنت ابن سبع سنين على خصال منها:

حُب الخير والعمل الصالح والإصغاء إلى من حث عليه، وكراهة الشر والعمل السيئ والنفور عن دعا إليه.

ب رحمته سن الاعتقاد في الفقراء وأهل الصلاح والزهد والتعبد وكل من ينسب إلى شيء من خصال الخير.

ج - كثرة التأنى في الأمور، وعدم المبادرة، فرب أمر أريد الأقدام على فعله فأمكنث السنين أتروى فيه حتى يشرح الله صدري لفعله.

د - ورب رجل يذكر لي بسوء ولا يغيرني ما كنت عليه من حُسن الظن به حتى أجربه سنين، ويتواتر عندي ما ينفرنى منه، فالأصل في كل مسلم عندي الدين والخير حتى يثبت عندي ما يُنافي ذلك بالتجربة لا بالإخبار^(٢).

والممتنع لسيرة السيوطي يجد مصداق ما قال، ولقد جمل ذلك كله بتقوى الله والافتداء بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء العاملين وما ذل من ذل وهان من هان إلا بحُب الدنيا والافتتال عليها وقلة الخوف من الله في كل زمان.



(١) ينظر المصدر السابق نفسه.

(٢) ينظر: «بهجة العابدين» ص ٢٥.

المبحث الخامس

وفاته

توفي الإمام السيوطي رحمه الله تعالى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من شهر جمادى الأولى من سنة (٩١١هـ) كما ذكره الشعراني في «ذيل طبقاته». وصلى عليه الشعراني بالروضة عقب صلاة الجمعة بجامع الشيخ أحمد الأباريقي، ثم صلى عليه خلق كثير مرة ثانية بالجامع الجديد في مصر العتيقة. وكان قد مرض سبعة أيام بورم شديد في ذراعه الأيسر. وأتم من حياته إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، ونقل أنه قرأ عند احتضاره سورة يس.

ودفن بحوش قوصون - المسمى عند العامة: قيسون - خارج باب القرافة، يسميه العامة الآن: بوابة السيدة عائشة، وهي بنت جعفر الصادق، وذلك بالقاهرة زمان السلطان الغوري، وكان زمانه زمان جور، ولكن لم يتعرض أحد لتركته.

وقال السلطان الغوري: لم يقبل الشيخ منا شيئاً في حياته فلا نتعرض لتركته - وبنيت على قبره قبة. وعمل له بعض الأمراء صندوقاً من خشب وستراً أسود مطرزاً بالأبيض بأية الكرسي - كما ذكره تيمور باشا، وبنيت والدته على قبره بناء لطيفاً.

وليس لجلال الدين السيوطي صلة بالضريح الذي بداخل المسجد المسمى بمسجد سيدي جلال الكائن بأسيوط، ولعل ذلك ضريح من بنى تلك المدرسة التي أقيم فيها المسجد من أجداده، أو ضريح أحد من ذرية من بناها، ثم بمرور الزمن نسب إلى الجلال لشهرته.

والمحققون: على أنه لم يعقب، فالمنسوبون إليه في أسيوط ليسوا من ذريته، بل إما من نسل نزار المسجد أو خدمته كما حققه تيمور باشا.



الفصل الثالث:

الحياة العلمية والفكرية للإمام السيوطي:

المبحث الأول: شيوخ السيوطي.

تمهيد.

المبحث الثاني: تلاميذ السيوطي.

المبحث الثالث: مؤلفات وأثار السيوطي.



المبحث الأول شيوخ السيوطي

تمهيد:

قال جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى: أخذت العلم عن ستّ مئةٍ نفساً، وقد نظمتهم في إرجوزةٍ.

قال: وهم أربع طبقاتٍ:

الأولى: من يروي عن أصحاب الفخر ابن البخاري^(١) والشرف الدميّاطي^(٢)، ووزيره، والحجار^(٣)، وسليمان بن حمزة^(٤)، وأبي نصر بن الشيرازي^(٥)، ونحوهم.

(١) هو أبو الحسن علي بن أحمد، فخر الدين المقدسي، ويُعرف بـ«ابن البخاري» وتوفي سنة (٦٩٠هـ).

ينظر ترجمته في: «شذرات الذهب»: (٥/٤١٤)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي: (٩/١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي: (٥١/٤٢٢)، و«ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد» للفاسي: (٢/١٧٨).

(٢) هو أبو محمد عبد المؤمن بن خلف، شرف الدين الدميّاطي، توفي سنة (٧٠٥هـ). ينظر ترجمته في: «فوات الوفيات»: (٢/١٧)، و«طبقات الشافعية»: (٤/١٠)، و«شذرات الذهب»: (٦/١٢)، و«الدرر الكامنة»: (٢/٤١٧)، و«البدر الطالع»: (١/٤٠٣).

(٣) هو أبو العباس أحمد بن أبي طالب، الصالحي الحجار المعروف بابن الشحنة المعمر، توفي سنة (٧٣٠هـ). انظر: «الدرر الكامنة»: (١/١١٦)، و«معجم الشيوخ» للسبكي، ص ٦٢.

(٤) هو سليمان بن حمزة، تقي الدين، ابن قدامة المقدسي، توفي سنة (٧١٥هـ). ينظر ترجمته في: «تاريخ الصالحية» ص ٩٨، و«الدرر الكامنة»: (٢/١٤٦)، و«البداية والنهاية»: (١٤/٧٥)، و«دول الإسلام»: (٢/١٧١)، و«الدارس»: (١/٥٢).

(٥) هو أبو نصر محمد بن هبة الله، شمس الدين بن الشيرازي، توفي سنة (٦٣٥هـ).

الثانية: من يروي عن السراج البلقيني^(١)، والحافظ أبي الفضل العراقي^(٢) ونحوهما. وهي دون التي قبلها في العلو.

الثالثة: من يروي عن الشرف ابن الكويك^(٣)، وعن الجمال الحنبلي^(٤) ونحوهما، وهي دون الثانية.

الرابعة: من يروي عن أبي زرعة العراقي^(٥)، وابن الجزري^(٦)

= ينظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء»: (٣١/٢٣)، و«نثر الجمان» للفيومي: (٢/٩٥)، و«طبقات السبكي»: (٥/٤٣-٤٤).

(١) وهو أبو حفص عمر بن رسلان، سراج الدين البلقيني، والد جلال الدين البلقيني، توفي سنة (٨٠٥هـ).

ينظر ترجمته في: «الضوء اللامع»: (٦/٨٥)، و«شذرات الذهب»: (٧/٥١)، و«حسن المحاضرة»: (١/١٨٣).

(٢) هو أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين، زين الدين العراقي، أصله من الكرد، توفي سنة (٨٠٦هـ).

ينظر ترجمته في: «الضوء اللامع»: (٤/١٧١)، و«ذيل طبقات الحفاظ»: (١/٣٨٢)، و«حسن المحاضرة»: (١/٢٠٤).

(٣) هو أبو طاهر محمد بن محمد، شرف الدين ابن الكويك، توفي سنة (٨٢١هـ).

ينظر ترجمته في: «إنباء الغمر بأبناء العمر»: (٧/٣٤١)، و«شذرات الذهب»: (٧/٣١١).

(٤) هو أبو موسى عبد الله بن عبد الغني، جمال الدين المقدسي، توفي سنة (٦٢٩هـ).

ينظر ترجمته في: «تكملة المنذري»: (٣/الترجمة ٢٤١٦)، و«تذكرة الحفاظ»: (٤/١٤٠٨-١٤١٠)، و«العبر»: (٥/١١٤-١١٥)، و«الذيل» لابن رجب: (٢/١٨٥-١٨٧)، و«شذرات الذهب»: (٧/٣١٤).

(٥) هو أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم، ولي الدين الكردي العراقي، توفي سنة (٨٢٦هـ).

ينظر ترجمته في: «لحظ الألاحظ» ص ٢٨٤، و«البدر الطالع»: (١/٧٢)، و«الضوء اللامع»: (١/٣٤٤-٣٣٦).

(٦) هو أبو الخير محمد بن محمد، شمس الدين، الشهير بابن الجزري، توفي سنة (٨٣٣هـ).

ونحوهما، وهذه لتكثير العدة وتكبير المعجم، ولم أرو عنها شيئاً لا في الإملاء، ولا في التخريج، ولا في التأليف.

وصنّف رحمه الله تعالى في مكة لمّا حجّ وجاور كراساً على نمط «عنوان الشرف»^(١) في يومٍ واحدٍ، يحتوي على نحوٍ ومعانٍ وبديعٍ، وعروضٍ وتاريخٍ^(٢).

وكان يقول: لمّا حججت شربت من ماء زمزم على نية أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحفظ في الحديث كالحافظ ابن حجر. وتلقى السيوطي مختلف أنواع المعرفة على أيدي عدد كبير من العلماء والمشايخ في مختلف فنون العلم والمعرفة، ونظراً لكثرة شيوخه نجده قد أفرد تراجم من أخذ عنهم في خمسة كتب منها:

- ١- إنساب الكتب في أنساب الكتب، ويسمى فهرس المرويات.
- ٢- حاطب ليل وجارف سيل، ويسمى المعجم الكبير في مجلد كبير.
- ٣- زاد المسير في فهرس الصغير.
- ٤- المعجم الصغير، ويسمى المنتقى.

= ينظر ترجمته في: «طبقات الحفاظ» للسيوطي: (٣/٨٥)، و«مفتاح السعادة»: (١/٣٩٢)، و«الأنس الجليل»: (٢/٤٥٤)، و«الضوء اللامع»: (٩/٢٥٥-٢٦٠).

(١) وهو كتاب «عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي» لإسماعيل بن أبي بكر، شرف الدين ابن المقرئ اليميني، المتوفى سنة (٨٣٧هـ). انظر: «كشف الظنون»: (٢/١١٧٥).

(٢) قال السيوطي في «بغية الوعاة»: وقد عملت كتاباً على نمط «عنوان الشرف» في كراسة في يوم واحد وأنا بمكة المشرفة، وسميته: «التّفحة المسكية والتّحفة المَكِيّة»، جعلت مجموعته في النحو، وفيه عروض ومعانٍ وبديعٍ وتاريخ. والكتاب مطبوع.

٥- المنجم في المعجم^(١).

ولا يسعنا المقام هنا لذكرهم جميعاً وسنتكلم عن أهم شيوخه الذين تركوا أثراً في سيرته العلمية والفكرية، منهم:

١- ابن حجر العسقلاني:

هو أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل، نهل من بحور العلم المختلفة، ثم قصر نفسه على علم الحديث، زادت مصنفاته التي معظمها في علوم الحديث على مئة وخمسين مصنفاً، ورزق فيها القبول، خصوصاً «فتح الباري بشرح البخاري» الذي لم يسبق إلى مثله.

وقد كان والد السيوطي يحضره معه لمجلس ابن حجر وعمره ثلاث سنوات، وقال السيوطي: ولي منه إجازة عامة، ولا أستبعد أن يكون لي منه إجازة خاصة، فإن والدي كان يتردد إليه، وينوب في الحكم عنه، وإن يكن فاتني حضور مجالسه والفوز بسماع كلامه والأخذ عنه فقد انتفعت في الفن بتصانيفه، واستفدت منه الكثير، ولد في شعبان سنة (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م) بمصر، وتوفي في أواخر ذي الحجة سنة (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)^(٢).

٢- علم الدين البلقيني:

هو شيخ الإسلام، قاضي القضاة، علم الدين، صالح بن عمر بن رسلان الكناني البلقيني، حامل لواء مذهب الشافعي في عصره، وعنه أخذ السيوطي الفقه، ولد بالقاهرة سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، وتوفي يوم الأربعاء

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ١٢٧، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي، ص ٥٥٣.

(٢) ينظر: «الضوء اللامع»: (٢/٣٦-٤٠)، و«شذرات الذهب»: (٧/٢٧٠-٢٧٥).

الخامس من رجب سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٣م)^(١).

٣- شرف الدين المناوي:

شيخ الإسلام، قاضي القضاة، أو زكريا يحيى بن محمد بن محمد المناوي القاهري الشافعي، جد عبد الرؤوف المناوي، شارح «الجامع الصغير»، ولد سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٥م)، وتوفي سنة (٨٧١هـ/١٤٦٦م)^(٢).

٤- تقي الدين الشَّمَّيَّ:

هو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن حسن التميمي الداري الحنفي القسطنطيني، ولد بالإسكندرية سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، وتوفي سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)^(٣).

٥- محيي الدين الكافيحي:

هو العلامة محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود البرغمي الرومي الحنفي، أبو عبد الله، ويعرف بالكافيحي لإكثاره من قراءة «الكافية» لابن الحاجب، فنسب إليها بزيادة جيم كما هي عادة الترك في النسب، ولد سنة (٧٨٨هـ/١٣٨٦م)، توفي سنة (٨٧٩هـ/١٤٧٤م)^(٤).

٦- سيف الدين الحنفي:

هو الإمام محمد بن عمر بن قطلوبغا البكتمري القاهري الحنفي

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٥٢، و«نظم العقيان في أعيان الأعيان» ص ١١٩.

(٢) ينظر: «الضوء اللامع»: (١٠/٢٥٤-٢٥٧)، و«شذرات الذهب»: (٧/٣١٢).

(٣) ينظر: «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة» للسيوطي: (١/٣٧٥-٣٧٧)، و«شذرات الذهب»: (٧/٣١٣).

(٤) ينظر: «بدائع الزهور»: (٣/٩٤)، و«الضوء اللامع»: (٧/٢٥٩-٢٦١).

النحوي، ولد سنة (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م)، توفي في ذي القعدة سنة (٨٨١هـ / ١٤٧٦م)^(١).

٧- جلال الدين المحلي :

هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري المحلي، جلال الدين المحلي، الشافعي، كان شديد الذكاء، وكان يقول عن نفسه: فهمي لا يقبل الخطأ، كانت له هيبه وسطوة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، برز في فنون عديدة، وله مؤلفات كثيرة، من أبرز كتبه كتاب التفسير الذي أكمله السيوطي على نمطه، وسمي بـ«تفسير الجلالين»، ولد في مستهل شوال سنة (٧٩١هـ / ١٣٨٨م) بالقاهرة، توفي (٨٦٤هـ / ١٤٥٩م)^(٢).

٨- شهاب الدين الشارمساحي :

هو الشيخ أحمد بن علي بن أبي بكر الشارمساحي، وهو علامة زمانه في الفرائض والحساب والمقابلة، توفي سنة (٨٦٥هـ / ١٤٦٠م)^(٣).

٩- عز الدين الكناني :

هو القاضي عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم بن نصر الله الكناني الحنبلي، ولد سنة (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م)، وتوفي سنة (٨٧٦هـ / ١٤٧١م)^(٤).

١٠- عز الدين الميقاتي :

هو أبو الفضل عبد العزيز بن محمد بن محمد القاهري الشافعي، الوفاي

(١) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٤٧٨)، و«شذرات الذهب»: (٧/٣٣٢).

(٢) ينظر: «الكواكب السائرة»: (١/٢٢٦)، و«شذرات الذهب»: (٨/٥٢).

(٣) ينظر: «حسن المحاضرة»: (١/٣٣٦)، و«الضوء اللامع»: (٢/١٦).

(٤) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٤٤.

الميقاتي، ولد سنة (٨١١هـ/١٤٠٨م) بالقاهرة، وتوفي سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م)^(١).

١١- أمين الدين الأقصري:

هو يحيى بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الأقصري الحنفي، ولد سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)^(٢).

١٢- شمس الدين الباني:

هو محمد بن أحمد بن محمد المخزمي الباني الفقيه الشافعي، ولد سنة (٨١٠هـ/١٤٠٧م)، وتوفي سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)^(٣).

١٣- فخر الدين المقسي:

هو العلامة عثمان بن عبد الله بن عثمان القاهري الشافعي، ولد سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م)، وتوفي سنة (٨٧٧هـ/١٤٧٢م)^(٤).

١٤- شمس الدين السيرامي الحنفي:

هو محمد بن موسى بن محمود السيرامي الحنفي، الشيخ شمس الدين، ولد سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٥م)، وتوفي سنة (٨٩١هـ/١٤٨٦م)^(٥).

١٥- قاضي القضاة محي الدين الأنصاري:

هو عبد القادر بن أبي القاسم بن أحمد بن محمود بن عبد المعطي

(١) ينظر: «الضوء اللامع»: (٤/٢٣٢).

(٢) ينظر: «لب الألباب في تحرير الأنساب» ص ١٩، «الضوء اللامع»: (١٠/٢٤٠).

(٣) ينظر: «الضوء اللامع»: (٧/٤٨-٤٩)، و«التحدث بنعمة الله» ص ٦١.

(٤) ينظر: «الضوء اللامع»: (٥/١٣١-١٣٢).

(٥) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ٦٨، و«الضوء اللامع»: (١٠/٦٣-٦٤).

الأنصاري، المالكي، نحوي مكة، ولد سنة (٨١٤هـ/١٤١١م)، وتوفي سنة (٨٨٠هـ/١٤٧٥م)^(١).

١٦- نجم الدين المكي:

هو نجم الدين بن تقي الدين بن تقي الدين محمد بن فهد المكي، توفي سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م)^(٢).



(١) ينظر: «بغية الوعاة»: (٢/١٠٤)، «التحدث بنعمة الله» ص ٥٥.

(٢) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٠.

المبحث الثاني تلاميذ السيوطي

من شأن العلماء العاملين أن يكثر رواده، ويتسابق عليه قصاده، وقد نهل من معين الإمام السيوطي عدد كبير من طلبة العلم والعلماء، لما تمتع به من علمٍ جمٍّ، وخلقٍ كريمٍ، وتواضعٍ كبيرٍ، ويذكر الإمام السيوطي: أنه تصدر للتدريس منذ وقت مبكر وذلك لما رجع من الحج سنة (٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م)، فلم يرد طالباً ولا مبتدئاً ولا فاضلاً^(١)، ولهذا فقد كثر تلاميذه فكان منهم الفقيه، والمحدث، والمؤرخ، واللغوي، وقد أسهم هؤلاء التلاميذ إسهاماً كبيراً في نشر مؤلفاته وشرحها والتعليق عليها ونسخها. وسأقتصر على ذكر تلاميذه المشاهير والملازمين له:

١- الشيخ بدر الدين حسن بن علي القيمري:

قال عنه السيوطي: أحد العلماء البارعين في الفرائض والحساب والعروض والميقات، وأحد الفضلاء المشاركين في الفقه والعربية لزمني عشر سنين، وقرأ علي الكثير من كتبي كـ«منهاج النووي» و«شرح الألفية» لابن عقيل^(٢).

وكان أكبر من السيوطي، تتلمذ عليه وهو في سن الشيخوخة، توفي سنة (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، وقد جاوز السبعين^(٣).

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٨.

(٢) ينظر المصدر السابق نفسه.

(٣) ينظر: «الضوء اللامع»: (٣/ ١١٩).

٢- شيخ القراء، أبو حفص سراج الدين عمر بن قاسم الأنصاري المصري الشافعي:

قال السيوطي: لزماني إلى الآن عشرين سنة، وكتب من مصنفاتي المطولة وغيرها جملة وافرة، وقرأ عليّ أكثر ما كتبتة^(١)، من تصانيفه «البدر المنير في شرح التيسير»، و«البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة»، توفي (٩٣٨هـ/ ١٥٣١م)^(٢).

٣. أبو الفضل شهاب الدين، أحمد بن الأمير تاني بك الألياسي، الحنفي ثم الشافعي:

ولد في شعبان سنة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)، واشتغل بالحديث فلازم الحافظ فخر الدين الديمي ثم الحافظ السخاوي، وبعد خروج السخاوي إلى الحج لازم الإمام السيوطي، قال عنه السيوطي: المحدث البارع، الفاضل الصالح^(٣).

٤- شرف الدين قاسم بن عمر الزواوي المغربي القيرواني المالكي الشيخ الفاضل الصالح المبارك:

صحب الشيخ جلال الدين السيوطي، وقلده في ملازمته لبس الطيلسان صيفاً وشتاءً، (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م)^(٤).

(١) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٨.

(٢) ينظر: «الضوء اللامع»: (١١٣/٦)، «الأعلام»: (٥٩/٥).

(٣) ينظر: «التحدث بنعمة الله» ص ٨٩، و«الضوء اللامع»: (١/٢٦٦-٢٦٥).

(٤) ينظر: «الكواكب السائرة»: (١/٢٩٣-٢٩٤)، و«شذرات الذهب»: (٢/١٥٤-١٥٥).

٥- الشيخ عبد القادر بن محمد الشاذلي، المؤذن المصري الشافعي:

لازم السيوطي مدة طويلة وكتب له ترجمة سماها «بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين»، (ت ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م) ^(١).

٦- الشيخ الحافظ الإمام المحدث شمس الدين محمد بن يوسف بن

علي بن يوسف الشامي الصالحي الدمشقي:

نزىل البرقوقية بمصر، من أجل تلاميذ السيوطي، كان عالماً صالحاً متفنناً في العلوم، له «سبل الرشاد في سيرة خير العباد» في سبع مجلدات، وله أيضاً «عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان» و«الإتحاف بما تبع فيه البيضاوي صاحب الكشاف»، وغير ذلك من الكتب (ت ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) ^(٢).

٧- أبو الحسن، العلامة المحدث الحافظ شمس الدين محمد بن علي

الداودي المصري الشافعي وقيل: المالكي:

كان شيخ أهل الحديث في عصره، قال النجم الغزي: جمع ترجمة شيخه الحافظ السيوطي في مجلد ضخيم، ووضع ذيلاً على كتابه «لب الأبواب في تهذيب الأنساب» و«طبقات المفسرين» اعتمد على كتاب شيخه السيوطي وزاد عليه، وقد قام بنسخ أكثر كتب شيخه بقلمه (ت ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م) ^(٣).

٨- أبو عبد الله الإمام العلامة، المسند المؤرخ، شمس الدين محمد بن

علي بن طولون الدمشقي، الصالحي الحنفي:

(١) ينظر: «هدية العارفين»: (٥/ ٥٩٨)، و«كشف الظنون»: (١/ ٤٠٩).

(٢) ينظر: «شذرات الذهب»: (٨/ ٢٥١)، و«الأعلام»: (٧/ ١٥٥).

(٣) ينظر: «الكواكب السائرة»: (٢/ ٧١)، و«شذرات الذهب»: (٨/ ٢٦٤).

من تصانيفه «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» و«القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية»^(١)، (ت ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)^(٢).

٩- مؤرخ مصر أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:

صاحب تاريخ مصر المسمى «بدائع الزهور في وقائع الدهور»^(٣)، ومن كتبه «عقود الجمان في وقائع الزمان»، و«الجواهر الفريدة والنوادر المفيدة»، وغيرها (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م)^(٤).

١٠- الإمام العلامة السيد يوسف بن عبد الله، الشريف جمال الدين

الحسيني الأرميوني الشافعي:

إمام المدرسة الكاملية، وكان من أكثر تلاميذ السيوطي قرباً منه وكانت له مكانة خاصة عند شيخه فقد ذكر الكتاني أن السيوطي كان لا يفتح بيته لتلامذته إلا إذا كان معهم السيد يوسف وإلا فلا يفتح وكان السيد يوسف يقرأ والباقي يسمع (ت ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)^(٥).

١١- الإمام قطب الدين محمد بن عبد الرحمن الصفوري الصالحي

الشافعي:

قال النجم الغزي: أخذ عن والده وعن الشيخ جلال الدين السيوطي

بمصر وكان له وعظ حسن (ت ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) ودفن بسفح قاسيون^(٦).

(١) ينظر: «الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون» ص ٣٠٤.

(٢) ينظر: «الكواكب السائرة»: (٢/ ٥٤)، و«شذرات الذهب»: (٨/ ٢٩٩).

(٣) ينظر: «كشف الظنون»: (١/ ٣٠٥).

(٤) ينظر: «الأعلام»: (٦/ ٥)، و«هدية العارفين»: (٦/ ٢٣١).

(٥) ينظر: «فهرس الفهارس»: (١/ ٩٧)، و«الكواكب السائرة»: (٢/ ٢٦٢).

(٦) ينظر: «الكواكب السائرة»: (٢/ ٤١-٤٢).

١٢- الشيخ سليمان الخضيرى المصرى الشافعى :

أخذ العلم عن السيوطى والأوجاقى (ت ٩٦١هـ / ١٥٥٣م) ^(١).

١٣- الإمام شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن على بن أبى بكر

العلقمى الشافعى :

أخذ عن السيوطى والبدر الغزى وغيرهما ، له كتاب سماه «ملتقى

البحرين» (ت ٩٦١هـ / ١٥٥٣م) ^(٢).

١٤- الإمام عبد الوهاب بن أحمد بن على الشعرانى ، الإمام الفقيه :

ترجم لشيخه السيوطى فى كتابه «الطبقات الصغرى» له عدة كتب منها :

«لطائف المنن» و«لواحق الأنوار فى طبقات الأخيار» ويعرف بـ«الطبقات

الكبرى» وغيرها (ت ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م) ^(٣).



(١) ينظر: «شذرات الذهب»: (٨/ ٣٢٩)، و«الكواكب السائرة»: (٢/ ١٤٩).

(٢) ينظر المصدران السابقان نفسهما.

(٣) ينظر: «الأعلام»: (٤/ ١٨٠-١٨١)، و«الكواكب السائرة»: (٣/ ١٧٦-١٧٧).



المبحث الثالث

مؤلفات وآثار السيوطي

تمهيد:

نورد فيما يلي أسماء آثار السيوطي ، وما أشرنا إلى أنه مطبوع أو مخطوط فهو من المصادر التي اعتمدنا عليها في البحث وتمكنا من الرجوع إليها ، وما لم نذكر ذلك فهو ما لم نتمكن من الوقوف عليه ، وقد اعتمدنا في سرد ما لم نقف عليه من آثاره على ما ورد بـ«حسن المحاضرة» له ، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة ، و«هدية العارفين» لإسماعيل البغدادي.

- ١ - أبواب السعادة في أسباب الشهادة. مطبوع.
- ٢ - الابتهاج في مشكل المنهاج. ذكره صاحب «هدية العارفين».
- ٣ - إتحاف الفرقة برغو الخرقه. مطبوع.
- ٤ - إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء. مطبوع.
- ٥ - الإتيقان في علوم القرآن. مطبوع.
- ٦ - إتمام الدراية لقراء النقاية. مطبوع.
- ٧ - إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمة. مطبوع.
- ٨ - الأجر الجزل في الغزل. مطبوع.
- ٩ - الأجوبة الزكية عن الألغاز السبكية. مطبوع.
- ١٠ - الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان. مطبوع.
- ١١ - الأحاديث المنيفة في السلطنة الشريفة. (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).

- ١٢ - أحاسن الاقتناس في محاسن الاقتباس. مطبوع.
- ١٣ - الاحتفال بالأطفال. مطبوع.
- ١٤ - إحياء الميت بفضائل أهل البيت. مخطوط.
- ١٥ - الأخبار المأثورة في الاطلاع بالنورة. مطبوع.
- ١٦ - الأخبار المروية في سبب وضع علم العربية. مطبوع.
- ١٧ - أخبار الملائكة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٨ - آداب الفتوى (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٩ - آداب الملوك (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢٠ - أدب القاضي على مذهب الشافعي (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢١ - أدب المفرد في الحديث (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٢ - أذكار الأذكار مختصر حلية الأبرار (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٣ - أربعون حديثاً في رفع اليدين في الدعاء (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٤ - أربعون حديثاً في فضل الجهاد (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٥ - أربعون حديثاً من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٦ - الأرج في الفرج. مطبوع.
- ٢٧ - إرشاد المهتدين إلى نصره المجتهدين. مطبوع.
- ٢٨ - إزالة الوهن عن مسألة الرهن (ذكره في «حسن المحاضرة»).

- ٢٩ - الأزدهار فيما عقده الشعراء من الآثار (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٠ - أزهار الآكام في أخبار الأحكام (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣١ - أزهار العروش في أخبار الجيوش (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»)
- ٣٢ - الأزهار الفاتحة على الفاتحة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٣ - الأزهار الغضة في حواشي الروضة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٤ - الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٥ - الأساس في مناقب بني العباس. مخطوط.
- ٣٦ - أسباب الاختلاف في الفروع (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٧ - أسباب الحديث (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٨ - إسبال الكساء على النساء. مخطوط.
- ٣٩ - أسجال الاهتداء بإبطال الاعتداء (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٠ - إسعاف الطلاب من مختصر الجامع الصغير بترتيب الشهاب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤١ - إسعاف المبطل برجال الموطأ. مطبوع.
- ٤٢ - الأسئلة الوزيرية وأجوبتها. مطبوع.
- ٤٣ - أسماء المهاجرين. مخطوط.

- ٤٤ - الأشباه والنظائر في الفقه. مطبوع.
- ٤٥ - الأشباه والنظائر في النحو. مطبوع.
- ٤٦ - أطراف الأشراف بالإسراف على الأطراف (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٧ - الاعتماد والتوكل على ذي التكفل (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٨ - أعذب المناهل في حديث: من قال أنا عالم فهو جاهل. مطبوع.
- ٤٩ - الإعراض والتولي عمّن لا يحسن أن يصلي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٠ - إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥١ - الإعلام بحكم عيسى عليه السلام. مطبوع.
- ٥٢ - الأعلام الحسنی بمعاني الأسماء الحسنی (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٣ - أعلام النصر في إعلام سلطان العصر بمسألة البروز على شاطئ النهر. مطبوع.
- ٥٤ - إعمال الفكر في فضل الذكر. مطبوع.
- ٥٥ - إغاثة المستغيث في حل بعض إشكالات الحديث (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٦ - الإغضاء عن دعاء الأعضاء (ذكره بـ«كشف الظنون»).

- ٥٧ - إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٨ - الإفصاح في أسماء النكاح (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٩ - الإفصاح في زوائد القاموس على الصحاح (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٦٠ - الإفصاح على تلخيص المفتاح (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٦١ - الاقتراح في علم أصول النحو. مطبوع.
- ٦٢ - الاقتناص في مسألة التماص (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٦٣ - آكام العقيان في أحكام الخصيان (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٦٤ - الإكليل في استنباط التنزيل. مخطوط.
- ٦٥ - التقاط لقط المرجان في أحكام الجان. مخطوط.
- ٦٦ - إلقام الحجر لمن زكى سباب أبي بكر وعمر (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٦٧ - الإلماع في الاتباع (ذكر بـ«كشف الظنون» وبـ«هدية العارفين»).
- ٦٨ - ألوية النصر في «خصيصى» بالقصر. مطبوع.
- ٦٩ - أمالي على الدرّة الفاخرة (ذكر بـ«كشف الظنون» وبـ«هدية العارفين»).
- ٧٠ - الأمالي على القرآن (ذكر بـ«كشف الظنون» وبـ«هدية العارفين»).
- ٧١ - الأمالي المطلقة (ذكر بـ«كشف الظنون» وبـ«هدية العارفين»).

- ٧٢ - الأناقة في رتب الخلافة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٧٣ - إنباء الأذكياء بحياة الأنبياء. مطبوع.
- ٧٤ - الانتصار بالواحد القهار (ذكر بـ«كشف الظنون» وبـ«هدية العارفين»).
- ٧٥ - إنجاز الوعد بالمنتقى من طبقات ابن سعد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٧٦ - انساب الكثر في أنساب الكتب (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٧٧ - الإنصاف في تمييز الأوقاف. مطبوع.
- ٧٨ - أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب. مخطوط.
- ٧٩ - الأنوار السنية في تاريخ الخلفاء والملوك لمصر السنية (ذكر بـ«هدية العارفين»).
- ٨٠ - الأوج في خبر عوج. مطبوع.
- ٨١ - الآية الكبرى في شرح قصة الاسرا. مطبوع.
- ٨٢ - الإيضاح في علم النكاح. مطبوع.
- ٨٣ - الباحة في السباحة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٨٤ - البارع في إقطاع الشارع. مطبوع.
- ٨٥ - البارق في قطع يد السارق (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٨٦ - الباهر في حكم النبي ﷺ في الباطن والظاهر. مطبوع.

- ٨٧ - بدائع الزهور في وقائع الدهور (ذكر بـ«كشف الظنون»).
- ٨٨ - البدر الذي انجلى في مسألة الولا. مطبوع.
- ٨٩ - البدور السافرة في أمور الآخرة. مخطوط.
- ٩٠ - البحر الذي زخر في شرح نظم الدرر (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٩١ - بذل العسجد لسؤال المسجد. مطبوع.
- ٩٢ - بذل المجهود لخزانة محمود (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٩٣ - بذل الهمة في طلب براءة الذمة. مطبوع.
- ٩٤ - برد الظلال في تكرار السؤال (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٩٥ - البرق الوامض في يائية ابن الفارض. مطبوع.
- ٩٦ - بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال. مخطوط.
- ٩٧ - بسط الكف في إتمام الصف. مطبوع.
- ٩٨ - بشرى الكئيب بلقاء الحبيب. مطبوع.
- ٩٩ - بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٠٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. مطبوع.
- ١٠١ - بلبل الروضة (ضمن مجموعة مقامات له). مطبوع.
- ١٠٢ - بلغة المحتاج في مناسك الحاج (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٠٣ - بلوغ الأمنية في خانقاه الركنية (ذكر بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٠٤ - بلوغ المآرب في قص الشارب. مخطوط.

- ١٠٥ - بلوغ المآرب في أخبار العقارب (ذكر بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٠٦ - بلوغ المأمول في خدمة الرسول. مطبوع.
- ١٠٧ - البهجة المرضية في شرح الألفية. مطبوع.
- ١٠٨ - بهجة الناظر ونزهة الخاطر. مخطوط.
- ١٠٩ - تأخير الظلام إلى يوم القيامة. مخطوط.
- ١١٠ - تاريخ الخلفاء. مطبوع.
- ١١١ - تأييد الحقيقة العلية وتشديد الطريقة الشاذلية (ذكر بـ«هدية العارفين» و«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»).
- ١١٢ - التبر الذائب في الأفراد والغرائب (ذكر بـ«هدية العارفين»).
- ١١٣ - التبري من معرة المعري. مطبوع.
- ١١٤ - تبيض الصحيفة بمناقب الإمام أبي حنيفة. مطبوع.
- ١١٥ - التثبيت عند التبييت. مطبوع.
- ١١٦ - التحبير في علوم التفسير. مطبوع.
- ١١٧ - تحذير الخواص من أكاذيب القصاص. مطبوع.
- ١١٨ - تحرير المنقول وتهذيب الأصول (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١١٩ - تحفة الآثار في الأدعية والأذكار (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٢٠ - تحفة الأبرار بنكت الأذكار (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٢١ - تحفة الأنجاب بمسألة السنجاب. مطبوع.

- ١٢٢ - تحفة الجلساء برؤية الله تعالى للنساء. مطبوع.
- ١٢٣ - تحفة الحبيب بنحاة مغني اللبيب (ذكر بـ«هدية العارفين»).
- ١٢٤ - تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء (ذكر بـ«هدية العارفين» و«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»).
- ١٢٥ - تحفة الكرام بأخبار الأهرام (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٢٦ - تحفة المجالس وأنس المجالس. مطبوع.
- ١٢٧ - تحفة المجتهدين في أسماء المجددين. مخطوط.
- ١٢٨ - تحفة المذاكر في المنتقى من تاريخ ابن عساكر (ذكر بـ«حسن المحاضرة»).
- ١٢٩ - تحفة النابه بتلخيص المتشابه (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٣٠ - تحفة الناسك بنكت المناسك (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٣١ - تحفة النجبا في قولهم: هذا بسراً أطيب منه رطباً (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٣٢ - تخريج أحاديث شرح العقائد (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٣٣ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. مطبوع.
- ١٣٤ - تذكرة المؤتسي فيمن حدث ونسي (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٣٥ - التذنيب في الزوائد على التقريب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٣٦ - التذييل والتذنيب على نهاية الغريب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).

- ١٣٧ - ترجمان القرآن في التفسير المسند (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٣٨ - ترجمة النووي والبلقيني (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٣٩ - تزيين الأرائك بإرسال النبي ﷺ إلى الملائك. مطبوع.
- ١٤٠ - تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٤١ - تشنيف الأسماع بأحكام السماع (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٤٢ - تشنيف الأسماع بأحكام الإجماع (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٤٣ - تشنيف السمع بتعدد السبع (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٤٤ - تشييد الأركان في ليس في الإمكان أبدع مما كان. مطبوع.
- ١٤٥ - التصحيح لصلاة التسبيح (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٤٦ - التضلع بمعنى التفتيح (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٤٧ - التطريف في التصحيف (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٤٨ - تعريف الأعجم بحروف المعجم (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٤٩ - التعريف بأداب التأليف. مخطوط.
- ١٥٠ - تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة. مطبوع.
- ١٥١ - التعظيم والمنة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنة. مطبوع.
- ١٥٢ - تعقبات السيوطي على موضوعات ابن الجوزي. مطبوع.
- ١٥٣ - التعلل والإطفاء لنار لا تطفأ (ذكره صاحب «هدية العارفين»).

- ١٥٤ - تعليقة على السنن الكبيرة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٥٥ - تعليق الشص في حلق اللص (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٥٦ - تفسير الجلالين. مطبوع.
- ١٥٧ - تقدير أيام الدجال. مخطوط.
- ١٥٨ - تقريب القريب في الحديث (ذكره بـ«هدية العارفين» و«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»).
- ١٥٩ - تقرير الإسناد في تفسير الاجتهاد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٦٠ - تلخيص الأربعين لابن حجر في المتباين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٦١ - تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٦٢ - تناسق الدرر في تناسب السور. مطبوع.
- ١٦٣ - التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة. مطبوع.
- ١٦٤ - تنبيه الغبي ببراءة ابن عربي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٦٥ - تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد. مطبوع.
- ١٦٦ - تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء. مطبوع.
- ١٦٧ - التنفيس في الاعتذار عن ترك الافتاء والتدريس. مطبوع.
- ١٦٨ - التنقيح في مسألة التصحيح (ذكره بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٦٩ - تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك. مطبوع.
- ١٧٠ - تنوير الحوالمك شرح على موطأ مالك. مطبوع.

- ١٧١ - توجيه العزم في اختصاص الاسم بالجـر والفعل بالجزم (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ١٧٢ - التوشيح على التوضيح. مطبوع.
- ١٧٣ - التوشيح على الجامع الصحيح للبخاري. مطبوع.
- ١٧٤ - توضيح المدرك في تصحيح المستدرك (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٧٥ - تهذيب الأسماء (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٧٦ - التهذيب في أسماء الذيب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٧٧ - الثبوت في ضبط ألفاظ القنوت. مخطوط.
- ١٧٨ - الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة. مخطوط.
- ١٧٩ - ثلج الفؤاد في أحاديث لبس السواد. مطبوع.
- ١٨٠ - الجامع الصغير لأحاديث البشير النذير. مطبوع.
- ١٨١ - جامع المسانيد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٨٢ - جامع الفرائض (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ١٨٣ - جرّ الذيل في علم الخيل (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٨٤ - جزء في السلام على سيد الأنام (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٨٥ - جزء في السلام من سيد الأنام. مخطوط.
- ١٨٦ - جزء في صلاة الضحى. مطبوع.
- ١٨٧ - جزء الوزير (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٨٨ - جزء الهاشمي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).

- ١٨٩ - جزيل المواهب في اختلاف المذاهب. مخطوط.
- ١٩٠ - جمع الجوامع في الحديث. مطبوع.
- ١٩١ - جمع الجوامع في النحو (انظر همع الهوامع).
- ١٩٢ - الجمع والتفريع في أنواع البديع (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٩٣ - جنى الجنان (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٩٤ - الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر. مطبوع.
- ١٩٥ - الجواب الأرشد في تنكير الأحد وتعريف الصمد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٩٦ - الجواب الحاتم عن سؤال الخاتم. مطبوع.
- ١٩٧ - الجواب الحزم عن حديث: التكبير جزم. مطبوع.
- ١٩٨ - الجواب الزكي عن قمامة ابن الكركي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ١٩٩ - الجواب المصيب عن اعتراض ابن الخطيب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٠٠ - جواب في أسماء الملائكة. مخطوط.
- ٢٠١ - جياذ المسلسلات (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٠٢ - حاطب ليل وجارف سيل. مطبوع.
- ٢٠٣ - الحاوي للفتاوى. مطبوع.
- ٢٠٤ - الحبائك في أخبار الملائك. مطبوع.
- ٢٠٥ - الحبل الوثيق في نصره الصديق. مطبوع.

- ٢٠٦ - الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٠٧ - حديقة الأديب وطريقة الأريب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٠٨ - الحرز المنيع في أحكام الصلاة على الحبيب. مطبوع.
- ٢٠٩ - حسن التخليص لتالي التلخيص (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢١٠ - حسن التسليك في حكم التشييك. مطبوع.
- ٢١١ - حسن التصريف في عدم التحليف. مطبوع.
- ٢١٢ - حسن التعهد في أحاديث التسمية والتشهد. مطبوع.
- ٢١٣ - حسن السميت في الصمت. مطبوع.
- ٢١٤ - حسن السير فيما في الفرس من أسماء الطير (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢١٥ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. مطبوع.
- ٢١٦ - حسن المقصد في عمل المولد. مطبوع.
- ٢١٧ - حسن النية في خانقاه البيبرسية (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢١٨ - الحصر والإشاعة لأشراط الساعة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢١٩ - حصول الرفق بأصول الرزق. مطبوع.
- ٢٢٠ - حصول النوال في أحاديث السؤال (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٢١ - الحظ الوافر من المغنم في استدراك الكافر إذا أسلم. مطبوع.
- ٢٢٢ - الحكم المشتهرة من عدد الحديث من الواحد إلى العشرة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).

- ٢٢٣ - الحكم الواردة على الأعداد الزائدة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٢٤ - حلّ عقود الجمان في علمي المعاني والبيان. مطبوع.
- ٢٢٥ - حلية الأولياء في طبقاتهم (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»)
- ٢٢٦ - الحماسة (ذكر في «كشف الظنون» أنها رسالة في تفسير الألفاظ المتداولة).
- ٢٢٧ - خادم النعل الشريف (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢٢٨ - الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال. مطبوع.
- ٢٢٩ - الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب. مطبوع.
- ٢٣٠ - الخلاصة في نظم الروضة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٣١ - خمائل الزهر في فضائل السور (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٣٢ - خواص الأسماء الحسنى (ذكر بـ«كشف الظنون»).
- ٢٣٣ - داعي الفلاح في أذكار المساء والصباح (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢٣٤ - الدراري في أبناء السراري. مخطوط.
- ٢٣٥ - درّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة. مطبوع.
- ٢٣٦ - الدر المنظم في الاسم الأعظم. مطبوع.
- ٢٣٧ - الدرّ المثور في التفسير بالمأثور. مطبوع وهو موضع بحثنا.

- ٢٣٨ - الدرّ النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير. مطبوع.
- ٢٣٩ - الدرّ النثير في قراءة ابن كثير (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٤٠ - درة التاج في إعراب مشكل المنهاج (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٤١ - الدرّة التاجيّة على الأسئلة الناجية. مطبوع.
- ٢٤٢ - الدرّة الفاخرة. مطبوع.
- ٢٤٣ - درج المعالي في نصرة الغزالي على المنكر المتغالي. مطبوع.
- ٢٤٤ - الدرّج المنيفة في الآباء الشريفة. مطبوع.
- ٢٤٥ - درر البحار في الأحاديث القصار (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٤٦ - الدرر الحسان في البعث ونعيم الجنان. مطبوع.
- ٢٤٧ - الدرر في فضائل عمر الغرر (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٤٨ - درر الكلم وغرر الحكم. مخطوط.
- ٢٤٩ - الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة. مطبوع.
- ٢٥٠ - دفع الأسي في تلخيص إسبال الكساء (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٥١ - دفع التشنيع في مسألة التسميع. مطبوع.
- ٢٥٢ - دفع التعسف في إخوة يوسف. مطبوع.
- ٢٥٣ - الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج. مطبوع.
- ٢٥٤ - ديوان الحيوان (مختصر حياة الحيوان للدميري، مخطوط مصور برقم ٨٣ ب مدار الكتب).
- ٢٥٥ - ديوان الخطب (ذكره في «حسن المحاضرة»).

- ٢٥٦ - ديوان الشعر (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٥٧ - الدوران الفلكي على ابن الكركي (ذكر بـ«هدية العارفين»).
- ٢٥٨ - ذم القضاء. مخطوط.
- ٢٥٩ - ذمّ زيارة الأمراء (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٦٠ - الذوق السليم و ضد ذلك المسلوب الذوق اللئيم. مخطوط.
- ٢٦١ - ذو الوشاحين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٦٢ - ذيل الإنباه عن قبائل الرواة لابن حجر (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٦٣ - ذيل طبقات الحفاظ للذهبي. مطبوع.
- ٢٦٤ - ذيل اللآلئ المصنوعة. مطبوع.
- ٢٦٥ - الرحمة في الطب والحكمة. مطبوع.
- ٢٦٦ - الرحلة الفيومية والمكية والدمياطية (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٦٧ - الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض. مطبوع.
- ٢٦٨ - رسالة في أسماء المدلسين. مطبوع.
- ٢٦٩ - رسالة في الأحاديث الواردة في إثم من اغتصب شيئاً من الأرض وطريق المسلمين. مطبوع.
- ٢٧٠ - رسالة في سعادة أبوي النبي ﷺ. مطبوع.
- ٢٧١ - رسالة فيمن يؤتي أجره مرتين. مطبوع.
- ٢٧٢ - رسالة في الصلاة على النبي ﷺ. مطبوع.

- ٢٧٣ - رسالة تتعلق بالشمس وإلى أين تذهب بعد غروبها. مخطوط.
- ٢٧٤ - رسالة هل البسمة في القرآن أم لا؟. مخطوط.
- ٢٧٥ - رسالة في الخمر وأوصافها (ذكرت بـ«هدية العارفين»).
- ٢٧٦ - رسالة فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين. مطبوع.
- ٢٧٧ - رسالة في أصول الفقه. مطبوع.
- ٢٧٨ - رسالة في أصول الكلمات. مطبوع.
- ٢٧٩ - رسالة في بيان مراتب الأرواح بعد الموت (وهي نفس الرسالة المسماة باللمعة في أجوبة الأسئلة السبعة).
- ٢٨٠ - رسالة في علم الخط. مطبوع.
- ٢٨١ - رسالة في موت فرعون على الإسلام. مخطوط.
- ٢٨٢ - رسالة في ذم علم المنطق وتعلمه. مطبوع.
- ٢٨٣ - رشف الزلال من السحر الحلال. مطبوع.
- ٢٨٤ - رصف اللآل في وصف الهلال. مطبوع.
- ٢٨٥ - رفع الباس عن بني العباس (ذكر بـ«حسن المحاضرة»).
- ٢٨٦ - رفع الحذر عن قطع الصدر. مطبوع.
- ٢٨٧ - رفع الصوت بذبح الموت. مطبوع.
- ٢٨٨ - رفع السنة في نصب الزنة. مطبوع.
- ٢٨٩ - رفع شأن الحبشان. مخطوط.
- ٢٩٠ - رفع الخصاصة في شرح الخلاصة (ذكره في «حسن المحاضرة»).

- ٢٩١ - رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس. مطبوع.
- ٢٩٢ - رفع منار الدين وهدم بناء المفسدين (ذكرت بـ«هدية العارفين»).
- ٢٩٣ - الروض الأريض في طهر المحيض (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٢٩٤ - الروض الأنيق في مسند الصديق (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢٩٥ - الروض المكمل والورد المعلل (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٢٩٦ - الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة. مخطوط.
- ٢٩٧ - رياض الطالبين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٩٨ - زاد المسير في الفهرست الصغير (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٢٩٩ - زبدة اللب في النوادر (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٠٠ - الزجر بالهجر. مخطوط.
- ٣٠١ - الزنجيل القاطع في وطء ذات البراقع. مخطوط.
- ٣٠٢ - الزند الوري في الجواب عن السؤال السكندري. مطبوع.
- ٣٠٣ - الزهر الباسم فيما يزوج فيه الحاكم (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٠٤ - زهر الخمائل على الشمائل (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٠٥ - زهر الربى على المجتبى. مطبوع.

- ٣٠٦ - زوائد الرجال على تهذيب الكمال (ذكره بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»).
- ٣٠٧ - الزوائد على المال في معرفة الرجال (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٠٨ - زوائد نواذر الأصول للحكيم الترمذي (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٠٩ - ساجعة الحرم (من مقاماته، ذكرت بـ«هدية العارفين»).
- ٣١٠ - السبل الجليلة في الآباء العلية. مطبوع.
- ٣١١ - سبل الهدى في السير (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣١٢ - السلاف في التفضيل بين الصلاة والطواف (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣١٣ - السلالة في تحقيق المقر والاستحالة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣١٤ - السلسلة الموشحة في العربية (ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣١٥ - سلوة الفؤاد في موت الأولاد. مطبوع.
- ٣١٦ - السماح في أخبار الرماح. مطبوع.
- ٣١٧ - سهام الاصابة في الدعوات المستجابة. مطبوع.
- ٣١٨ - السهم المصيب في نحر الخطيب (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣١٩ - السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل (ذكره في «حسن المحاضرة»).

- ٣٢٠ - السيف النظار في الفرق بين الثبوت والإنكار (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٢١ - شافي العيي على مسند الشافعي (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٢٢ - شدّ الأثواب في سدّ الأبواب. مطبوع.
- ٣٢٣ - شدّ الرحال في ضبط الرجال (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٢٤ - شدّ المطية للفضل بن غياث وعطية (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٢٥ - شذا العرف في إثبات المعنى للحرف (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٢٦ - شرح أبيات تلخيص المفتاح (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٢٧ - شرح الاستعاذة والبسملة. مطبوع.
- ٣٢٨ - شرح الإضافة في منصب الخلافة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٢٩ - شرح ألفية العراقي في الحديث. مخطوط.
- ٣٣٠ - شرح حديث الأربعين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٣١ - شرح الحوقلة والحيلة. مطبوع.
- ٣٣٢ - شرح الروضة للنووي في الفروع (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٣٣ - شرح الشاطبية (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٣٤ - شرح شواهد المغني. مطبوع.
- ٣٣٥ - شرح الصدور بشرح أحوال الموتى في القبور. مطبوع.

- ٣٣٦ - شرح على نظم البديع في مدح خير شفيح. مطبوع.
- ٣٣٧ - شرح عقود الجمان في علمي المعاني والبيان. مطبوع.
- ٣٣٨ - شرح ضروري التصريف لابن مالك (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٣٩ - شرح فرائض الرحبية (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٤٠ - شرح قصيدة الكافية (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٤١ - شرح لمعة الإشراف في الاشتقاق (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٤٢ - شرح ملحمة الإعراب (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٤٣ - الشرف المحتم فيما من الله به على وليه سيدي أحمد الرفاعي من تقبيل يد النبي ﷺ . مطبوع.
- ٣٤٤ - شفاء العليل في ذم الصاحب والخليل (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٤٥ - شقائق الأترج في دقائق الغنج. مخطوط.
- ٣٤٦ - الشماريخ في علم التاريخ. مطبوع.
- ٣٤٧ - الشمعة المضوية في علم العربية. مخطوط.
- ٣٤٨ - الشهد في النحو. مطبوع.
- ٣٤٩ - شوارد الفوائد في الضوابط والقواعد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٥٠ - شواهد الأبيكار في حاشية الأنوار. مطبوع.
- ٣٥١ - الصارم الهندكي في عنق ابن الكركي. مطبوع.
- ٣٥٢ - الصواعق على النواعق (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٥٣ - صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام. مطبوع.

- ٣٥٤ - ضرب الأسل في جواز أن يضرب في المواعظ والخطب من الكتاب والسنة والمثل. مطبوع.
- ٣٥٥ - ضوء البدر في إحياء ليلة عرفه والعيدين ونصف شعبان وليلة القدر (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٥٦ - ضوء الثريا في مختصر طلوع الثريا (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٥٧ - ضوء الشمعة في عدد الجمعة. مطبوع.
- ٣٥٨ - الطب النبوي. مخطوط.
- ٣٥٩ - طبقات الأصوليين (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٦٠ - طبقات البيانين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٦١ - طبقات التابعين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٦٢ - طبقات الحفاظ. مطبوع.
- ٣٦٣ - طبقات الخطاطين (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٦٤ - طبقات الشعراء (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٦٥ - طبقات الفرضيين (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٦٦ - طبقات المفسرين. مطبوع.
- ٣٦٧ - الطرثوث في فوائد البرغوث (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٦٨ - طرح السقط في نظم اللقط. مخطوط.
- ٣٦٩ - طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).

- ٣٧٠ - الطلعة الشمسية في تبين الجنسية (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٧١ - طلوع الثريا بإظهار ما كان خفياً. مطبوع.
- ٣٧٢ - طوق الحمامة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٧٣ - طي اللسان عن ذم الطيلسان. مخطوط.
- ٣٧٤ - الظفر بقلم الظفر (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٧٥ - العجائب في تفضيل المشارق على المغارب (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٧٦ - العجاجة الزرنية في السلالة الزينية. مطبوع.
- ٣٧٧ - العذب المسلسل في تصحيح الخلاف المرسل (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٣٧٨ - العرف الوردى في أخبار المهدي. مطبوع.
- ٣٧٩ - العشاريات. مخطوط.
- ٣٨٠ - عقود الجمال في علمي المعاني والبيان. مطبوع.
- ٣٨١ - عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد. مخطوط.
- ٣٨٢ - العناية في معرفة أحاديث الهداية (ذكره صاحب «كشف الظنون»).
- ٣٨٣ - العناية في تخريج أحاديث الكفاية (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٨٤ - عين الإصابة فيما استدرسته عائشة على الصحابة. مطبوع.
- ٣٨٥ - عين الإصابة في مختصر أسد الغابة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٨٦ - غاية الإحسان في خلق الإنسان (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٨٧ - غرر الأنساب في الرمي بالنشاب (ذكره صاحب «هدية العارفين»).

- ٣٨٨ - الغنية في مختصر الروضة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٣٨٩ - الفارق بين المصنف والسارق (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٩٠ - الأفانيد في حلاوة الأسانيد (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٩١ - الفتاش على القشاش (ذكر في «كشف الظنون»، وهو في الأحاديث الموضوعية).
- ٣٩٢ - فائدة سورة الأنعام (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٩٣ - فتح الجليل للبعد الذليل (ذكر بـ«حسن المحاضرة»).
- ٣٩٤ - فتح الحي القيوم بشرح روضة الفهوم (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٣٩٥ - فتح المطلب المبرور وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور. مطبوع.
- ٣٩٦ - فتح المغالِق من أنت تالق. مطبوع.
- ٣٩٧ - فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد. مطبوع.
- ٣٩٨ - الفتح القريب على مغني اللبيب (حاشية له ذكرت بـ«حسن المحاضرة»).
- ٣٩٩ - الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الصغير. مطبوع.
- ٤٠٠ - الفريدة في النحو. مطبوع.
- ٤٠١ - الفرائض الرحبية (قال صاحب «كشف الظنون» إنها أرجوزة شرحها السيوطي شرحاً ممزوجاً).
- ٤٠٢ - فصل الخطاب في قتل الكلاب (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٠٣ - فصل الكلام في حكم السلام (ذكره في «حسن المحاضرة»).

- ٤٠٤ - فضل الأغوات. مطبوع.
- ٤٠٥ - فضائل يوم الجمعة. مطبوع.
- ٤٠٦ - فضائل ليلة النصف من شعبان. مخطوط.
- ٤٠٧ - فضائل المولد الشريف. مخطوط.
- ٤٠٨ - فضل الجلد عند فقد الولد. مطبوع.
- ٤٠٩ - الفضل العميم في إقطاع تميم (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٠ - فضل القيام بالسلطنة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١١ - فطام اللسد في أسماء الأسد (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٢ - الفلك الدوار في تفضيل الليل على النهار (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٣ - الفلك المشحون في أنواع الفنون. مطبوع.
- ٤١٤ - الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة (ذكرت بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٥ - الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة (ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٦ - الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).

- ٤١٧ - الفوائد الممتازة في صلاة الجنائز. مطبوع.
- ٤١٨ - الفوز العظيم بلقاء الكريم (ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤١٩ - الفيض الجاري في طرق الحديث العشاري (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٢٠ - فيض التقدير شرح الجامع الصغير. مطبوع.
- ٤٢١ - القذاذة في تحقيق محل الاستعاذة. مطبوع.
- ٤٢٢ - قدح الزند في السلم في القند. مطبوع.
- ٤٢٣ - قطر النداء في ورود الهمزة للندا (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٢٤ - قطع الدابر من الفلك الدائر (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٢٥ - قطع المجادلة عند تغيير المعاملة. مطبوع.
- ٤٢٦ - قطف الأزهار في كشف الأزهار (رسالة في متشابه القرآن، ذكرت بـ«كشف الظنون»).
- ٤٢٧ - قطف الثمر في موافقات عمر. مطبوع.
- ٤٢٨ - قطف الزهر في الرحلة الجامعة بين البر والبحر والنهر (ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٢٩ - قطف الوريد من أمالي ابن دريد (ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).

- ٤٣٠ - قلائد الفوائد (منظومة أودعها بعض الفوائد العلمية والنوادر ذكرت في «حسن المحاضرة» و«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٣١ - قمع المعارض في نصرة ابن الفارض (من مقاماته، ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٣٢ - قوت المغتذي على جامع الترمذي. مطبوع.
- ٤٣٣ - القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه. مطبوع.
- ٤٣٤ - القول الفصيح في تعيين الذبيح. مطبوع.
- ٤٣٥ - القول الحسن في الذب عن السنن (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٣٦ - القول الجلي في أحاديث الولي. مطبوع.
- ٤٣٧ - القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق. مطبوع.
- ٤٣٨ - القول المجمل في الرد على المهمل (ذكر بحسن المحاضر وبالهدية).
- ٤٣٩ - القول المشيد في وقف المؤيد. مطبوع.
- ٤٤٠ - القول المضي في الحنث في المضي. مطبوع.
- ٤٤١ - الكافي في زوائد المهذب على الوافي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٤٢ - الكاوي في تاريخ السخاوي (من مقاماته، ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٤٣ - الكر على عبد البر (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٤٤ - كشف التليس عن قلب أهل التدليس (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٤٥ - كشف الريب في الجيب. مطبوع.

- ٤٤٦ - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٤٧ - كشف الضبابية في مسألة الاستنابة. مطبوع.
- ٤٤٨ - كشف الطامة عن الدعاء بالمغفرة العامة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٤٩ - كشف العمى في مسألة الحمى (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٥٠ - كشف اللبس في حديث رد الشمس (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٥١ - كشف المغطى بشرح الموطأ. مطبوع.
- ٤٥٢ - كشف النقاب عن الألقاب (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٥٣ - الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف. مطبوع.
- ٤٥٤ - كفاية المحتاج في معرفة الاختلاج. مطبوع.
- ٤٥٥ - كفاية المحسن في وصف المؤمن. مخطوط.
- ٤٥٦ - الكلام عن حديث ابن عباس: احفظ الله يحفظك (تصدير ألقاه لما ولى درس الحديث بالشيخونية، ذكر ذلك بـ«حسن المحاضرة»).
- ٤٥٧ - الكلم الطيب والقول المختار في المأثور من الدعوات والأذكار (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٥٨ - الكنز المدفون والفلك المشحون. مطبوع.
- ٤٥٩ - كنه المراد في شرح بانة سعاد. مطبوع.
- ٤٦٠ - الكواكب الساريات في الأحاديث العشاريات (سبق ذكر العشاريات).
- ٤٦١ - الكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع (ذكر في «حسن المحاضرة» بين كتب الأصول، وذكر في «هدية العارفين»).

- ٤٦٢ - الكوكب المنير في شرح الجامع الصغير (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٦٣ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية. مطبوع.
- ٤٦٤ - اللآلئ المكمللة في تفضيل الفلاة على المفضلة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٦٥ - لباب النقول في أسباب النزول. مطبوع.
- ٤٦٦ - لباب النقول فيما وقع في القرآن من المعرب والمنقول (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٦٧ - لب اللباب في تحرير الأنساب. مطبوع.
- ٤٦٨ - لبس اليلب في الجواب عن إيراد حلب. مطبوع.
- ٤٦٩ - اللفظ الجوهري في رد خباط ابن الجوجري (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٧٠ - اللفظ المكرم بخصائص النبي المحترم (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٧١ - لقط المرجان في أخبار الجان. مطبوع.
- ٤٧٢ - لم الأطراف وضم الأتراف (رسالة في الحديث ذكرت في «حسن المحاضرة» و«هدية العارفين»).
- ٤٧٣ - اللمع في أسماء من وضع. مطبوع.
- ٤٧٤ - لمعة الإشراق في الاشتقاق (ذكر شرحها في «حسن المحاضرة» و«هدية العارفين»).

- ٤٧٥ - اللمعة في أجوبة الأسئلة السبعة. مطبوع.
- ٤٧٦ - اللمعة في تحرير الركعة لإدراك الجمعة. مطبوع.
- ٤٧٧ - اللمعة في خصائص يوم الجمعة. مطبوع.
- ٤٧٨ - اللوامع المشرقة في ذم الوحدة المطلقة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٧٩ - اللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق (ذكرت في «حسن المحاضرة» و«هدية العارفين»).
- ٤٨٠ - ما رواه الأساطين في عدم الدخول على السلاطين (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٨١ - ما رواه السادة في الاتكاء على الوسادة. مطبوع.
- ٤٨٢ - ما رواه الواعون في أخبار الطاعون (ذكر بحسن المحاضرة وبالهدية والكشف، وقد ألفه بعد طاعون عام ٨٦٤ هـ).
- ٤٨٣ - الماهد لمسائل الزاهد (ذكرت في «حسن المحاضرة» و«هدية العارفين»).
- ٤٨٤ - المباحث الزكية في المسألة الدورية. مطبوع.
- ٤٨٥ - مباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح (ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٨٦ - المثابة في آثار الصحابة. مطبوع.
- ٤٨٧ - المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية. مطبوع.

- ٤٨٨ - مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٨٩ - مجاز الفرسان إلى مجاز القرآن (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٩٠ - المحاضرات والمحاورات (ذكرت «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٤٩١ - مختصر الأحكام السلطانية للماوردي (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٩٢ - مختصر إحياء العلوم للغزالي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٤٩٣ - مختصر معجم البلدان لياقوت (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٤٩٤ - المدرج إلى المدرج. مطبوع.
- ٤٩٥ - مرصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع. مطبوع.
- ٤٩٦ - مرصد الطالع في تناسب المطالع والمقاطع. مطبوع.
- ٤٩٧ - المرّد في كراهية السؤال والردّ. مطبوع.
- ٤٩٨ - مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود (ذكر في «حسن المحاضرة» و«هدية العارفين»).
- ٤٩٩ - المرقاة العلية في شرح الأسماء النبوية. مخطوط.
- ٥٠٠ - مرّ النسيم إلى ابن عبد الكريم (في الفقه، ذكرت في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٠١ - المزهدي في روضة المشتهي (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٠٢ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها. مطبوع.
- ٥٠٣ - المسارعة إلى المصارعة. مطبوع.

- ٥٠٤ - مسالك الحنفا في والدي المصطفى. مطبوع.
- ٥٠٥ - مسامرة السموع في ضوء الشموع. مخطوط.
- ٥٠٦ - المستطرفة في أحكام دخول الحشفة (ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«الكشف» و«الهدية»).
- ٥٠٧ - المستظرف في أخبار الجوارى. مطبوع.
- ٥٠٨ - المسلسلات الكبرى (٨٥ حديثاً، ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«الكشف» و«الهدية»).
- ٥٠٩ - مسند الصحابة الذين ماتوا في زمن النبي ﷺ (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥١٠ - مشتهى العقول في منتهى النقول. مطبوع.
- ٥١١ - المشنف على ابن المصنف (تعليقه على شرح الألفية، ذكرت بـ«هدية العارفين»).
- ٥١٢ - المصاييح في صلاة التراويح. مطبوع.
- ٥١٣ - المصاعد العلية في القواعد النحوية. مطبوع.
- ٥١٤ - مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة. مطبوع.
- ٥١٥ - المضبوط في أخبار أسيوط. مطبوع.
- ٥١٦ - المطالع السعيدة في شرح الفريدة. مطبوع.
- ٥١٧ - مطلع البدرين فيمن يؤتى أجره مرتين. مخطوط.
- ٥١٨ - المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة. مخطوط.
- ٥١٩ - معترك الأقران في مشترك القرآن. مطبوع.

٥٢٠ - المعتصر في تقرير عبارة المختصر (ذكر بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»، وهو تعليق على عبارات في مختصر الشيخ خليل لم توجد في غيره من كتب الفقه).

٥٢١ - مفاتيح الغيب (في التفسير من أول «سبح» إلى آخر القرآن، ذكر بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»).

٥٢٢ - مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة. مطبوع.

٥٢٣ - مفحمت الأقران في مبهمات القرآن. مطبوع.

٥٢٤ - مقاطع الحجاز. مطبوع.

٥٢٥ - مقامات السيوطي (تسع وعشرون مقامة هي : ساجعة الحرم في مكة والمدينة، والمقامة السندسية في أبي النبي - اللازوردية في موت الأولاد - الذهبية في الحمى - الكاوي في تاريخ السخاوي - الطاعونية - المستنصرية - مقامة أولي الألباب - الحلف - الوردية في الزهور - المسكية في الرياحين - التفاحية في الفواكه - الزمردية - الفستقية في النقول - الياقوتية - بلبل الروضة - اللؤلؤة - البحرية - الدرية - الفتاش على القشاش - الاستنصار بالواحد القهار - الدوران - الفلكي على ابن الكركى - صاحب سيف عى صاحب حيف - الكلاجية في الأسئلة الناجية - قمع المعارض في نصره ابن الفارض - الفارق بين المصنف والسارق - طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة - رشف الزلال من السحر الحلال - اللفظ الجوهري في رد خباط ابن الجوجري. مطبوع.

٥٢٦ - المقامة الأسيوطية وتسمى الأحاجي النحوية. مخطوط.

- ٥٢٧ - المكنون في ترجمة ذي النون (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٢٨ - الملاحن في معنى المشاحن. مخطوط.
- ٥٢٩ - الملتقط من الدرر الكامنة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٣٠ - ملحّة الإعراب (ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون»، وهي منظومة).
- ٥٣١ - مناقب السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام. مطبوع.
- ٥٣٢ - مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا. مطبوع.
- ٥٣٣ - منبع الفوائد في تركيب الضوابط والقواعد (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٣٤ - منتهى الآمال في شرح حديث: إنما الأعمال. مطبوع.
- ٥٣٥ - المنجلي في تطور الولي. مطبوع.
- ٥٣٦ - المنجم في المعجم (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٣٧ - المنحة في السبحة. مطبوع.
- ٥٣٨ - منع الثوران عن الدوران (ذكرت بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٣٩ - المنقح الظريف في الموشح الشريف (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٤٠ - منهاج السنة ومفتاح الجنة (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٥٤١ - المنهج السوي في ترجمة النووي. مطبوع.

- ٥٤٢ - منهل اللطائف في الكنافة والقطائف (ذكر بـ «كشف الظنون»).
- ٥٤٣ - المنى في الكنى (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٥٤٤ - موائد الفوائد (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٤٥ - المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب. مخطوط.
- ٥٤٦ - الموشح في النحو. مخطوط.
- ٥٤٧ - ميدان الفرسان في شواهد القرآن (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٤٨ - ميزان المعدلة في شأن البسمة. مخطوط.
- ٥٤٩ - ناسخ القرآن ومنسوخه. مطبوع.
- ٥٥٠ - النادريات من العشاريات. مطبوع.
- ٥٥١ - نبذة في الكلام على حقيقة القرآن. مطبوع.
- ٥٥٢ - نتيجة الفكر في الجهر بالذكر. مطبوع.
- ٥٥٣ - نثر الهميان في وفيات الأعيان (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٥٤ - نثر الكنان في الخشكنان (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٥٥ - النجح في الإجابة إلى الصلح. مطبوع.
- ٥٥٦ - نزول الرحمة في التحدث بالنعمة. مطبوع.
- ٥٥٧ - نزهة الإخوان وتحفة الخلان. مطبوع.
- ٥٥٨ - نزهة جلساء في أشعار النساء. مطبوع.
- ٥٥٩ - نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسمر. مطبوع.
- ٥٦٠ - نزهة المتأمل ومرشد المتأهل. مخطوط.

- ٥٦١ - نزهة النديم (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٦٢ - نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير (ذكر بالهدية وحسن المحاضرة).
- ٥٦٣ - نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين. مطبوع.
- ٥٦٤ - النصيحة فيما ورد من الأدعية الصحيحة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٦٥ - نظام البلور في أسماء السنور (ذكر بـ«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٦٦ - النظم البديع في مدح خير شفيح. مطبوع.
- ٥٦٧ - نظم الدرر في علم الأثر. مطبوع.
- ٥٦٨ - نظم العقيان في أعيان الأعيان. مطبوع.
- ٥٦٩ - نفع الطيب من أسئلة الخطيب (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٧٠ - النفخة المسكية والتحفة المكية (ألفه بمكة في يوم واحد (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٧١ - النقاية في موضوعات العلوم. مطبوع.
- ٥٧٢ - النقول المشرقة في مسألة النفقة (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٧٣ - النكت البديعات على الموضوعات. مطبوع.

- ٥٧٤ - النكت على الألفية لابن مالك والكافية والشافية لابن الحاجب وشذور الذهب ونزهة الطرف لابن هشام. مطبوع.
- ٥٧٥ - النكت اللوامع على المختصر والمنهاج وجمع الجوامع. مطبوع.
- ٥٧٦ - النكت على النزهة (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٧٧ - نواضر الأيك في النيك. مطبوع.
- ٥٧٨ - نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار على تفسير البيضاوي. مطبوع.
- ٥٧٩ - نور الحديقة (منظومة له، ذكرت بـ«حسن المحاضرة» و«كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٨٠ - نور الشقيق في العقيق (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٨١ - النهجة السوية في الأسماء النبوية (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٨٢ - النهر لمن برز على شاطئ النهر. مطبوع.
- ٥٨٣ - الوافي في شرح التنبيه (ذكره صاحب «هدية العارفين»).
- ٥٨٤ - الوجه النضر في نبوة الخضر (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٨٥ - الوجه الناضر فيما يقتضيه الناظر في الوقف (ذكر في «هدية العارفين»).
- ٥٨٦ - الوجيز في طبقات الفقهاء الشافعية (ذكر في «هدية العارفين»).
- ٥٨٧ - الوديك في فضل الديك. مخطوط.

- ٥٨٨ - الورقات في الوفيات (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٨٩ - الوسائل إلى معرفة الأوائل (ذكره صاحب «كشف الظنون»).
- ٥٩٠ - الوشاح في معرفة النكاح (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٩١ - وصول الأماني بأصول التهاني. مطبوع.
- ٥٩٢ - الوفية في مختصر الألفية (ذكره صاحب «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).
- ٥٩٣ - وقع الأسل في ضرب المثل. مخطوط.
- ٥٩٤ - الهبة السنية في الهيئة السنية (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٥٩٥ - هدم الجاني على الباني. مطبوع.
- ٥٩٦ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية. مطبوع.
- ٥٩٧ - اليد البسطى في تعيين الصلاة الوسطى. (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٥٩٨ - الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع (ذكره في «حسن المحاضرة»).
- ٥٩٩ - اليواقيت الثمينة في صفات السمينة. مخطوط.
- ٦٠٠ - اليواقيت في حروف «إذن» في قولهم: لاها الله إذن. (ذكر في «كشف الظنون» و«هدية العارفين»).



الباب الثاني:

منهج الإمام السيوطي

في «الدر المنثور»، وفيه فصلان:

الفصل الأول: جهود الإمام السيوطي في التفسير وعلومه
عموماً، وفيه مبحثان.

الفصل الثاني: منهج الإمام السيوطي في «الدر المنثور»، وفيه
ست مباحث.



الفصل الأول:
جهود الإمام السيوطي في التفسير وعلومه عموماً،
وفيه مبحثان:

تمهيد.

المبحث الأول: أهم مصنفات السيوطي في التفسير.

**المبحث الثاني: أهم مصنفات السيوطي في علوم
القرآن.**



المبحث الأول: أهم مصنفات السيوطي في التفسير:

المطلب الأول: تفسير الجلالين.

المطلب الثاني: نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار.

المطلب الثالث: مجمع البحرين ومطلع البدرين.

المطلب الرابع: ترجمان القرآن.

المطلب الخامس: الإكليل في استنباط التنزيل.

المطلب السادس: أسرار التأويل (قطف الأزهار في

كشف الأسرار).



المبحث الأول

أهم مصنفات السيوطي في التفسير

تمهيد:

عُرِفَ الإمام السيوطي بصاحب المؤلفات الجامعة، والمصنفات النافعة، وقد ذكرنا سابقاً أنه بدأ بالتأليف في سن مبكرة، وأول تصنيفاته كان «رسالة في شرح الاستعاذة والبسملة»، وقد أوقف عليها شيخه البلقيني وكتب عليه تقریظاً، و«رسالة الأزهار الفاتحة على الفاتحة»، ثم تابعت تأليفات السيوطي، فكتب في التفسير وعلوم القرآن ما يزيد على خمسين مؤلفاً، وسنذكر ههنا أهم ما صنّف في ذلك:

المطلب الأول: تفسير الجلالين

ألّف هذا التفسير الإمامان الجليلان؛ جلال الدين المحلي محمد بن أحمد بن محمد الشافعي، (ت سنة ٨٦٤هـ)، تقدمت ترجمته في شيوخه، وجلال الدين السيوطي.

أما جلال الدين المحلي فقد ابتداءً تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتداءً بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يُفسّر ما بعدها.

ثم جاء جلال الدين السيوطي فكمّل تفسيره، فابتداءً بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة في آخر تفسير الجلال المحلي لتكون ملحقة به.

وكان منهج الجلالين في التفسير على النحو التالي: من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه،

والتنبية على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية.

ولا شك أن الذي يقرأ «تفسير الجلالين» لا يكاد يلمس فرقاً واضحاً بين طريقة الشيخين فيما فسّراه، ولا يكاد يحس بمخالفة بينهما في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة.

ثم إن هذا التفسير غاية في الاختصار والإيجاز، ومع هذا الاختصار، فالكتاب قيّم في بابه، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً، وأكثرها تداولاً ونفعاً، وقد طُبِع كثيراً، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه، ومن أهم هذه الحواشي: حاشية الجمل، وحاشية الصاوي، وهما متداولتان بين أهل العلم^(١).

المطلب الثاني: نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار

هي عبارة عن حاشية وتعليق على تفسير «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» للقاضي ناصر الدين البيضاوي.

قال السيوطي في مقدمة كتاب «نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار»: وإن القاضي ناصر الدين البيضاوي لخصّ «كشاف الزمخشري» فأجاد، وأتى بكلّ مُستجد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرّر مُهمّات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكه نِزار، واشتهر اشتهاش الشمس في رابعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكبّ عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة. اهـ.

(١) ينظر: «التفسير والمفسرون» ص ٢٣٧-٢٤٠.

وتميزت حاشية السيوطي عن غيرها من الحواشي بأنها حاشية قيمة متعددة المصادر، متنوعة المراجع قد استمدت من مئات المصادر في فنون العلم وأبواب المعرفة من التفسير وعلوم القرآن والحديث وعلوم الحديث، والفقه وأصول الفقه، والعربية من لغة وأدب ونحو وصرف وبلاغة وغيرها، معتنية بتخريج الأحاديث والآثار بنفس المحدث البصير بمدونات الحديث، بحيث كان من بعده من المخرجين لأحاديثه وآثاره كالمناوي في «الفتح السماوي» بتخريج أحاديث «تفسير البيضاوي»، والمحشيين عليه كالشهاب الخفاجي في «عناية القاضي وكفاية الراضي»، عالة عليه في هذا الباب، مهتمة بالردود على الزمخشري والبيضاوي.

المطلب الثالث: مجمع البحرين ومطلع البدرين

وتمام اسمه: «مجمع البحرين ومطلع البدرين في شرح التفسير الجامع المسمى: تحرير الرواية وتقرير الدراية».

وهذا الكتاب من أوسع كتب التفسير، وقد جعل كتابه «الإتقان في علوم القرآن» كمقدمة لهذا التفسير، وكأنه أراد بتفسيره هذا «مجمع البحرين» أن يضاهي «تفسير الإمام الطبري» فيتوسع في ذكر الآثار والأحاديث وأقوال علماء اللغة وأقوال المفسرين ومناسبات الآيات وكل ما له صلة بالتفسير، فيكون تفسيراً عمدة، فيه توسع وفيه إحاطة بكل ما له علاقة بتفسير القرآن الكريم، إلا أن هذا التفسير أيضاً لم يوجد ولم يعثر عليه، وكأنه لم يبدأ فيه أو بدأ فيه ولم يتمه، والله أعلم.

المطلب الرابع: ترجمان القرآن

قال السيوطي في كتابه «قطف الأزهار في كشف الأسرار» ص ٨٩:

وبعد فإن الله سبحانه وله الحمد قد منَّ عليَّ بالنظر في علوم القرآن وحقائقه ، وتتبع أسراره ودقائقه ، حتى صنفت في تعليقاته كتباً شتى ، منها التفسير الملقب بـ«ترجمان القرآن» ، وهو الوارد بالإسناد المتصل عن رسول الله ﷺ وأصحابه الذين شاهدوه وتلقوا منه الوحي والتنزيل ، وسمعوا منه التفسير والتأويل ، وقد تم والله الحمد في خمس مجلدات ، وهو مستوعب لغالب آيات القرآن من غير أن أذكر فيه شيئاً عن التابعين ، ولا من بعدهم .

وهذا لعمرى هو التفسير ، فإن الكلام في معاني القرآن ممن لم ينزل عليه ولا سمع من المنزل عليه ، إنما هو رأي محض ، فإن كان موافقاً للقواعد فهو التأويل ، وإن خرج عنها وأخطأ المراد فتحريف وتبديل ، ولما كان هذا التفسير المشار إليه نقلاً محضاً ، ليس فيه إعراب ، ولا سر بياني ، ولا نكتة بدعية ، ولا استنباط حكم إلا نادراً أردفته بكتب في ذلك لتكون كالتممة له ، ويحصل بها تمام ما يراد من كتب التفسير ، فأجل ما وضعت من ذلك : كتاب «الإتقان في علوم القرآن» ، وهو كالمقدمة لمن يريد التفسير ، وأكثره قواعد كلية ، وفيه من الفوائد ما لم يجتمع في غيره... إلخ ما قال رحمه الله .

ويتبين لنا أن هذا التفسير لو وصل إلينا لكان فيه علم عظيم حيث اقتصر فيه الإمام السيوطي على ما روي عن النبي ﷺ في التفسير وما روي عن الصحابة رضي الله عنهم وقد ذكر في أول كتابه «قطف الأزهار» أنه قد انتهى من تصنيف هذا الكتاب في خمسة مجلدات ، وذكر فيه ما روي عن النبي وعن الصحابة بالتفسير بالأسانيد المتصلة ، وهذا الكتاب مفقود ، والله أعلم .

المطلب الخامس: الإكليل في استنباط التنزيل

قد أكثر الناس التصنيف في أنواع علوم القرآن ، وقد أَلَّفَ السيوطي في جملة من أنواعه كأسباب النزول ، والمعرب ، والمبهمات ، وغير ذلك ، وما

من كتاب منها إلا وقد فاق الكتب المؤلفة في نوعه ببديع اختصاره، وحسن تحريره، وكثرة جمعه.

وقد أفرد الناس في أحكام القرآن كتباً كالقاضي إسماعيل، وبكر بن العلاء، وأبي بكر الرازي، وإلكيا الهراصي، وأبي بكر بن العربي، وعبد المنعم بن الفرّس، وغيرهم، وكل منهم أفاد وأجاد، وجمع فأبدع، غير أنها محشوة بالحشو والتطويل، مشحونة بالاستطراد إلى أقوال المخالف والدليل مع ما فاتها من الاستنباطات العلية والاستخراجات الخفية.

فعزم السيوطي رحمه الله تعالى على وضع كتاب في ذلك، مهذب المقاصد، محرر المسالك، يورد فيه كل ما استنبط منه، أو استدلل به عليه، من مسألة فقهية، أو أصلية، أو اعتقادية، وبعضاً ممّا سوى ذلك، مقروناً بتفسير الآية حيث توقّف فهم الاستنباط عليه معزواً إلى قائله من الصحابة والتابعين، مُخرّجاً من كتاب ناقله من الأئمة المعبرين.

وهو كتاب مع صغر حجمه كثير العلم غزير الفائدة، أوراقه قليلة، حيث جمع فيه ما يستنبط من آيات الأحكام خمسمائة آية، أورد ما يستنبط منها دون أن يرجح في ذلك مذهباً من المذاهب، بأسلوب مختصر دقيق.

المطلب السادس: أسرار التأويل (قطف الأزهار في كشف الأسرار)

ذكر السيوطي في هذا الكتاب ما وصل إليه من كلام العلماء في النظم القرآني: من أسرار التقديم والتأخير، والتأكيد، والحذف والإيجاز، والإطناب، والنكت البيانية: من التشبيه والاستعارة، والكناية، والتعريض، والأنواع البديعية: من الالتفات والتورية، والاستخدام والجناس، والمشكلة والطباق والمقابلة، إلى غير ذلك من أنواعه، وسر ما اختلفت فيه الآيات

المتشابهة من تقديم أو تأخير، أو زيادة أو نقص، أو إبدال كلمة بأخرى، وما بين الكلمات التي يظن ترادفها من فرق، ولم وقع في هذا الموضع كذا وفي هذا الموضع رديفه، ولم ختمت هذه الآية بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وهذه بـ﴿يَعْمَلُونَ﴾، وهذه بـ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وهذه بـ﴿يَذْكُرُونَ﴾ إلى غير ذلك.

وثبَّه على القراءات المختلفة المشهورة والشاذة إذا كان لكل قراءة معنى، فإن من وجوه إعجاز القرآن وإيجازه تنوع قراءاته، ودلالة كل قراءة على معنى، فإن ذلك بمنزلة تعدد الآيات، وهذا نوع عظيم من البلاغة أن يكون اللفظ الواحد بجوهره يقرأ على وجهين، فيفيد بهذا الاعتبار معنيين.

ويبين مناسبة ترتيب السور، والخفي من مناسبات الآيات إلى غير ذلك مما راه من النُّكت والأسرار.



المبحث الثاني: أهم مصنفات السيوطي في علوم القرآن:

المطلب الأول: لباب النقول في أسباب النزول.

المطلب الثاني: مفحّات الأقران في مبهمات القرآن.

المطلب الثالث: تناسق الدرر في تناسب السور.

المطلب الرابع: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع.

المطلب الخامس: معترك الأقران في مشترك القرآن.

المطلب السادس: شرح الشاطبية.

المطلب السابع: المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب.

المطلب الثامن: التحبير في علم التفسير.

المطلب التاسع: الإتيقان في علوم القرآن.



المبحث الثاني

أهم مصنفات السيوطي في علوم القرآن

المطلب الأول: لباب النقول في أسباب النزول

هذا الكتاب نفيسٌ في ميدانه حيث جاء وسطاً فيما يتعلق بأسباب النزول، وقد استوفى السيوطي كل ما ورد من أسباب في نزول السور أو الآيات القرآنية، وقد سبقه إلى ذلك الإمام الواحدي وغيره، إلا أن لكتاب السيوطي امتيازاً أيضاً حيث استفاد ممن قبله وزاد عليه فاستدرك أحياناً، وربما ترك أشياء عُدَّ سبباً وليست كذلك.

وقد امتاز كتاب السيوطي بالاختصار، والجمع الكثير فقد اشتمل على زيادات كثيرة على ما ذكره غيره، وامتاز أيضاً أن السيوطي عزا كل حديث إلى كل من خرجه الكتب الحديثية، وميز الصحيح من غيره والمقبول من المردود، وجمع بين الروايات المتعددة، ونحى ما ليس من أسباب النزول، وابتدأ كتابه بمقدمة موجزة مبين فيها أهمية أسباب، وفوائد هذا العلم.

المطلب الثاني: مفحمت الأقران في مبهمات القرآن

إن علم المبهمات مرجعه النقل المحض؛ لا مجال للرأي فيه، ولما كانت الكتب المؤلفة فيه وسائر التفاسير يذكر فيها أسماء المبهمات والخلاف فيها دون بيان مستند يُرجع إليه، أو عُرفٍ يعتمد عليه، ككتاب: «التكميل والإتمام لابن عساكر»، وكتاب: «التبيان في مبهمات القرآن» للقاضي بدر الدين ابن جماعة، أَلَّفَ السيوطي هذا الكتاب ففاقهما بما حوى من الفوائد والزوائد، وحسن الإيجاز، ذاكرةً فيه عَزَوْ كل قولٍ إلى قائله من الصحابة والتابعين وغيرهم، معزواً إلى أصحاب الكتب الذين خرَّجوا ذلك

بأسانيدهم، مبيناً فيه ما صحَّ سنده وما ضعف، فجاء لذلك كتاباً حافلاً لا نظير له في نوعه، وقد رتبّه على ترتيب سور القرآن الكريم.

المطلب الثالث: تناسق الدرر في تناسب السور

إن التناسب أو علم المناسبة هو علم يعنى بالكشف عن الترابط اللفظي والمعنوي بين آي وسور الذكر الحكيم، مما يبين أن القرآن الكريم يشكل وحدة نسقية، وقد انتبه المفسرون والعلماء إلى ذلك، وعملوا على إعمال هذه الأداة التفسيرية لاستنباط مراد الله تعالى من الخطاب القرآني، وما المصدر الأول من مصادر التفسير المتمثل في تفسير القرآن بالقرآن إلا دليل على إدراكهم لهذه الوحدة النسقية، ذلك أن القرآن الكريم لا يمكن فهمه باجتزاء النص القرآني عن سياقه اللغوي، بل لا بد من استحضار ما قبل النص وما بعده إذا أردنا أن ندرك مراد الله تعالى من الخطاب القرآني بطريقة علمية وموضوعية، فالقرآن الكريم لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي.

وقد اهتم المسلمون بعلم المناسبة تدريجياً وتأليفاً، ولعل أول من عمل على نشر هذا العلم وإذاعته بين الناس أبو بكر النيسابوري، أما في مجال التأليف فيمكننا أن نذكر فيه الكتب التالية: «البرهان في ترتيب سور القرآن» للغرناطي، و«نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي، و«تناسق الدرر في تناسب السور» للسيوطي.

قال السيوطي: وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع وهو: مناسبات ترتيب السور، لتكون عجالة لمريده، وبغية لمستفيده، وأكثر ذلك من نتاج فكري، وولاد نظري، لقلة من تكلم في ذلك أو خاض في هذه المسالك.

ثم قال السيوطي: وما كان منه لغيري صرحت بعزوه إليه، ولا أذكر منه إلا ما استحسنت ولا انتقاد عليه. اهـ.

المطلب الرابع: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع

ألف السيوطي هذا الكتاب في المناسبات بين أول السورة وآخرها، فأول السورة هو المطلع، وآخر السورة هو المقطع، فالكتاب يبين المناسبة بين أول كل سورة من سور القرآن العظيم مع آخرها.

هذا الكتاب مفرد في هذا الغرض، ولا يعلم في هذا الموضوع كتاباً مفرداً غيره، وإن هذا الكتاب مبني في جملته على استنباط وتأمل الإمام السيوطي بنفسه وتدبره للقرآن العظيم، فهو يقول في خطبة الكتاب: «وقد أردت بيان ذلك على ترتيب السور في هذه الكراسة، مستخرجاً له بفكري، إلا ما صرّحت بنقله عن غيري»، وهذا يحمل في طياته شيئاً خاصاً بالسيوطي يختلف عن جمهور مؤلفاته التي هي جمع وتقميش غالباً، وإن هذا الكتاب يبين المناسبات بين أول السورة وآخرها، وهذا مما يساعد على بيان المعنى المراد، ويبرز صورة من الإعجاز.

المطلب الخامس: معترك الأقران في مشترك القرآن

هذا الكتاب ضخّم كبير قد بلغ ألفي صفحة تقريباً في ثلاثة أجزاء مطبوعة، ويحوي علوماً متعددة أهمها علوم القرآن ومباحث الإعجاز، وفيه مباحث كثيرة في فنون متنوعة من فقه وعقيدة وتفسير وأصول... إلخ، وقد قدّم السيوطي لكتابه بين فيها أن المعجزة العظمى لرسولنا ﷺ هي القرآن، وأنه قد تحدى به العرب فعجزوا ولم يستطيعوا الإتيان بمثله ولا بما يقاربه في الفصاحة والبلاغة، ثم ذكر بعض من صنف في وجوه إعجاز القرآن، ثم

ناقش بعض المباحث بإعجاز القرآن نحو: إعجاز نظمه، وطريق معرفة إعجاز القرآن، واختلاف القرآن عن الشعر، وهل باقي الكتب السماوية معجز؟ إلى آخر ما ذكره في مقدمته.

المطلب السادس: شرح الشاطبية

هذا الكتاب شرح لطيف مزجه السيوطي بقصيدة الإمام أبي القاسم الشاطبي المشهورة في القراءات تبركاً بسلفها وتيمناً ببركات مؤلفها، هادياً إلى مقاصدها، مرشداً إلى مصادر آياتها ومواردها، ويبين ما جاء فيها من وجوه القراءات وأحكام تتعلق بذلك بأسلوب ميسر فهمه على القراء.

المطلب السابع: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب

هذا الكتاب هو واحد من أهم كتب فقه اللغة، فهو يبحث في أصول بعض الكلمات المعربة التي وقعت في القرآن الكريم، قال السيوطي: هذا الكتاب تتبعت فيه الألفاظ المعربة التي وقعت في القرآن الكريم، مستوعباً ما وقعت عليه من ذلك، مقروناً بالعزو والبيان، وعلى الله الاتكال.

وقد قدّم له السيوطي بمقدمة موجزة تحدث فيها عن موقف كل من الفقهاء واللغويين من وقوع المعرب في القرآن، ثم استعرض طائفة من الألفاظ المعربة في القرآن، مستدلاً عليها بأقوال المفسرين واللغويين.

قال السيوطي في خاتمة الكتاب: هذا ما وقفت عليه من الألفاظ المعربة في القرآن بعد الفحص الشديد سنين وسعة النظر والمطالعة ولم يجتمع قبل في كتاب.

المطلب الثامن: التحبير في علم التفسير

هذا كتاب متوسط الحجم في علوم القرآن ألفه السيوطي قبل أن يؤلف

كتابه «الإتقان»، ثم توسف في «الإتقان» توسعاً عظيماً، فكان كتاب «التحبير في علم التفسير» كالأصل لكتاب «الإتقان».

المطلب التاسع: الإتقان في علوم القرآن

قال السيوطي في مقدمة «الإتقان»: ولقد كنت في زمان الطلب أتعجب من المتقدمين إذ لم يدونوا كتاباً في أنواع علوم القرآن، كما وضعوا ذلك بالنسبة إلى علم الحديث، فسمعت شيخنا الكافيحي يقول: قد دوت في علوم التفسير كتاباً لم أسبق إليه، فكتبته عنه فإذا هو صغير الحجم جداً، فلم يشف لي ذلك غليلاً، ولم يهديني إلى المقصود سيلاً.

ثم أوقفني شيخنا البلقيني على كتاب في ذلك لأخيه جلال الدين سمّاه: «مواقع العلوم من مواقع النجوم» فرأيته تأليفاً لطيفاً، ومجموعاً ظريفاً، ذا ترتيبٍ وتقدير، وتنويعٍ وتحبير.

فصنفت في ذلك كتاباً سمّيته: «التحبير في علوم التفسير» ضمّنته ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها، وأضفت إليه فوائد سمحت القريحة بنقلها.

ثم خطر لي بعد ذلك أن أؤلف كتاباً مبسوطاً، ومجموعاً مضبوطاً، أسلك فيه طريق الإحصاء، وأمشي فيه على منهاج الاستقصاء، هذا كله وأنا أظن أنني متفرد بذلك، غير مسبوق بالخوض في هذه المسالك، فبينما أنا أجيل في ذلك فكراً، أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى؛ إذ بلغني أنّ الشيخ الزركشي ألف كتاباً في ذلك حافلاً، يسمى «البرهان في علوم القرآن»، فتطلّبت حتى وقفت عليه، فوجدته، ولما وقفت على هذا الكتاب ازدادت به سروراً، وحمدت الله كثيراً، وقوي العزم على إبراز ما أضمرته، وشددت الحزم في إنشاء التصنيف

الَّذِي قَصَدْتُهُ، فَوَضَعْتَ هَذَا الْكِتَابَ الْعَلِيِّ الشَّانِ، الْجَلِيِّ الْبُرْهَانِ، الْكَثِيرِ الْفَوَائِدِ وَالْإِتْقَانِ، وَرَتَبْتَ أَنْوَاعَهُ تَرْتِيباً أَنْسَبَ مِنْ تَرْتِيبِ الْبُرْهَانِ، وَأَدْمَجْتَ بَعْضَ الْأَنْوَاعِ فِي بَعْضٍ، وَفَصَّلْتَ مَا حَقُّهُ أَنْ يُبَانَ، وَزَدْتَهُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْفَرَائِدِ، وَالْقَوَاعِدِ وَالشُّوَارِدِ، مَا يَشْتَفُّ الْأَذَانَ، وَسَمِيَتْهُ: «الْإِتْقَانُ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ».



الفصل الثاني:

منهج الإمام السيوطي في «الدر المنثور»،
وفيه ست مباحث:

**المبحث الأول: التفسير بالمأثور تعريفه ومصادره
وضوابطه وأهم التفاسير بالمأثور:**

المبحث الثاني: تسمية ونسبة «الدر المنثور».

**المبحث الثالث: مصادر ومراجع السيوطي في «الدر
المنثور».**

**المبحث الرابع: موازنة بين الإمام ابن جرير الطبري
والسيوطي في التفسير بالمأثور.**

**المبحث الخامس: منهج السيوطي في كتاب «الدر
المنثور» عموماً مع نموذج تطبيقي.**

المبحث السادس: طبقات كتاب «الدر المنثور».

الخاتمة.

فهرس الموضوعات.



المبحث الأول: التفسير بالمأثور تعريفه ومصادره وضوابطه وأهم التفاسير بالمأثور:

- المطلب الأول: التفسير بالمأثور تعريفه اللغوي والاصطلاحي.
- المطلب الثاني: مصادر التفسير بالمأثور.
- المطلب الثالث: ضوابط التفسير بالمأثور.
- المطلب الرابع: أبرز المؤلفات في التفسير بالمأثور.



المبحث الأول

التفسير بالمأثور تعريفه ومصادره وضوابطه وأهم التفاسير بالمأثور

المطلب الأول: التفسير بالمأثور تعريفه اللغوي والاصطلاحي

للتفسير بالمأثور اسمان: التفسير بالمأثور، والتفسير النقلي.

ويذكر التفسير بالمأثور في مقابل التفسير بالرأي، ويذكر التفسير النقلي في مقابل التفسير العقلي، والمأثور اسم مفعول بمعنى المنقول، والأثر: الخبر المرويُّ والسنة الباقية، والمأثور: الحديث المروي، وما وَرَثَ الخلفُ عن السلف.

فالمأثور يقوم على الرواية والنقل، ويطلقُ على ما ورثه الخلفُ عن السلف من علمٍ وحديثٍ ورواياتٍ وغير ذلك، وغالبُ إطلاقه على الحديث والروايات.

هذا وقد عرفه الدكتور محمد حسين الذهبي فقال: يشمل التفسير بالمأثور: ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نُقِلَ عن الرسول ﷺ، وما نُقِلَ عن الصحابة، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيانٌ وتوضيح لمراد الله من نصوص كتابه.

فأدرج الدكتور الذهبي تفسير القرآن بالقرآن ضمن التفسير بالمأثور، وقد تحفظ بعض المعاصرين عليه في ذلك، ومن أراد التوسع فعليه الرجوع إلى كلامهم^(١).

(١) ينظر: «مناهج المفسرين» ص ٢٣.

وعرّفه الدكتور مصطفى مسلم: التفسير بالمأثور يشمل المنقول عن الله تعالى كتابه الكريم، والمنقول عن النبي ﷺ، والمنقول عن الصحابة، والمنقول عن التابعين، وعلى هذه الأنواع الأربعة يدور التفسير بالمأثور^(١). وهذا الذي أذهب إليه؛ لأنه بهذا التعريف ضمن السيوطي تفسيره، وسماه «الدر المنثور في التفسير بالمأثور».

المطلب الثاني: مصادر التفسير بالمأثور

- ١- ما صحَّ من الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله.
- ٢- ما صحَّ عن الصحابة من أقوال مأثورة في التفسير.
- ٣- ما صحَّ من أقوال التابعين.
- ٤- القراءات الشاذة.
- ٥- القراءات التفسيرية.

المطلب الثالث: ضوابط التفسير بالمأثور

علم فيما سبق اعتماد التفسير بالمأثور على ما صحَّ من أحاديث وأقوال للصحابة والتابعين، ولا بدَّ من معرفة ضوابط وشروط التفسير بالمأثور ليكون صحيحاً مقبولاً.

- ١- تفسير القرآن بالقرآن هو الأساس لما بعده من التفسير بالمأثور.
- ٢- تفسير القرآن بالسنة يلي تفسير القرآن بالقرآن في المنزلة والأهمية.
- ٣- بيان الرسول الله ﷺ لآية وتفسيره لها مقدّم على أيّ بيان وتفسير.

(١) ينظر: «تعريف الدارسين» ص ١٩٩-٢٠١.

- ٤- ألفاظ القرآن محمولةٌ على الحقيقة الشرعية، فإن لم تكن فالحقيقة العرفية، فإن لم تكن فالحقيقة اللغوية.
- ٥- قول الصحابي في التفسير مقدّم على قول من بعده.
- ٦- قول التابعي في التفسير مقدّم على قول من بعده.
- ٧- لا يؤخذ التفسير بالمأثور إلا بعد ثبوته وتخريجه.
- ٨- الجمع بين الأقوال المختلفة عن الصحابة والتابعين.
- ٩- عدم اعتماد الإسرائيليات إلا ما صح شاهده عندنا^(١).

المطلب الرابع: أبرز المؤلفات في التفسير بالمأثور

أولاً: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»:

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ولد في طبرستان سنة (٢٢٤هـ)، وتوفي في بغداد سنة (٣١٠هـ).

كان عالماً بالقراءات، وإماماً في التفسير، بارعاً في الحديث، وشيخاً للمؤرخين، انفرد في الفقه بمذهبٍ مستقلٍّ، وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون.

قال فيه الإمام ابن خزيمة: ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير.

وهذا التفسير لم يؤلف قبله ولا بعده مثله في موضوعه، ولا يزال المفسرون عالة على تفسيره في التفسير بالمأثور، ويتميز تفسيره - رحمه الله - بمزايا؛ منها:

(١) ينظر: «تعريف الدارسين» ص ٢٠٤-٢٢٠.

- ١- اعتماده على التفسير بالمأثور عن الرسول ﷺ وأصحابه والتابعين.
 - ٢- التزامه بالإسناد في الرواية.
 - ٣- عنايته بتوجيه الأقوال والترجيح.
 - ٤- ذكره لوجوه الإعراب.
 - ٥- دقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات.
- قال الخطيب البغدادي في «تفسير ابن جرير»: وكتاب التفسير لم يصنف أحد مثله.
- وقال الذهبي: وله كتاب في التفسير لم يصنف مثله.
- وقال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل «تفسير الطبري».
- وقال أبو حامد الإسفراييني: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب «تفسير محمد بن جرير» لم يكن ذلك كثيراً.
- وقال ابن تيمية: وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها «تفسير محمد بن جرير الطبري»؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل والكلبي.
- ثانياً: «بحر العلوم»:
- لأبي الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، المعروف بإمام الهدى.
- من أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمى بـ«بحر العلوم»، والمعروف بـ«تفسير أبي الليث السمرقندي»، وكانت وفاته سنة (٣٧٣هـ)، وقيل: سنة (٣٧٥هـ).

وتفسيره مشهور لطيف مفيد، خرَّج أحاديثه ابن قطلوبغا الحنفي سنة (٨٥٤هـ).

وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار، وموجود بدار الكتب المصرية، وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الأهر. واحدة في مجلدين والأخرى في ثلاث مجلدات.

ومنهجته في تفسيره أنه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف، فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، ولكنه لا يذكر إسناده إلى من يروي عنه، ويندر سياقه للإسناد في بعض الروايات.

ثالثاً: «الكشف والبيان عن تفسير القرآن»:

لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرئ المفسر، كان حافظاً واعظاً، رأساً في التفسير والعربية، متين الديانة، قال ابن خلكان: كان أوحد زمانه في علم التفسير، وصنّف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير.

بيّن الثعلبي في مقدمة التفسير أنه لم يعثر في كتب من تقدّمه على كتاب جامع مهذب يُعتمد، ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه في إخراج كتاب في تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم، رعاية منه لحقوقهم، وتقرباً به إلى الله، ثم قال: فاستخرتُ الله تعالى في تصنيف كتاب شامل مهذب، ملخص مفهوم منظوم، مستخرج من زهاء مئة كتاب مجموعات مسموعات، سوى ما التقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات، وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات، وهم قريب من ثلاثمئة شيخ، نسّفته بأبلغ ما قدرتُ عليه من الإيجاز والترتيب. ثم قال: وسميته: كتاب «الكشف والبيان عن تفسير القرآن».

ثم ذكر في أول الكتاب أسانيده إلى مَنْ يروي عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب، كما ذكر أسانيده إلى مصنفات أهل عصره - وهي كثيرة - وكتب الغريب والمشكل والقراءات.

رابعاً: «معالم التنزيل»:

لأبي محمد الحسين بن مسعود المعروف بالفراء البغوي المحدث المفسر، الملقب بمحيي السنة وركن الدين. كان تقياً ورعاً، زاهداً قانعاً، إذا ألقى الدرس لا يلقىه إلا على طهارة، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز وحده، ثم عدل عن ذلك فصار يأكل الخبز مع الزيت، توفي رحمه الله سنة (٥١٠هـ).

وتفسير متوسط، نقل فيه عن مفسري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ووصفه الخازن في مقدمة «تفسيره» بأنه من أجل المصنفات في علم التفسير وأعلها، وأنبلها وأسناها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلّي بالأحاديث النبوية، مطرّز بالأحكام الشرعية، موشّي بالقصص الغريبة، وأخبار الماضيين العجيبة، مرصّع بأحسن الإشارات، مُخرّج بأوضح العبارات، مُفرّغ في قالب الجمال بأفصح مقال.

وقال ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية والآراء المبتدعة.

خامساً: «تفسير القرآن العظيم»:

للحافظ أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي، ولد في بصرى الشام سنة (٧٠٠هـ).

وتفسيره يُعدُّ من أشهر ما دُوِّنَ في التفسير بالمأثور، ويعتبر في المرتبة الثانية بعد «تفسير ابن جرير».

قال السيوطي في ترجمة ابن كثير: له التفسير الذي لم يؤلف على نمط مثله.

وقال الشوكاني: هو من أحسن التفاسير إن لم يكن أحسنها.

وطريقته في التفسير: أن يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ويجمع الآيات المناسبة لها، ويقارن بينها، وتفسيره أكثر كتب التفسير المعروفة سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد، ثم يورد الأحاديث المرفوعة التي لها صلة بالآية، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين، وعلماء السلف، وينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالاً أحياناً، وبالتفصيل حيناً آخر^(١).



(١) ينظر: «التفسير والمفسرون» ص ١٤٨-١٦٩.



المبحث الثاني: تسمية ونسبة «الدر المنثور».

المبحث الثالث: مصادر ومراجع السيوطي في «الدر المنثور».

المطلب الأول: مصادرهِ في التفسير.

المطلب الثاني: مصادرهِ في علوم القرآن.

المبحث الرابع: موازنة بين الإمام ابن جرير الطبري والسيوطي

في التفسير بالمأثور.

المبحث الخامس: منهج السيوطي في كتاب «الدر المنثور»

عموماً مع نموذج تطبيقي.

المبحث السادس: طبقات كتاب «الدر المنثور».

الخاتمة.

فهرس الموضوعات.



المبحث الثاني

تسمية ونسبة «الدر المنثور»

اتفقت المصادر والمراجع على تسمية «الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، واتفقت أيضاً بنسبة الكتاب إلى جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى.

فقد ذكره السيوطي في «التحدث بنعمة الله» ص ١٠٥، وأورده أيضاً في كتبه التالية:

١- قال في «نظم العقيان في أعيان الأعيان» ص ٢١: وأعطيت الشيخ عبد القادر الفرضي الكتب التي سألتها، وهي: «الإتقان»، و...، و«الجزء الأول من الدر المنثور في التفسير المأثور».

٢- وقال في «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» (١/٣٣٩): وهذه أسماء مصنفاي لتستفاد: ...، «الدر المنثور في التفسير المأثور».

٣- وقال في «تقرير الاستناد في تفسير الاجتهاد»: ومعرفة ما ورد من الأخبار والآثار في معاني الآيات، وقد ألفت في ذلك «الدر المنثور في التفسير المأثور» أربع مجلدات^(١).

(١) ينظر: «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» للعيدروس: (١/٥٢)، و«طبقات المفسرين» للأدنه وي، ص ٣٦٥، و«فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيوخات والمسلسلات» للكتاني: (٢/١٠١٨)، و«أبجد العلوم» للقنوجي، ص ٣٤٣، و«الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة»، ص ١٩٥، و«كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»: (١/٧٣٣)، و«الأعلام»: (٣/٣٠٢)، و«معجم المؤلفين»: (٥/١٢٨).



المبحث الثالث

مصادر ومراجع السيوطي في «الدر المنثور»

لقد علمنا فيما سبق أن السيوطي اتبع في هذا الكتاب إلى الجمع والاستيعاب، فقد كثرت مصادره وتنوّعت موارده، وتعددت مناهله، فهو يكثر من النقل عن أصحاب الكتب الستة ومسند أحمد ومعجم الطبراني، ومستدرک الحاكم وسنن البيهقي وعن ابن مردويه وابن أبي الدنيا وغيرهم الكثير.

ولقد أثنى الدكتور عامر حسن صبري المكتبة الإسلامية بكتاب سماه: «مصادر جلال الدين السيوطي في كتابه: الدر المنثور في التفسير بالمأثور»، وذكر مصادر السيوطي، وقسمها ستة عشر قسمًا، ورتبها حسب وفيات مؤلفيها، فبدأ بقسم التفسير، ثم كتب علوم القرآن، وقسمها إلى كتب في: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات والمصاحف وأحكام التلاوة، وفضائل القرآن، وأحكام القرآن، وفي موضوعات مختلفة.

ثم انتقل إلى مصادره في الحديث، وفي علوم الحديث، وفي رواية الأحاديث، ثم إلى مصادره في السيرة، والتراجم، وتاريخ المدن وأخبارها وفضائلها، ثم إلى كتب الفقه وأصوله، وإلى اللغة والأدب، ثم كتب متنوعة.

وقد زادت مصادره في كتابه «الدر المنثور» على أربعمئة مصدر، ونظرًا لقيام الدكتور عامر صبري بهذا العمل المبارك الموفق فلا أرى أن أكرر ما ذكره وانتهجه، ولكنني أكتفي ههنا ببيان مصادره في التفسير وعلومه كنموذج لبيان مدى سعة اطلاع السيوطي رحمه الله تعالى على كتب من سبقه:

المطلب الأول: مصادره في التفسير

١- تفسير جوير بن سعيد الأزدي (ت ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م):

هو أبو القاسم جوير بن سعيد الأزدي البلخي، عداة في الكوفيين، ويقال: اسمه جابر، وجوير لقب.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن عبيدة، ومحمد بن سالم، وجوير؟ فقال: ما أقرب بعضهم من بعض، يعني: في الضعف.

وقال أبو طالب: قال أحمد بن حنبل: جوير، ما كان عن الضحاك فهو على ذاك أيسر، وما كان يسند عن النبي ﷺ فهي منكرة.

قال أبو حاتم: ليس بالقوي.

وقال النسائي وغيره: متروك الحديث.

وقال ابن معين وغيره: ليس بشيء.

وقال أبو داود: هو أصلح حالا من الكلبي.

وقال الفلاس: كان يحيى وابن مهدي لا يحدثان عن جوير، وكان سفيان يحدث عنه.

وقال عثمان الدارمي: قلت ليحيى: كيف حديثه؟ قال: ضعيف^(١).

٢- تفسير عبد الملك ابن جريج (١٥٠ هـ / ٧٦٧ م):

تفسير الإمام العلامة الحافظ، شيخ الحرم عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج القرشي الأموي صاحب التصانيف، وأول من دون العلم بمكة.

قال ابن عيينة: سمعت ابن جريج يقول: ما دون العلم تدويني أحد.

وروى: إسماعيل بن عياش، عن المثني بن الصباح، وغيره، عن عطاء بن أبي رباح، قال:

(١) ينظر: «العلل» ص ٨٨٩، و«الجرح والتعديل» ٢ / (٢٢٤٦)، و«تهذيب الكمال»: (١٦٧/٥).

سيد شباب أهل الحجاز: ابن جريج، وسيد شباب أهل الشام: سليمان بن موسى، وسيد شباب أهل العراق: حجاج بن أرطاة.
قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز، وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟
كلهم يقول: لنفسي.
غير أن ابن جريج، فإنه قال: طلبته للناس.
قال أحمد بن سعد بن أبي مريم: عن يحيى بن معين: ابن جريج: ثقة في كل ما روي عنه من الكتاب.
قال أبو محمد بن قتيبة: مولد ابن جريج سنة ثمانين، ومات: سنة خمسين ومائة^(١).

٣ - تفسير مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م):

هو حجة الأمة، وإمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني.
مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله: إمام دار الهجرة، مولده ووفاته في المدينة.
ذكر ابن النديم في «الفهرست» في باب تسمية الكتب في تفسير القرآن، قال: «كتاب تفسير مالك بن أنس»^(٢).

وقال القاضي عياض في «المدارك»: ولمالك بن أنس في تفسير القرآن

(١) ينظر: «العلل» ص ٨٨٩، و«الجرح والتعديل» ٢ / (٢٢٤٦)، و«تهذيب الكمال»: (١٦٧/٥).

قام علي حسن عبد الغني بجمع كتاب سماه «تفسير ابن جريج» وهو مطبوع.

(٢) ينظر: «كتاب الفهرست» لابن النديم، ص: ٥١.

كلام كثير وقد جمع، وتفسير يرويه عنه بعض أصحابه، وقد جمع أبو محمد مكي مصنفاً فيما روي عنه في التفسير والكلام في معاني القرآن وأحكامه مع تجويده له، وإحسانه وضبط حروفه.

وقال أيضاً: إن لمالك أوضاعاً شريفة مروية عنه أكثرها بأسانيد صحيحة في غير فن من العلم، ومن ذلك كتابه في «التفسير لغريب القرآن» الذي يرويه عنه خالد المخزومي^(١).

ولد سنة ثلاث وسبعين ومات سنة تسع وسبعين ومائة للهجرة.

٤- تفسير وكيع بن الجراح الكوفي (ت ١٩٧هـ/ ٨١٢م):

هو الإمام المفسر أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح ابن رؤاس الرؤاسي، ولد سنة تسع وعشرين ومائة على الراجح.

الإمام وكيع هو إمام في العقيدة، وإمام في علوم الحديث؛ رواية ودراية، وإمام في السنة والرد على أهل البدع، حتى وصفه الإمام أحمد بأنه كان إمام المسلمين في وقته، وقال أيضاً: ما رأيت رجلاً قط مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأبواب مع خشوع وورع.

قال أبو هشام الرفاعي: سمعت وكيعاً يقول: أهل السنة يروون ما لهم وما عليهم، وأهل البدعة لا يروون إلا ما لهم.

ومات: سنة خمسين ومائة^(٢).

(١) ينظر: «المدارك»: (١/ ٨١).

قام حميد بن محمد لجمع كتاب سماه: «تفسير الإمام مالك بن أنس»، وكذا قام محمد بن عبد العزيز المسند بجمع تفسير سماه أيضاً بـ«تفسير مالك بن أنس».

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٣٢٥-٣٣٣.

٥ - تفسير سفيان بن عيينة المكي (ت ١٩٨هـ/ ٨١٣م):

هو الإمام الكبير حافظ العصر أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي.

مولده بالكوفة، في سنة سبع ومائة.

ولقد كان خلق من طلبة الحديث يتكلفون الحج، وما المحرك لهم سوى لقي سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلو إسناده.

ومن كبار أصحابه المكثرين عنه: الحميدي، والشافعي، وابن المديني، وأحمد، وإبراهيم الرمادي.

قال الإمام الشافعي: لولا مالك وسفيان بن عيينة، لذهب علم الحجاز.

قال حرمله: سمعت الشافعي يقول: ما رأيت أحداً فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أكف عن الفتيا منه، قال: وما رأيت أحداً أحسن تفسيراً للحديث منه.

قال عبد الله بن وهب: لا أعلم أحداً أعلم بتفسير القرآن من ابن عيينة، وقال: أحمد بن حنبل أعلم بالسنن من سفيان^(١).

٦ - تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ/ ٨٢٦م):

هو الحافظ الكبير أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري.

قال أحمد: حدثنا عبد الرزاق: أنه ولد سنة ست وعشرين ومائة.

عن ابن معين، قال: كان عبد الرزاق في حديث معمر أثبت من هشام بن يوسف، وكان هشام بن يوسف أثبت منه في حديث ابن جريج، وأقرأ لكتب

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء»: ٤٥٤-٤٥٨.

ابن جريج من عبد الرزاق، وكان أعلم بحديث سفيان الثوري من عبد الرزاق. وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: إذا اختلف أصحاب معمر، فالحديث لعبد الرزاق.

قال علي بن المديني: قال لي هشام بن يوسف: كان عبد الرزاق أعلمنا وأحفظنا^(١).

٧ - تفسير محمد بن يوسف الفريابي (ت ٢١٢هـ/٨٢٧م):

هو الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الفريابي الضبي.

ولد سنة بضع وعشرين ومائة.

قال أحمد: كان رجلاً صالحاً، صحب سفيان، كتبت عنه بمكة.

وقال البخاري فيما حكاه عنه الدولابي: حدثنا محمد بن يوسف - وكان من أفضل أهل زمانه.

وقال النسائي: ثقة.

قال أحمد بن عبد الله العجلي: سألت الفريابي: ما تقول؟ أبو بكر أفضل أم لقمان؟ فقال: ما سمعت هذا إلا منك، أبو بكر أفضل من لقمان.

قال البخاري وابن يونس: مات في شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين^(٢).

(١) ينظر: «تاريخ ابن معين» ص ٣٦٢، «سير أعلام النبلاء»: ٩/٥٦٣-٥٦٦.

(٢) ينظر: «تاريخ ابن معين» ص ٥٤٣، «التاريخ الكبير» ١/٢٦٤، «سير أعلام النبلاء»: ١٠/١١٤-١١٨.

٨ - تفسير أبي نعيم الفضل بن ركين الكوفي (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م):
هو الإمام الكبير أبو نعيم الفضل بن دكين ابن درهم التيمي الطلحي
القرشي مولا هم الكوفي الملائي.
قال أحمد بن ملاعب: سمعت أبا نعيم يقول: ولدت في آخر سنة ثلاثين
ومائة.

قال أبو نعيم: شاركت سفیان الثوري في أكثر من أربعين شيخاً.
قال حنبل، عن أبي عبد الله قال: أبو نعيم أعلم بالشيخ وأنسابهم
وبالرجال، ووكيع أفقه.
قال أبو عبيد الآجري: قلت لأبي داود: كان أبو نعيم حافظاً؟ قال:
جداً.

قال أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب الفراء: كنا نهاب أبا نعيم أشد من
هيبة الأمير.

قلت: توفي أبو نعيم شهيداً، فإنه طعن في عنقه، وحصل له ورشكين.
قال محمد بن عبد الله مطين: رأيت أبا نعيم وكلمته. قال: ومات يوم
الشك من رمضان سنة تسع عشرة ومائتين^(١).

٩ - تفسير آدم بن أبي إياس البغدادي (ت ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م):
هو الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن آدم بن أبي إياس الخراساني
المروزي البغدادي العسقلاني.
ولد سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

(١) ينظر: «تاريخ ابن معين» ص ٤٧٤، «طبقات خليفة» ت (١٣٢٤)، «التاريخ الكبير» ٧ / ١١٨،
«الجرح والتعديل» ٧ / ٦١.

قال أبو حاتم الرازي: ثقة مأمون متعبد من خيار عباد الله.
وذكره أحمد بن حنبل، فقال: كان مكينا عند شعبة، كان من الستة الذين
يضبطون عنده الحديث.

قال محمد بن سعد: مات آدم في جمادى الآخرة، سنة عشرين ومائتين
وهو ابن ثمان وثمانين سنة وفي السنة أرخه يعقوب الفسوي ومطين^(١).

١٠ - تفسير سنيد الحسين بن داود (ت ٢٢٦هـ / ٨٤٠م):

هو الإمام الحافظ أبو علي سنيد أبو علي حسين بن داود المصيصي،
ولقبه: سنيد المصيصي، المحتسب، صاحب (التفسير الكبير).

قال أبو حاتم: صدوق.

وقال أبو داود: لم يكن بذاك.

وقال النسائي: ليس بثقة.

قال الداودي: وله تفسير رواه عنه محمد بن إسماعيل الصائغ.

مات: في سنة ست وعشرين ومائتين^(٢).

١١ - تفسير عبد الغني بن سعيد الثقفي (ت ٢٢٩هـ / ٨٤٣م):

هو أبو محمد عبد الغني بن سعيد بن عبد الرحمن الثقفي المصري.

ضعفه ابن يونس، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وابن يونس أعلم به،

وقد ذكر في «تاريخه» أنه توفي في رجب سنة ٢٢٧.

(١) ينظر: «التاريخ الكبير» ٣٩/٢، «التاريخ الصغير» ٣٤٢/٢، «الجرح والتعديل» ٢/٢٦٨،

«تاريخ بغداد» ٢٧/٧، «الأنساب» ٤٤٩/٨، ٤٥٠.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٠/٦٢٨.

قام سعيد محمد بابا سيلا بجمع بعض «مرويات سنيد في التفسير».

قال الداوودي: صاحب التفسير حدث عنه بكر بن سهل الدمياني. أفاد من تفسيره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» في ثمانية مواضع، وصرح بأن الطبراني روى عنه في «تفسيره» وأن ابن منده أفاد من «تفسير عبد الغني»، وأفاد أبو نعيم والواحدي عدة روايات تفسيرية له^(١).

١٢- تفسير ابن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م):

هو الإمام العلم سيد الحفاظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن القاضي أبي شيبة العبسي الكوفي.

أخو الحافظ عثمان بن أبي شيبة، والقاسم بن أبي شيبة الضعيف، فالحافظ إبراهيم بن أبي بكر هو ولده، والحافظ أبو جعفر محمد بن عثمان هو ابن أخيه، فهم بيت علم، وأبو بكر أجلهم.

وهو من أقران أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعلي بن المديني في السنن والمولد والحفظ، ويحيى بن معين أسنُّ منهم بسنوات.

وقال أحمد بن حنبل: أبو بكر صدوق، هو أحب إلي من أخيه عثمان.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان أبو بكر ثقة، حافظاً للحديث.

قال الخطيب: كان أبو بكر متقناً حافظاً، صف «المسند» و«الأحكام»

و«التفسير».

قال البخاري ومطين: مات أبو بكر في المحرم سنة خمس وثلاثين

ومائتين^(٢).

(١) ينظر: «تاريخ ابن يونس» ٣١٠/١.

قام سعيد محمد بابا سيلا بجمع بعض «مرويات سنيد في التفسير».

(٢) ينظر: «الجرح والتعديل» ١٦٠/٥، «تاريخ بغداد» ٦٦/١٠، ٧١، «سير أعلام النبلاء» ٣١٠/١.

١٣- تفسير إسحاق بن إبراهيم بن راهويه (ت ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م):

هو الإمام الكبير شيخ المشرق سيد الحفاظ، أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن راهويه التميمي الحنظلي المروزي.

مولده في سنة إحدى وستين ومائة.

سئل الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن راهويه فقال: (مثل إسحاق يُسأل عنه؟ إسحاق عندنا من أئمة المسلمين.) (١٠)

وقال: لم يعبر الجسر إلى خراسان مثل إسحاق.

وذكر إسحاق بن راهويه لقتيبة بن سعيد فقال: إسحاق إمام.

قال أبو حاتم الرازي: إسحاق بن راهويه إمام من أئمة المسلمين.

قال عنه النسائي في تسمية شيوخه: أحد الأئمة.

من مؤلفاته: «المُسند» و«كتاب التفسير»، و«كتاب العلم».

مات بنيسابور سنة ثمان وثلاثين ومائتين، لأربع عشرة خلت من شعبان وهو ابن خمس وسبعين سنة^(١).

١٤- تفسير عبد الرحمن بن إبراهيم الملقب بـ«دحيم» (ت ٢٤٥هـ/

٨٥٩م):

هو القاضي الإمام الفقيه الحافظ محدث الشام أبو سعيد عبد الرحمن بن

إبراهيم بن عمرو بن ميمون الدمشقي.

ولد في شوال سنة سبعين ومائة.

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» ٢/٢٠٩، «تاريخ بغداد» ٦/٣٤٥، ٣٥٥، «سير أعلام النبلاء» ١١/

قال ابن أبي حاتم: كان يعرف: بدحيم اليتيم، فسمعت أبي يقول: كان دحيم يميز ويضبط، وهو ثقة.
وقال النسائي: ثقة، مأمون.
كان ينتحل مذهب الأوزاعي.
قال أبو عبيد الآجري: سمعت أبا داود يقول: دحيم: حجة، لم يكن بدمشق في زمانه مثله^(١).

١٥- تفسير عبد بن حميد بن نصير (ت ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م):

هو الإمام الحافظ الحجة أبو محمد عبد بن حميد بن نصر الكشي، ويقال له: الكشي - بالفتح والإعجام -، يقال: اسمه: عبد الحميد.
ولد: بعد السبعين ومائة.

قال أبو حاتم البستي في كتاب (الثقات): عبد الحميد بن حميد بن نصر الكشي، وهو الذي يقال له: عبد بن حميد، وكان ممن جمع وصنف، مات سنة تسع وأربعين ومائتين^(٢).

١٦- تفسير محمد بن يزيد بن ماجه (ت ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م):

هو الحافظ الكبير الحجة المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، مصنف «السنن»، و«التاريخ»، و«التفسير»، وحافظ قزوين في عصره.

ولد سنة تسع ومائتين.

(١) ينظر: «الجرح والتعديل» ٥ / ٢١١، ٢١٢، «تاريخ بغداد» ١٠ / ٢٦٥، ٢٦٧، «سير أعلام النبلاء» ١١ / ٥١٥.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٣ / ٢٧٧، ٢٧٩.

وعن ابن ماجه، قال: عرضت هذه (السنن) على أبي زرعة الرازي، فنظر فيه، وقال: أظن إن وقع هذا في أيدي الناس تعطلت هذه الجوامع، أو أكثرها.

ثم قال: لعل لا يكون فيه تمام ثلاثين حديثاً، مما في إسناده ضعف، أو نحو ذا.

قال الذهبي: قد كان ابن ماجه حافظاً ناقداً صادقاً، واسع العلم، وإنما غص من رتبة «سننه» ما في الكتاب من المناكير، وقليل من الموضوعات. قال أبو يعلى الخليلي: هو ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة بالحديث وحفظ.

مات في رمضان سنة ثلاث وسبعين ومائتين^(١).

١٧- تفسير أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت ٣٠٩هـ/ ٩٢٠م):

هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه، نزيل مكة، وصاحب التصانيف كـ «الإشراف في اختلاف العلماء»، وكتاب «الإجماع»، وكتاب «التفسير»، وغير ذلك. ولد: في حدود موت أحمد بن حنبل.

قال الإمام النووي: الإمام المشهور أحد أئمة الإسلام، المجمع على إمامته وجلالته ووفور علمه، وجمعه بين التمكن في علمي الحديث والفقه، وله المصنفات المهمة النافعة في الإجماع والخلاف وبيان مذاهب العلماء، وله من التحقيق في كتبه ما لا يقاربه فيه أحد، وهو في نهاية من التمكن من

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٢٧٧، ٢٨١.

معرفة الحديث، وله اختيار فلا يتقيد في الاختيار بمذهب بعينه، بل يدور مع ظهور الدليل.

وقال الإمام السبكي: أحد أعلام هذه الأمة وأحبارها، كان إماماً مجتهداً، حافظاً ورعاً.

قال ابن القطان: كان ابن المنذر فقيهاً، محدثاً ثقة^(١).

١٨- تفسير أبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي الكبير (ت ٣١٧هـ/ ٩٢٩م):

هو الحافظ الإمام الحجة، المعمر مسند العصر أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي.

قال أبو بكر بن شاذان: سمعت البغوي يقول: ولدت سنة ثلاث عشرة ومائتين.

قال النقاش: رأيت فيه الانكسار والغم، وكان ثقة.

وقال الأردبيلي: سئل ابن أبي حاتم عن أبي القاسم البغوي: أيدخل في الصحيح؟ قال: نعم.

وقال حمزة السهمي: سألت أبا بكر بن عبدان عن البغوي، فقال: لا شك أنه يدخل في الصحيح.

قال الدارقطني: كان أبو القاسم بن منيع قل ما يتكلم على الحديث، فإذا تكلم، كان كلامه كالمسمار في الساج.

مات أبو القاسم البغوي سنة سبع عشرة وثلاث مائة^(٢).

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٤٩٠، ٤٩٢، وتفسيره مطبوع، حققه سعد بن محمد السعد.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٤٤٠، ٤٤٩.

١٩- تفسير عبد الله بن محمد بن حيان، المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (ت ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م):

هو الحافظ أبو الشيخ عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، صاحب التصانيف.

قال الذهبي: الإمام الحافظ الصادق، محدث أصفهان.

قال أبو بكر الخطيب: كان أبو الشيخ حافظاً ثبناً متقناً.

قال ابن مردويه: ثقة مأمون، صنف «التفسير» والكتب الكثيرة في الأحكام وغير ذلك.

قال أبو نعيم: كان أحد الأعلام، صنف «الأحكام» و«التفسير»، وكان يفيد عن الشيوخ، ويصنف لهم ستين سنة. توفي سنة تسع وستين وثلاث مائة^(١).

٢٠- تفسير أبي بكر، أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني (ت ٤١٠هـ/ ١٠١٩م):

هو الحافظ المجود العلامة أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهاني، صاحب «التفسير الكبير»، و«التاريخ»، و«الأمالي»، وغير ذلك.

مولده في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة.

قال أبو بكر بن أبي علي: هو أكبر من أن ندل عليه وعلى فضله، وعلمه وسيره، وأشهر بالكثرة والثقة من أن يوصف حديثه، أبقاه الله، وامتعه بمحاسنه.

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٤/ ٤٩٠، ٤٩٢.

قال أبو موسى: سمعت الإمام إسماعيل يقول: لو كان ابن مردويه خراسانياً، كان صيته أكثر من صيت الحاكم.
 مات: لست بقين من رمضان سنة عشر وأربع مائة، عن سبع وثمانين سنة^(١).

٢١- تفسير أبي إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م):
 تقدم التعريف به سابقاً.

المطلب الثاني: مصادر علوم القرآن

أ- أسباب النزول:

١- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ/١٠٧٥م):

هو الإمام العلامة الأستاذ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي.
 وصفه السبكي في «طبقات الشافعية»، والداوودي في «طبقات المفسرين» بأنه: واحد عصره في التفسير.
 مات بنيسابور سنة ثمان وستين وأربع مائة^(٢).

٢- العجائب في بيان الأسباب، لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م):

تقدم التعريف به سابقاً.

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٧/٣٠٨، ٣١١.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٨/٣٣٩، ٣٤١.

ب - في الناسخ والمنسوخ:

١- الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م):

هو الإمام الحافظ المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله

مولد أبي عبيد: سنة سبع وخمسين ومائة.

ابن معين، قال: أبو عبيد ثقة.

قال أحمد بن حنبل: أبو عبيد ممن يزداد عندنا كل يوم خيراً.

وقال أبو داود: أبو عبيد: ثقة، مأمون.

وقال أبو قدامة: سمعت أحمد بن حنبل يقول: أبو عبيد أستاذ.

وقال الدارقطني: ثقة، إمام، جبل^(١).

٢- الناسخ والمنسوخ لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م):

هو الإمام الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث

الأزدي السجستاني.

ولد سنة ثلاثين ومائتين.

قال الحافظ أبو محمد الخلال: كان ابن أبي داود إمام أهل العراق.

توفي أبو داود سنة خمس وسبعين ومائتين^(٢).

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٠/ ٤٩٠، ٥٠٩.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٢٢١، ٢٣٧.

٣- الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس المصري (ت ٣٣٨هـ/٩٤٩م):

هو العلامة إمام العربية أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل المصري النحوي، صاحب التصانيف.

وصفه أبو سعيد بن يونس بمعرفة النحو.

قال الذهبي: كان من أذكى العالم.

توفي سنة ثمان وثلاثين وثلاث مائة^(١).

ج - في القراءات والمصاحف وأحكام التلاوة:

١- القراءات، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م):
تقدم التعريف به سابقاً.

٢- المصاحف، لأبي بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ/٨٩٤م):

هو الإمام المحدث عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي البغدادي، صاحب التصانيف السائرة.

ولد سنة ثمان ومائتين.

وقال أبو حاتم: هو صدوق^(٢).

(١) ينظر: «طبقات النحويين واللغويين» ٢٣٩، «نزهة الالباء» ٢٠١ - ٢٠٢، «سير أعلام النبلاء» ٤٠١/١٥.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ٣٩٧/١٣، ٤٠١.

٣- القراءات لأبي العباس الفضل بن شاذان (ت ٢٩٠هـ / ٩٠٢م):

هو أبو محمد الفضل بن شاذان بن الخليل الأزدي.

من تصانيفه الكثيرة: كتاب التفسير، كتاب القراءات، السنن في الفقه^(١).

٤- المصاحف، لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت

٣١٦هـ / ٩٢٨م):

تقدم التعريف به سابقاً.

٥- المصاحف، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري النحوي (ت

٣٢٨هـ / ٩٣٩م):

هو الإمام الحافظ اللغوي أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري.

ولد سنة اثنتين وسبعين ومائتين.

قال محمد بن جعفر التميمي: ما رأينا أحداً أحفظ من ابن الأنباري،

ولا أغزر من علمه.

قال أبو بكر الخطيب: كان ابن الأنباري صدوقاً ديناً من أهل السنة.

مات سنة أربع وثلاث مائة^(٢).

٦- الوقف والابتداء، لأبي جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ / ٤٤٩م):

تقدم التعريف به سابقاً.

٧- المصاحف، لمحمد بن عبد الله بن أشته (ت ٣٦٠هـ / ٩٧٠م):

هو الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن أشته الأصبهاني.

(١) ينظر: «الأعلام» ٦٩/٨.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٥/٢٧٤، ٢٧٨.

توفي بمصر سنة ستين وثلاث مائة^(١).

د - في فضائل القرآن:

١- فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٨م):

تقدم التعريف به سابقاً.

٢- فضائل القرآن، لأبي بكر محمد بن أيوب بن الضريس (ت ٢٩٤هـ/

٩٠٦م):

هو الحافظ المحدث الثقة أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يحيى بن

ضريس البجلي الرازي.

مولده في حدود عام مائتين.

ومات سنة أربع وتسعين ومائتين^(٢).

٣- فضائل القرآن، لأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت

٣١٦هـ/٩٢٨م):

تقدم التعريف به سابقاً.

٤- فضائل القرآن، لأبي الشيخ عبد الله بن محمد بن حيان الأصبهاني

(ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م):

تقدم التعريف به سابقاً.

٥- فضائل القرآن، لأبي ذر عبد الله بن أحمد الهروي: (ت ٤٣٤هـ/

١٠٤٢م):

(١) ينظر: «الأعلام» ٦/٢٢٤.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٣/٤٤٩، ٤٥٢.

هو الحافظ الإمام المجود العلامة أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي المالكي، صاحب التصانيف.

قال أبو بكر الخطيب: كان ثقة ضابطاً ديناً.

قال عبد الغافر بن إسماعيل: كان أبو ذر زاهداً ورعاً عالماً، سخياً لا يدخر شيئاً، وكان حافظاً كثير الشيوخ.

مات سنة أربع وثلاثين وأربع مائة^(١).

هـ - في أحكام القرآن:

١- أحكام القرآن، للقاضي أبي إسحاق إسماعيل بن إسحاق البغدادي المالكي (ت ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م):

الإمام العلامة الحافظ أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الأزدي البصري المالكي.

مولده سنة تسع وتسعين ومائة.

قال أبو بكر الخطيب: كان عالماً متقناً فقيهاً، شرح المذهب واحتج له، وصنف (المسند) وصنف علوم القرآن.

قال الذهبي: وله كتاب (أحكام القرآن) لم يسبق إلى مثله، وكتاب (معاني القرآن)، وكتاب في القراءات.

قال ابن مجاهد: سمعت المبرد يقول: إسماعيل القاضي أعلم مني بالتصريف.

توفي فجأة سنة اثنتين وثمانين ومائتين^(٢).

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٧/ ٥٥٥، ٥٥٩.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٣/ ٣٣٩، ٣٤١.

و- كتب في موضوعات مختلفة:

١- مسائل ابن عباس، لأبي الحسين عبد الصمد بن علي الطستي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م):

هو المحدث الثقة المسند أبو الحسين عبد الصمد بن علي بن محمد بن مكرم البغدادي الطستي الوكيل.

توفي في شعبان سنة ست وأربعين وثلاث مائة^(١).

٢- آيات الحرز، لأبي محمد القاسم بن الحافظ بن عساكر الدمشقي (ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م):

هو الإمام المحدث الحافظ أبو محمد بهاء الدين القاسم بن علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي الشافعي، المعروف بابن عساكر.

مولده في سنة سبع وعشرين وخمس مائة.

توفي الحافظ سنة ست مائة، وكانت جنازته مشهودة^(٢).

هذا غيض من فيض من مصادر السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه «الدر المنثور»، وتبدو أهمية هذا التفسير في أنه حفظ لنا كتباً ونصوصاً وروايات ونسخاً كثيرة، ضاعت أغلبها ولم تصل إلينا إلا الشيء النذير.

ولا شك أن كثرة مصادر السيوطي تشهد له بطول الباع، وسعة الاطلاع، والصبر والجلد في الجمع والتصنيف.

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ١٥/٥٥٦، ٥٥٥.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» ٢١/٤١١، ٤٠٥.



المبحث الرابع

موازنة بين تفسير ابن جرير الطبري وتفسير الدر المنثور للسيوطي

جاء بعد التابعين شيخ المفسرين وإمامهم المجتهد المطلق صاحب التاريخ المعروف وصنف تفسيره المشهور «جامع البيان في تفسير آي القرآن» جامعاً بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المقبول، جمع وجوه البيان، وأقوال العلماء، وآراء المجتهدين، واجتهاد الصحابة والتابعين في المأثور والمعقول، والرأي المتزن والمعقول السليم، ووازن بين الآراء المختلفة ورجح أقربها إلى الحق أو إلى مفهوم اللغة التي نزل بها القرآن وكلام العرب، ورأى الطبري أن التفسير مقدمة للتأويل، وهذا كلام سديد ومنطق صحيح، وقال في مقدمة كتابه المذكور (٦/١): اللهم فوفقنا لإصابة صواب القول في مُحْكَمِهِ ومُتَشَابِهِهِ، وحلاله وحرامه، وعامِّه وخاصِّه، ومجمِّله ومفسِّره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آية وتفسير مُشْكَلِهِ، وألهمنا التمسك به والاعتصام بمحكمه، والثبات على التسليم لمتشابهه، وأوزعنا الشكر على ما أنعمت به علينا من حفظه والعلم بحدوده.

وبعد أن أورد الطبري في (٢٧/١) بعض الأخبار التي وردت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي، قال: وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا: من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يُدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ، أو بنصبه الدلالة عليه فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه. بل القائل في ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه، لأن إصابته ليست إصابة مُوقن أنه محق، وإنما هو إصابة

خارصٍ وطانٍ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لم يعلم.

ثم أورد الطبري الأخبار التي تحض على العلم بتفسير القرآن، ثم قال في المواعظ والتبيان بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة ص: ٢٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٧، ٢٨] وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه ما يدل على أنّ عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهم ما يُقال له ولا يعقل تأويله: اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به، فأما قبل ذلك، فمستحيلٌ أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل.

وسار المفسرون من بعد الطبري على الجمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالمعقول، واستقر ذلك منهجاً عاماً في التفاسير القديمة والمعاصرة، وامتألت كلها بتأويلات سائغة شرعاً، غير مذمومة عقلاً وفهماً، وأيد النيسابوري في كتابه «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» منهج الطبري، ويتضح ذلك فيما ذكره في (٤٩/١) في مبحث بيان النهي عن تفسير القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد فسروا القرآن، واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه، كيف وقد دعا النبي صلى الله عليه وآله لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل، فما فائدة تخصصه بذلك؟ وإنما النهي يحمل على وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق هواه، ليحتج على تصحيح غرضه.. إلخ.

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والاختصار والحذف والإضمار، والتقديم والتأخير، فالنقل والسماع لا بد منهما في ظاهر التفسير أولاً ليتقي بهما مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع للتفهم والاستنباط.

وطبق الطبري منهجه في الجمع بين المأثور والمعقول، في تصديه لتفسير معاني الآيات القرآنية، فمثلاً جاء في (١/١٤٣): القول في تأويل قوله: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال أبو جعفر: والعالمون جمع عالم، والعالم: جمع لا واحد له من لفظه، كالأنام والرهط والجيش، ونحو ذلك من الأسماء التي هي موضوعات على جماع لا واحد له من لفظه.

والعالم اسم لأصناف الأمم، وكل صنف منها عالم، وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم، وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. والجن عالم، وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه، وهذا القول الذي قلناه قول ابن عباس وسعيد بن جبیر، وهو معنى قول عامة المفسرين. ثم ذكر أقوالهم.

أما السيوطي فاقصر على إيراد الآثار المختلفة، دون تعرض لشيء من التأويل، فكان تفسيره في ذلك أقل مستوى من «تفسير الطبري»، ومنهجه الذي سار عليه جميع المفسرين، ففي تفسيره ﴿الْعَالَمِينَ﴾ في المثال السابق أورد عشر روايات عن ابن عباس وسعيد بن جبیر وجابر بن عبد الله ومجاهد وغيرهم مفسرين العالمين، بقولهم: الجن والإنس.

ويظهر من ذلك أن هناك اتفاقاً بين الطبري والسيوطي في التفسير بالمأثور ويزيد الطبري عن السيوطي أنه ضم إلى ذلك التفسير بالمعقول،

ويتضح الفرق بينهما في مثال آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وهو مما قد يوهم أن الإنسان مسير لا مخير، فلا نجد السيوطي في موقع تفسير هذه الآية (٤/ ٣٩١) يأتي بشيء فيها، لعدم وجود الآثار في ذلك، بينما الطبري (في ١٥/ ١٤١) يقول في تفسيرها: يقول الله عز وجل: من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق التي جعلها أدلة عليه، فهو المهتدي، يقول: فهو الذي قد أصاب سبيل الحق، ومن يضلل يقول: ومن أضله الله عن آياته وأدلته، فلم يوفقه للاستدلال بها على سبيل الرشاد، فلن تجد له ولياً مرشداً، يقول: فلن تجد له يا محمد خليلاً، وحليفاً يرشده، لإصابتها؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله، يوفق من يشاء من عباده، ويخذل من يريد، يقول: فلا يحزنك إِدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ عَنْكَ مِنْ قَوْمِكَ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ، فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ هَدَيْتُهُمْ، وبيدي الهداية والضلال.

مما سبق يتبين أن الله قادر على خلق الهداية والضلال في كل إنسان، لكنه سبحانه ترك الخيار للناس في اختيار الإيمان أو الكفر بمقتضى عقولهم، واسترشادهم بهدي الله في كتبه السماوية، وعلى أيدي أنبيائه، فمن قصر وأهمل البحث لمعرفة طريق الحق والإيمان فهو المؤاخذ على ضلاله، ويتركه الله في غيه وانحرافه، ومن بحث وتوصل إلى طريق الإيمان والحق، زاده الله هدى بتوفيقه في الكشف عن منارات أخرى للهداية أتم وأشمل، وأدق وأحكم، للاستمرار أو للثبات على منهج الحق، فاستحق هذا التأيد والعون، بعد اختياره أصل الهداية، وأما الأول فلم يستحق التوفيق - أي: الهداية - في الآية المذكورة، فكان عاصياً كافراً؛ لأنه لم يختر بنفسه أصل الهداية أو الدلالة على وجود الله ووحدانيته والإيمان بما أنزل الله في كتبه،

ومن المعلوم أن الهداية في القرآن نوعان: هداية عامة وهداية خاصة، والأولى هي الدلالة، وتشمل هداية الحواس والعقل، والدين، والثانية هي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة مع الدلالة^(١).



(١) ينظر: «السيوطي إمام التفسير بالمأثور في القرن العاشر» مجلة التراث العربي - دمشق العدد ٥١. د وهبة الزحيلي.



المبحث الخامس

منهج السيوطي في كتاب «الدر المنثور» عموماً مع نموذج تطبيقي

لم يتكلم الإمام السيوطي في مقدمة «الدر المنثور» عن منهجه فيه كما تكلم في مصنفاته الأخرى، بل ذكر فيها الباعث على التأليف، فقال السيوطي في مقدمة «تفسيره»: لما ألفت كتاب «ترجمان القرآن» وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وتم بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرج منها واردات رأيت قصوراً أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فخلصت منه هذا المختصر مقتصراً فيه على متن الأثر مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر.

وقد قصد السيوطي أن يجمع في كتابه هذا كل ما أثر في التفسير من الأحاديث والآثار، ولم يلتزم شيئاً من الشروط التي تقيد عمله في الجمع، فتدخل بعضاً وتخرج بعضاً، فاستوعب معظم المرويات التي خرَّجها السلف في التفسير وما يتعلق به، شأن صنيعه في «جامعه الكبير» في الحديث، الذي قصد فيه إلى جمع السنة في موسوعة واحدة، فاشتمل الكتابان على الصحيح والحسن والضعيف، بل والأحاديث المنكرة والواهية، وما ادَّعى فيه البطلان والوضع، خاصة في الإسرائيليات المروية في بدء الخليقة، وقصص الأنبياء، وأخبار الأوائل.

وعلى الرغم من علو مكانة السيوطي رحمه الله في الحديث وعلومه، وطول باعه فيه راوية ودراية، بيد أنه كان قليل النقد للمرويات التي أوردها

في كتابه هذا، ولعل عذره في ذلك أنه كان مصروف الهممة إلى الجمع والاستيعاب، دون التحقيق والنقد، وتلك كانت سمة ظاهرة على عامة مصنفاته، فإنه ينزع فيها عادة؛ إما إلى الاختصار، وإما إلى الجمع لما سبقه من التصانيف، فيودعها في كتاب واحد.

وقد حكم على ثلثة من الأسانيد بما فيها من صحة أو ضعف، فتراه يعقدها بلفظ مختصر في عقبها بمثل قوله: أخرج فلان بسند صحيح، أو بسند لا بأس به، أو بسند جيد، أو بسند قوي، أو بسند رجاله ثقات، أو بسند مقارب. وبمثل قوله: أخرج فلان بسند ضعيف، أو بسند واه، أو بسند لين، أو بسند فيه مجهول أو مجاهيل، أو بسند ضعيف جداً...

ومن خلال التتبع لهذا الكتاب نجد أن السيوطي يبتدئ السورة بذكر اسمها وعدد آياتها، ثم يذكر المكي والمدني معتمداً في كثير من الأحيان على كتاب أبي جعفر النحاس وابن الضريس وأبي الشيخ الأصفهاني، ثم يقسم السورة إلى آيات، ويقسمها إلى أبعاض مكتفياً بها عن ذكر الآية بتمامها.

وقد أهمل في تفسيره بعض الآيات فلم يفسرها وذلك لأنه لم يجد لها تفسيراً مأثوراً، وهذا يمكن أن يفهم منه أن التابعين والصحابة وأتباع التابعين بعدهم ما كان يشكل عليهم كل شيء في التفسير وإنما كان يشكل عليهم الآيات القليلة فيفسرونها وهذا هو معنى أنه لم يفسر بعض الآيات.

وختم تفسيره بدعاء ختم القرآن بنقل مطول من أول كتاب «أسباب النزول» للحافظ بن حجر العسقلاني المسمى بـ«العجاب في بيان الأسباب» وقد تكلم فيه ابن حجر العسقلاني عن جملة في «تفسيره» عن «تفسير الطبري» و«ابن أبي حاتم» و«عبد بن حميد» وتكلم عن هذه التفاسير من حيث

الإجمال، ثم تكلم عن التابعين من أصحاب النبي ﷺ الذين اشتهروا بالتفسير مثل ابن عباس، وذكر الثقات من التابعين والضعفاء منهم ومن بعد التابعين^(١).

المثال والنموذج التطبيقي:

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

انتهج السيوطي في تفسير هذه الآية على النحو التالي:

أ - سبب النزول:

١ - أخرج مالك في «الموطأ» وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن أبي داود وابن الأنباري في «المصاحف» معاً وابن أبي حاتم والبيهقي في «السنن»: عن عائشة أن عروة قال لها: رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد جناحاً أن يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما نزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. قالت عائشة: ثم سن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما.

(١) ينظر: مقدمة «الدر المنثور» طبعة هجر.

٢ - وأخرج عبد بن حميد والبخاري والترمذي وابن جرير وابن أبي داود في «المصاحف» وابن أبي حاتم وابن السكن والبيهقي عن أنس: أنه سئل عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﷻ﴾.

٣ - وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا في الجاهلية إذا أحرموا لا يحل لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما قدمنا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﷻ﴾.

٤ - وأخرج ابن جرير وابن أبي داود في «المصاحف» وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كانت الشياطين في الجاهلية تعزف الليل أجمع بين الصفا والمروة، فكانت فيها آلهة لهم أصنام، فلما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله ألا نطوف بين الصفا والمروة فإنه شيء كنا نصنعه في الجاهلية؟ فأنزل الله: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﷻ﴾ يقول: ليس عليه إثم ولكن له أجر.

٥ - وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعي بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﷻ﴾ الآية.

٦ - وأخرج ابن جرير عن عمرو بن حبيش قال: سألت ابن عمر عن قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﷻ﴾ الآية. فقال: انطلق إلى ابن عباس فأسأله، فإنه أعلم من بقي بما أنزل على محمد. فأتيته فسألته فقال: إنه كان عندهما أصنام، فلما أسلموا أمسكوا عن الطواف بينهما حتى أنزلت: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ ﷻ﴾ الآية.

٧- وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية. وذلك أن ناساً تخرجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فأخبر الله أنهما من شعائره الطواف بينهما أحب إليه، فمضت السنة بالطواف بينهما.

٨- وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عامر الشعبي قال: كان وثن بالصفا يدعى أساف ووثن بالمروة يدعى نائلة، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يسعون بينهما ويمسحون الوثنيين، فلما قدم رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن الصفا والمروة إنما كان يطاف بهما من أجل الوثنيين وليس الطواف بهما من الشعائر! فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية. فذكر الصفا من أجل الوثن الذي كان عليه، وأثنت المروة من أجل الوثن الذي كان عليه مؤثناً.

٩- وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال: قالت الأنصار إنما السعي بين هذين الحجرين من عمل أهل الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال: من الخير الذي أخبرتك عن فلم يخرج من لم يطف بهما ﴿ومن تطوع خيراً فهو خيراً له﴾ فتطوع رسول الله ﷺ فكانت من السنن، فكان عطاء يقول: يبدل مكانه سبعين بالكعبة إن شاء.

١٠- وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان ناس من أهل تهامة في الجاهلية لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وكان من سنة إبراهيم وإسماعيل بينهما.

١١- وأخرج وكيع وعبد الرزاق وعبد بن حميد ومسلم وابن ماجه وابن جرير عن عائشة قالت: لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته، ولأن الله قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

١٢- وأخرج عبد بن حميد ومسلم عن أنس قال: كانت الأنصار يكرهون السعي بين الصفا والمروة حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فالطواف بينهما تطوع.

ب - القراءات:

١- وأخرج أبو عبيد في «فضائله» وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي داود في «المصاحف» وابن المنذر وابن الأنباري عن ابن عباس: أنه كان يقرأ: «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما».

٢- وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء قال: في مصحف ابن مسعود «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما».

٣- وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن حماد قال: وجدت في مصحف أبيي «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما».

٤- وأخرج ابن أبي داود عن مجاهد. أنه كان يقرأ «فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما».

٥- وأخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس. أنه قرأ «فلا جناح عليه أن يطوف» مثقلة، فمن ترك فلا بأس.

ج - التفسير والأحكام:

١- وأخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه عن ابن عباس: أنه أتاه رجل فقال: أبدأ بالصفا قبل المروة، وأصلي قبل أن أطوف، أو أطوف قبل وأحلق قبل أن أذبح، أو أذبح قبل أن أحلق؟ فقال ابن عباس: خذوا ذلك من كتاب الله فإنه أجدر أن يحفظ، قال الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ فالصفا قبل المروة، وقال: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]

فالدبح قبل الحلق. وقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦] والطواف قبل الصلاة.

٢- وأخرج وكيع عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: لم بدىء بالصفاء قبل المروة؟ قال: لأن الله قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ﴾.

٣- وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في سننه عن جابر قال: «لما دنا رسول الله ﷺ من الصفا في حجته قال: إن الصفا والمروة من شعائر الله، ابدؤا بما بدأ الله به فبدأ بالصفاء فرقى عليه».

٤- وأخرج الشافعي وابن سعد وأحمد وابن المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي بحران قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره، وهو يقول: اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي.

٥- وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: سأل رسول الله ﷺ فقال: «إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا».

٦- وأخرج وكيع عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال: سألت ابن عباس عن السعي بين الصفا والمروة قال: فعله إبراهيم عليه السلام.

٧- وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: يزعم قومك أن رسول الله ﷺ سعى بين الصفا والمروة وإن ذلك سنة، قال: صدقوا إن إبراهيم لما أمر بالمناسك اعترض عليه الشيطان عند المسعى، فسابقه فسابقه إبراهيم.

٨- وأخرج الحاكم عن ابن عباس: أنه رآهم يطوفون بين الصفا والمروة فقال: هذا مما أورتكم أم إسماعيل.

٩- وأخرج الخطيب في «تالي التلخيص» عن سعيد بن جبير قال: أقبل إبراهيم ومعه هاجر وإسماعيل عليهم السلام، فوضعهم عند البيت فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: فعطش الصبي فنظرت فإذا أقرب الجبال إليها الصفا، فسعت فرقت عليه، فنظرت فلم تر شيئاً، ثم نظرت فإذا أقرب الجبال إليها المروة، فنظرت فلم تر شيئاً، قال: فهي أول من سعى بين الصفا والمروة، ثم أقبلت فسمعت حفيفاً أمامها، قال: قد أسمع فإن يكن عندك غياث فهلم، فإذا جبريل أمامها يركض زمزم بعقبه فنيع الماء، فجاءت بشيء لها تقرى فيه الماء فقال لها: تخافين العطش؟ هذا بلد ضيفان الله لا يخافون العطش.

١٠- وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله لا لغيره».

١١- وأخرج الأزرقى عن أبي هريرة قال: السنة في الطواف بين الصفا والمروة أن ينزل من الصفا، ثم يمشي حتى يأتي بطن المسيل، فإذا جاء سعى حتى يظهر منه، ثم يمشي حتى يأتي المروة.

١٢- وأخرج الأزرقى من طريق مسروق عن ابن مسعود: أنه خرج إلى الصفا فقام إلى صدع فيه فلبى فقلت له: إن ناساً ينهاون عن الإهلال ههنا قال: ولكني أمرك به هل تدري ما الإهلال؟ إنما هي استجابة موسى لربه، فلما أتى الوادي رمل وقال: رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم.

١٣- وأخرج الطبراني والبيهقي في «سننه» عن ابن مسعود: أنه قام على

الصدع الذي في الصفا وقال: هذا، والذي لا إله غيره مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾:

١- أخرج ابن أبي داود في «المصاحف» عن الأعمش قال: في قراءة عبد الله: «ومن تطوع بخير».

٢- وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عمر أنه كان يدعو على الصفا والمروة يكبر ثلاثاً، سبع مرات يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له ولو كره الكافرون.

وكان يدعو بدعاء كثير حتى يبطننا وإنا لشباب، وكان من دعائه: اللهم اجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ويحب رسلك ويحب عبادك الصالحين، اللهم حببني إليك، وإلى ملائكتك وإلى رسلك، وإلى عبادك الصالحين، اللهم يسرنى ليسرى، وجنبنى للعسرى، واغفر لي في الآخرة والأولى، واجعلني من الأئمة المتقين ومن ورثة جنة النعيم، واغفر لي خطيئتي يوم الدين.

اللهم إنك قلت: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنك لا تخلف الميعاد. اللهم إذ هديتني للإسلام فلا تنزعه مني ولا تنزعني منه حتى توفاني على الإسلام وقد رضيت عني.

اللهم لا تقدمني للعذاب ولا تؤخرني لسيء الفتن.

٣- وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب قال: من قدم منكم حاجاً فليبدأ بالبيت فليطف به سبعاً، ثم ليصل ركعتين عند مقام

إبراهيم، ثم ليأت الصفا فليقم عليه مستقبل الكعبة، ثم ليكبر سبعاً بين كل تكبيرتين حمد الله وثناء عليه والصلاة على النبي ﷺ ويسأله لنفسه، وعلى المروة مثل ذلك.

٤- وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» عن ابن عباس قال: ترفع الأيدي في سبعة مواطن: إذا قام إلى الصلاة، وإذا رأى البيت، وعلى الصفا والمروة، وفي عرفات، وفي جمع، وعند الجمرات.

٥- وأخرج الشافعي في «الأم» عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ترفع الأيدي في الصلاة، وإذا رأى البيت، وعلى الصفا والمروة، وعلى عرفات وجمع، وعند الجمرتين، وعلى الميت».

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

١- أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: لا شيء أشكر من الله، ولا أجزئ بخير من الله عز وجل.

يتبين لنا مما تقدم أن السيوطي بدأ بذكر المآثورات في سبب نزول الآية، ثم ذكر بعدها القراءات، ثم ذكر بعد القراءات المآثورات في تفسير الآية عموماً من شرح غريب أو حكم شرعي، و...، ثم ذكر بعد ذلك المآثورات أو القراءات في خصوص بعض الجمل في الآية.



المبحث السادس

طبعات كتاب «الدر المنثور»

طبع كتاب «الدر المنثور» بكثرة، وتنافست دور الكتب بطباعته وخدمته، فأول طبعة للكتاب هي طبعة المطبعة المنيرية في القاهرة سنة (١٣١٤هـ)، وهذه الطبعة قد نفذت، ولم تعد توجد إلا في المكتبات العامة أو عند بعض العلماء.

الطبعة الثانية من طبعات «الدر المنثور» هي طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر في بيروت، وهذه الطبعة طبع في هامشها القرآن الكريم مع «تفسير ابن عباس» المنسوب إليه خطأ، وقد خرجت هذه الطبعة عن دار المعرفة في ستة مجلدات، هذه الطبعة هي أشهر طبعات «الدر المنثور».

الطبعة الثالثة طبعة دار الكتب العلمية في بيروت الطبعة الأولى عام (١٤١٠هـ) هجرية، وهي صورة من الأولى دار المعرفة، وطبعة دار الفكر العربي بالقاهرة مثلها اعتمدت دار المعرفة في بيروت، ثم الطبعة الثانية لدار الكتب العلمية عام (١٤٢٠هـ) تقريباً، ثم طبعة دار الفكر في بيروت في ثمانية مجلدات طبعاً دار الفكر في بيروت طبعتها في ثمانية مجلدات.

ثم الطبعة الأخيرة وهي طبعة دار هجر التي اعتنى بنشرها معالي الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، وقد خرجت هذه الطبعة في سبعة عشر مجلداً، وقد اعتمدوا على عدد كبير من النسخ المخطوطة الموثوقة، وقد قابلوها على هذه المخطوطات، فخرج الكتاب في أبهى وأجمل حلة، وقاموا بتخريج الآثار والأحاديث وكل الروايات التي في الكتاب بحسب الطاقة،

فما كان الكتاب الذي نقل منه السيوطي موجود من تفسير الطبري وغيره فإنهم يوثقون من الكتاب نفسه ، وما كان الكتاب الذي نقل منه السيوطي مفقوداً ينقلون أو يوثقونه من الكتب التي بعده وهكذا ، وقاموا بضبط النص وتخريج الآيات والقراءات والأحاديث والآثار وأبيات الشعر ، واتبعوا ذلك بفهارس قيمة فتعد هذه الطبعة هي أوفى طبعات «الدر المنثور».



الخاتمة

يتضح لنا من خلال ما تقدم أن الأمة الإسلامية أمة عظيمة تمتلك إراثاً حضارياً كبيراً، وعلى الرغم من التدهور السياسي والاجتماعي والاقتصادي التي عانتها، وحالة التمزق والتفكك التي عاشتها، إلا أنها ظلت قادرة على العطاء الفكري، والتفوق العلمي، وإنجاب العلماء البارعين في شتى ميادين المعرفة، والذين أسهموا في خدمة الثقافة الإسلامية.

فبعد سقوط الخلافة العباسية على يد التتار انتقلت الحركة العلمية من بغداد إلى مصر، فصارت مصر حاضنة للعلماء والفقهاء والأدباء والمفكرين من مختلف أرجاء العالم الإسلامي الذين وفدوا إليها وأقاموا بها واتخذوها وطناً.

ويتضح لنا في نهاية البحث أن كتاب «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» أثمن مؤلفات السيوطي، ومن أغنى كتب التفسير وأجمعها لما روي عن النبي ﷺ وعن الصحابة وعن التابعين وعن أتباع التابعين في التفسير، فهو عمدة في التفسير بالمأثور جمع كل ما في الكتب السابقة عليه.

وأخيراً فإنني أحمد الله سبحانه وأشكره على نعمه وإحسانه، وعلى الإعانة والتوفيق لإتمام هذا العمل.

ولا يفوتني هنا أن أتوجه بخالص الشكر إلى كل من أعانني على هذا البحث خاصة الباحثين الذين سبقوني في دراسة حياة الإمام السيوطي

فجزاهم الله عني خيراً، فقد أعانني ذلك كثيراً، بل أحسب أنّ عملي هذا ما هو إلا جمع لما قدموه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه

يوسف بن نوح أحمد

١٠١٤/١/١ م

مكة المكرمة زادها الله تعظيماً وتشريعاً



فهرس الموضوعات

٥	المقدمة
١٣	الباب الأول: وفيه ثلاث فصول:
١٥	الفصل الأول: الحالة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية:
١٩	المبحث الأول: الحالة السياسية
١٩	المطلب الأول: بداية الممالك وأصولهم
٢٦	المطلب الثاني: عوامل قيام دولة الممالك البحرية
٤٥	المطلب الثالث: سلاطين دولة الممالك البحرية
٥١	المطلب الرابع: الجو السياسي العام
٥٤	المطلب الخامس: السياسة الخارجية:
٦١	المبحث الثاني: الحالة الإدارية
٦١	المطلب الأول: التقسيمات الإدارية:
٦٣	المطلب الثاني: النظام الإداري:
٧٥	المبحث الثالث: الحالة الاقتصادية
٧٥	المطلب الأول: الزراعة
٨٣	المطلب الثاني: الصناعة
٨٦	المطلب الثالث: التجارة
٩٠	المطلب الرابع: موارد ونفقات الدولة
٩٧	المبحث الرابع: الحالة الاجتماعية
٩٧	المطلب الأول: الفئات الاجتماعية
١٠١	المطلب الثاني: الأمراض الاجتماعية
١٠٤	المطلب الثالث: صور من المظالم
١٠٩	المطلب الرابع: المجاعات والأوبئة والأزمات الاقتصادي

١١٤	المطلب الخامس: المرأة
١١٧	المطلب السادس: أحوال أهل الذمة
١٢٥	المبحث الخامس: الحالة الدينية
١٢٥	المطلب الأول: الأعياد والاحتفالات
١٢٨	المطلب الثاني: الوظائف الدينية
١٣٣	المبحث السادس: الحالة العلمية والفكرية
١٣٨	المطلب الأول: عوامل ازدهار الحياة الفكرية
١٦٢	المطلب الثاني: مقومات الحياة الفكرية (المساجد والمدارس)
٢٠٣	الفصل الثاني: ترجمة الإمام السيوطي، ويشمل خمسة مباحث:
٢٠٧	المبحث الأول: اسمه ونسبه، كنيته ولقبه، والده، أمه
٢٠٨	المطلب الأول: اسمه ونسبه
٢٠٨	المطلب الثاني: كنيته ولقبه
٢٠٩	المطلب الثالث: والده
٢١٠	المطلب الرابع: أمه
٢١٣	المبحث الثاني: مولده وأسرته، ونشأته وبدء طلبه للعلم ورحلاته
٢١٣	المطلب الأول: مولده
٢١٣	المطلب الثاني: أسرته
٢١٤	المطلب الثالث: نشأته وبدء طلبه للعلم
٢١٧	المطلب الرابع: رحلاته
٢٢١	المبحث الثالث: بدء تدريسه وإفتائه وإملائه ووظائفه
٢٢٩	المبحث الرابع: خلقه وورعه، وتمسكه بالسنة وسلوكه طريق السلف الصالح
٢٢٩	المطلب الأول: خلقه وورعه
٢٣٠	المطلب الثاني: تمسكه بالسنة وسلوكه طريق السلف الصالح
٢٣٣	المبحث الخامس: وفاته
٢٣٥	الفصل الثالث: الحياة العلمية والفكرية للإمام السيوطي:
٢٣٧	المبحث الأول: شيوخ السيوطي

- ٢٤٥ المبحث الثاني: تلاميذ السيوطي
- ٢٥١ المبحث الثالث: مؤلفات وآثار السيوطي
- ٢٩١ الباب الثاني: منهج الإمام السيوطي في «الدر المنثور»، وفيه فصلان:
- ٢٩٣ الفصل الأول: جهود الإمام السيوطي في التفسير وعلومه عموماً، وفيه مبحثان:
- ٢٩٧ المبحث الأول: أهم مصنفات السيوطي في التفسير
- ٢٩٧ المطلب الأول: تفسير الجلالين
- ٢٩٨ المطلب الثاني: نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار
- ٢٩٩ المطلب الثالث: مجمع البحرين ومطلع البدرين
- ٢٩٩ المطلب الرابع: ترجمان القرآن
- ٣٠٠ المطلب الخامس: الإكليل في استنباط التنزيل
- ٣٠١ المطلب السادس: أسرار التأويل (قطف الأزهار في كشف الأسرار)
- ٣٠٥ المبحث الثاني: أهم مصنفات السيوطي في علوم القرآن
- ٣٠٥ المطلب الأول: لباب النقول في أسباب النزول
- ٣٠٥ المطلب الثاني: مفحمت الأقران في مبهات القرآن
- ٣٠٦ المطلب الثالث: تناسق الدرر في تناسب السور
- ٣٠٧ المطلب الرابع: مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع
- ٣٠٧ المطلب الخامس: معترك الأقران في مشترك القرآن
- ٣٠٨ المطلب السادس: شرح الشاطبية
- ٣٠٨ المطلب السابع: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب
- ٣٠٨ المطلب الثامن: التحبير في علم التفسير
- ٣٠٩ المطلب التاسع: الإتقان في علوم القرآن
- ٣١١ الفصل الثاني: منهج الإمام السيوطي في «الدر المنثور»، وفيه ست مباحث:
- ٣١٥ المبحث الأول: التفسير بالمأثور تعريفه ومصادره وضوابطه وأهم التفاسير بالمأثور
- ٣١٥ المطلب الأول: التفسير بالمأثور تعريفه اللغوي والاصطلاحي
- ٣١٦ المطلب الثاني: مصادر التفسير بالمأثور
- ٣١٦ المطلب الثالث: ضوابط التفسير بالمأثور

٣١٧	المطلب الرابع: أبرز المؤلفات في التفسير بالمأثور
٣٢٥	المبحث الثاني: تسمية ونسبة «الدر المنثور»
٣٢٧	المبحث الثالث: مصادر ومراجع السيوطي في «الدر المنثور»
٣٢٧	المطلب الأول: مصادره في التفسير
٣٤١	المطلب الثاني: مصادره في علوم القرآن
٣٤٩	المبحث الرابع: موازنة بين تفسير ابن جرير الطبري وتفسير الدر المنثور للسيوطي
٣٥٥	المبحث الخامس: منهج السيوطي في كتاب «الدر المنثور» عموماً مع نموذج تطبيقي
٣٦٥	المبحث السادس: طبعات كتاب «الدر المنثور»
٣٦٧	الخاتمة
٣٦٩	فهرس الموضوعات

